مورل مفروي

بنت مولانا

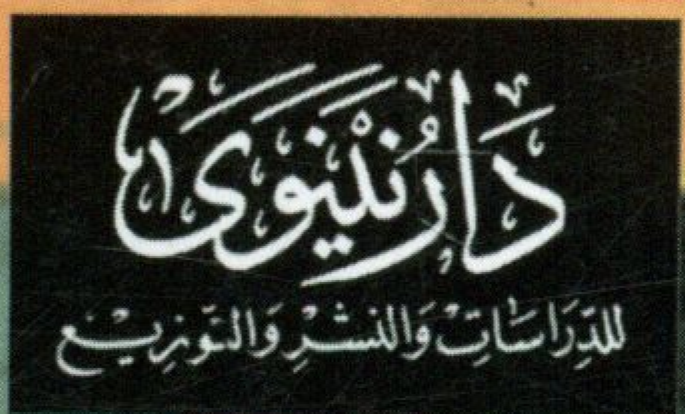
جلال الدين الرومي

ترجمة

محمد عيد إبراهيم

ملحق: مقتطفات من رباعيات جلال الدين الرومي

رواية



بنت مولانا

مع ملحق

قطائف من رباعيات

مولانا جلال الدين الرومي

عنوان الكتـــاب: بنت مولانا - رواية
اسـم المؤلـف: مورل مفروي
اسم المترجـم: محمد عيد إبراهيم
عدد الصفحات: 238
القيـــــاس: 14.5 ◆ 21.5
الطبعة الأولـى: 1000 / 2007 م -1427 هـ
الطبعة الثانيـة: 1000 / 2014 م -1435 هـ



سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتـف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
www.ninawa.org

 دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

 Ayman ghazaly

---

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة

القسم الفني - دار نينوى

مورل مفروي

بنت مولانا

مع ملحق

قطائف من رباعيات

مولانا جلال الدين الرومي

رواية

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

Author: Muriel Maufroy
Original Title: Rumi's Daughter

كيميا

كيميا شخص حقيقيّ. فردٌ من أسرة مولانا جلال الدين الروميّ. وقد زُوّجت شمس الدين بعد رجوعه من دمشق. يذكُر بعض المؤرّخين أن زيجتها كانت تعسة.

مؤلّفة الرواية

مورل مفروي

ولدت بفرنسا، تخرّجَت في معهد الدراسات الشرقية والإفريقية، حيث درسَت الفارسية. وقد عملَت زمناً طويلاً صحفيّةً في خدمة محطّة BBC عبر العَالَم. أصدرَتْ مقتطفات من أعمال مولانا جلال الدين الروميّ تحت عنوان "تَنَسّم الحقيقة". تعيش في لندن.

جدول زمنيّ

١١٩٠ : يتوقّف فردريك بربروسا[١] في قونية[٢]، وهو ذاهب إلى فلسطين، عابراً جبال طوروس[٣] ثم يغرق في صقلية.

١٢٠٤ : الحملة الرابعة - الغزاة ينهبون القسطنطينية[٤].

١٢٠٧ : مولد جلال الدين الروميّ في مقاطعة بلخ[٥].

١٢٢٥ : يتزوّج مولانا جهار خاتون، حيث تُنجب له ابنين: سلطان ولد، وعلاء الدين. وبعد وفاتها، يتزوّج كيره خاتون، فتنجب له ولداً وبنتاً: عليم ومليكة.

١٢٢٩ : تستقرّ عائلة مولانا في قونية، بالأناضول[٦].

١٢٤٣ : يدحر المغول الجيش السلجوقيّ في كوسيه داف، بهزيمة تُنهي هيمنة السلاجقة على الأناضول.

١٢٤٤ : وصول شمس الدين إلى قونية.

١٢٤٦ : أول اختفاء لشمس الدين.

١٢٤٨ : آخر اختفاء لشمس الدين.

---

(١) فردريك بربروسا: (١١٢٣ - ١١٩٠)، حكم الإمبراطورية الرومانية في الفترة (١١٥٢ - ١١٩٠). (م)

(٢) قونية: مدينة تقع جنوب غربيّ تركيا. (م)

(٣) جبال طوروس: تمتدّ جنوب تركيا، بمحاذاة ساحل المتوسّط. (م)

(٤) القسطنطينية: اسم مدينة اسطنبول، أيام الدولة البيزنطية. (م)

(٥) بلخ: مقاطعة تقع شمال أفغانستان، قديماً. (م)

(٦) الأناضول: شبه جزيرة آسيا الصغرى. (م)

"تمعَّن في هذه الوردة - النديّة بماء الحياة، الأشدّ ينوعاً الآن - فهي قبل عرائس الجنة، سوف تذوي حتماً"

جلال الدين الروميّ

بنت مولانا

- ١ -

انحدر المدقّ. ندُر حولها الشجر، وعلقَت بقفطانها[1] أعشاب شوكيّة. ألقت حُزمتها من الحطب الجاف. عليها أن تنتظر أسيل عند المفرق. واصلت في تحفّز على المدقّ الذي ضاق أكثر، تتساءل: هل راحت أسيل من ناحية أخرى؟ وهل ستعود؟

وصلت مرتفعاً تبيّنَت منه كتلة بنفسجية من سلسلة جبال منبسطة بعيدة، فوقها حفنة سحب بيضاء تتجرف متوانية. فوقفَت تتسمّع وقع أقدام أسيل. أطلق عصفور، من مكان يسارها، زقزقة. وطنّت حولها الحشرات في حرّ الصبح. لكنها لم تسمع طقطقة أفرع شجر، أو تقلّب أوراق بائدة، علامة أن أختها تقترب.

هل كان نوعاً من الخبل ألاّ تنتظر أسيل؟ منذ أيام توسّلت إليها أمها، نصف مبتسمة نصف جادّة: "لقد بلغت السابعة، وعليك أن تعقلي". عرفت كيميا أن أمها آفدكيا تتكلّم عما تطلق عليه "حالات ذهول"، اللحظات التي تغيب فيها عن مسار الزمان والمكان. لا تفهم ما يحدث عندئذ، ولا تعرف متى تأتيها. فكيف تطلب منها آفدكيا العقل؟

تأوّهت ثم مدّت خطوها تستمتع بالهواء الرطب على وجهها. بينما جلست على صخرة، سعيدة بوحدتها. هلّت من جديد: قوة، طاقة، سمّرتها في سكينة. واستضاء ما حولها. تبدو الشجيرات، جلاميد صخر، السحب المنجرفة، أشياءً حيّة، بمحيط أكثر حدّة، بينما تنبض القوة نفسها في شرايينها، تغمرها بصمتها المهول. فتُغمض عينيها،

1 – القفطان: ثوب فضفاض سابغ مشقوق المقدم، يضم طرفيه حزام ويُتخذ من الحرير أو القطن، وتُلبس فوقه جبّة.

مغلوبة بتوتّر التجربة. كان لحن وحيد صدّاح، يتردّد في أذنيها ثم يتلاشى، فتحسّ بنفسها وقد راحَت في غمرة فرح ساكن برّاق.

سمعَت صوتاً ينادي باسمها، بدا خافتاً ثم علا. راقبَت طنين الحشرات ثانية، وخشخشة ورق الشجر في النسيم. فقدَت حدّتها جلاميد الصخر والشجيرات والسحب. عندئذٍ ظهرت أختها أسيل عند حنية المدقّ، على رأسها حزمة حطب كبيرة.

"كيميا! لمَ لم تردّي عليّ حين ناديتُ؟"، عيناها سوداوان كعينَي كيميا، تشعّان بالغضب. قالت: "أعرف، لم تسمعيني. لم تعرفي ما جرى. لن تعرفي ما جرى!".

أوشكت كيميا أن تصيح نعم، فأنّى لها أن تعرف. كلّ ما تعرفه أنها تحسّ بالأسى، مشتملاً بالفرح. أليس هذا هو "العقل"؟ لكنها عهدَت بما تفكّر فيه إلى نفسها.

"لا تغضبي. ليس خطئي...".

"خطأُ مَن إذن؟"

لم تردّ كيميا. انتضَت حزمتها، وبدأتا السير في صمت على المدقّ، عائدتَين إلى القرية.

كان ذلك عام ١٢٣٩م.

- ٢ -

تقف آفدكيا على شرفة السطح، تجمع الملابس التي علّقتها لتجفّ بباكورة الصباح. هي امرأة ضخمة، في أول الثلاثينيات، وجهها مدبوغ مغضّن من العمل في الهواء الطلق. لديها ثلاثة أولاد، وترى ذلك من حُسن الطالع. تذكُر أولئك الكُثر، الذين لم يُكتب لهم البقاء: ضربت أحدهم، ولم يتعدّ عمره أسابيع، حُمّى غريبة كانت تكتسح القرية وقتئذ؛ أما إبراهيم، ابنها الصغير الغالي، وقد بدأ المشي، فلقيته ميتاً في فراشه ذات صباح. تأوّهَت. لا يفيد تذكُر ذلك كلّه. ليس لها أن تشكو. فأولادها الثلاثة في عافية وافية، ويكبرون: طاهر، يبلغ السادسة عشرة، أسيل، في الثانية عشرة، وأصغرهم كيميا، جاوزَت الحادية عشرة، وكما تعترف، تقلق عليها. فهي طفلة جميلة، لكنْ تختلف عن أخويها الآخرين! فطاهر وأسيل يقعان ويبكيان، يسكبان طعامهما، يتدحرجان على التراب ويوسّخان ملابسهما: باختصار، يتصرّفان كالأطفال. لكنّ كيميا ليست كالأطفال. فنادراً ما تبكي حين تُؤذي نفسها. وتغيب عن الوعي أحياناً، في لحظات غريبة، حيث تتسلّ منها الحياة. تقف ساكنة كمن يُنصت إلى صوت بعيد، لا تعي ظاهرياً ما يحيط بها، وتشتكي صاحباتها من عدم تملّكها روح المرح للّعب معها.

ليست المسألة أن آفدكيا لا تحبّ بناتها. بل لأن كيميا كانت جميلة جذّابة بعينين سوداوين واسعتين وبشرة بيضاء ومشية بديعة، ما جعل نساء القرية يعقّبن أنها، ذات يوم، ستكون مثالاً للجمال. لكنّ ذلك لم يكن مبعث يقين عند آفدكيا. فهي تذكُر ما حدث منذ أشهر، حين وجدت كيميا غارقة في الدموع، تربض في جوف شجرة قرب رقعة خضراوات.

"ماذا جرى؟ ولماذا تبكين؟"، فنظرت كيميا إليها، والأسى بعينيها، ما جعل آفدكيا تحسّ كأنها ستبكي.

"كنتُ في مكانٍ ما حيث غمرني الفرح..."، وعندما اقتربت بدت الصغيرة لحظةً كالممسوسة بشعاع من نور "ثم ذهب كلّ شيء فجأة". وبدأت كيميا تنشج بحرارة.

أخذتها آفدكيا بين ذراعيها، وهي تشعر باضطرابها بصورة غريبة، وظلّتا على هذه الحال فترة، تحيطهما رائحة اللحاء وتربة الأرض، ويبلّلهما أول مطر الخريف.

ومنذ ذلك الحين انكفأت كيميا أكثر على نفسها، تغيب في لحظات الذهول حتى أبت صاحباتها اللعب معها. مع ذلك، لم تهتمّ. كانت تجلس ناظرةً إليهن وهي شاردة. مع أسئلة ظلّت معلّقة من دون إجابات..!؟.

"لماذا أعيش؟ وأين كنتُ قبل أن أُولد؟"

فتهزّ آفدكيا رأسها. تتساءل، من أين لهذه الصغيرة كل هذه الأسئلة؟ كيف ستكبر كيميا؟ وأي مصير ينتظرها؟

لم تكن كيميا بالفطرة حزينة. بل مُفعَمة بالحياة، مستعدّة دوماً للضحك، للقفز على قدميها حين تُطلب منها معونة. لكنّ حتى وهي فرحة، تختلف عن أولاد الآخرين. حيث تصدح فجأة بأغنياتٍ ملؤها الفرح، فتنصت آفدكيا مجفلة، في فضول، لتوقن إن كانت سمعت هذه الأغنيات من قبل.

لهذه الصغيرة طريقة في إزعاجي. تتأوّه. وماذا تفعل؟ فكيميا هي كيميا، وكان ما كان. كيف صدَق أنها ابنتي؟ تسأل آفدكيا نفسها. لا تنتمي كيميا لهذا المكان. تبدو غرسةً من بلاد غريبة. وزوجها كذلك، مهموم بالأمر. فكيميا المفضّلة لديه، مع أن فاروق لا يعترف. لكنّ كلّ ليلة، بعد وجبة العشاء، تجاهد كيميا لتُبقي عينيها مفتوحتين، يمارس الطقس نفسه، فيمكن تبيّن مشاعره نحو ابنته الصغرى بأكثر من

الكلمات. يأخذها بين ذراعيه وتُحيط رقبته بذراعيها، وريثما يحملها إلى الفراش تدمدم: "بابا، بابا، أحبكَ". وحين يعود ليجلس، تعتليه ابتسامة عذبة.

تمازحه آفدكيا أحياناً: "ستسحركَ الصغيرة!".

"قد تكون ساحرة"، علّق فاروق ذات ليلة وهما راقدان بالفراش، يتناقشان حول كيميا.

جمُدَت آفدكيا: "لا تقل هذا! يكفي قلقي عليها". وخطر ببالها ذكرى المسافر الذي زارهم منذ ثماني سنوات.

كان الفصل شتاءً، والظلام يحلّ في كلّ مكان. وقتها كانت لاتزال حاملاً بالصغيرة. كانت القرية مدفونة بالثلج، والريح تعوي. ولم يكن باستطاعة أحد أن يغامر بالخروج، أو هكذا فكّرا. كانت العائلة مُجتمعة حول الموقد على وجبة العشاء، حين بدأت الكلاب تنبح. سمعا طقطقة الثلج تحت وقع قدمَي شخص. أخذ فاروق لمبة الجاز نحو الباب. فهبّت ريح صقيعية على الحجرة.

صرخ فاروق من خلال الريح: "من هناك؟"

بصوت خفيض ردّ: "السلام عليكم".

ردّ فاروق "وعليكم السلام. ليست هذه ليلة للخروج يا عزيزي. تفضّل.؟!".

دخل الرجل، والثلج يتناثر من معطفه وقدميه. فكّ ببطء أحزمة نعله الجلديّ، ثم بسط معطفاً كبيراً من الجوخ عند الباب. كان يلبس تحته سترة من جلد ماعز، يكسوها فرو سميك من الداخل. شعره أشهب كلحيته، ووجهه يمحوه التغضّن، لكنّ عينيه بدتا حادّتين متنبّهتين كأنه شاب.

أفسح الأولاد مكاناً للغريب الذي جلس قرب الموقد وبآهة ارتياح، متبوعة بتثاؤب كبير بان عن فم مملوء بالأسنان المنخورة والمسودّة.

قال: "اسمي محسود". لكنه لا يَذْكُرُ من أين جاء، ولا أين يمضي.

ناشدته آفدكيا: "تفضّل هل تشرب الشاي". تناوله، ثم ناولتْهُ قليلاً من الخبز والزيتون.

ظلّ يأكل صامتاً فترة، حتى سقط رأسه على صدره، وبدأ يشخّر.

في الصباح التالي، ساعد الغريب في وضع الخشب بتجويف الجدار الذي يعتبرونه مدفأة. بحركة بطيئة دقيقة، تقافز فوراً الجمر في الحطب المتبقي من الليلة الماضية في لهيب برتقاليّ برّاق.

فقال راضياً: "نحن هنا".

تناول بقايا الشاي والطعام المتروك جانب الموقد من الليلة الماضية. أكل صامتاً، ثم تفرّس في آفدكيا.

قال، يومئ إلى بطنها: "سيكون الوليد بنتاً. سمّها كيميا". ثم توقّف كمن يفكّر، وقال: "ينتظرها مستقبل كبير".

نظر فاروق وزوجه آفدكيا كلٌّ إلى الآخر. لم يعرفا ما يقولانه. يعلم الجميع أن المسافرين غير مؤهّلين للتنبؤ، لكنه كان مختلفاً. حطّم قاعدة غير منطوقة؛ كان متطفلاً نوعاً ما. أنهى الرجل طعامه وكأن شيئاً لم يكن. ثم مسح فمه بظهر يده ووقف.

قال: "عليّ بالذهاب. سأتّخذ طريقي إلى دمشق. شكراً على ضيافتكم". ثم ألقى بمعطفه فوق كتفيه، واستدار نحو آفدكيا، مضيفاً: "تذكّري، اسم الوليد كيميا".

ارتجفت آفدكيا في الوقت الذي كانت تحاول نسيان ما قاله الضيف قبل قليل. مرّ زمن طويل، لكن وجه الرجل العابر لا يزال يتلبّسها أحياناً من دون فكاك. بينما كان فاروق راقداً بجانبها يقظاً، سألَته: "ماذا نفعل؟"

أدار فاروق رأسه نحوها: "وما رأي الإمام؟ ربما لديه فكرة. يُفترض بأنه حكيم، ويكلّم الله".

لم تكن آفدكيا على يقين من أن الإمام يكلّم الله، لكنه رجل طيب. فلمَ لا نسأله؟

ذهب فاروق ليرى الإمام فقال: إنه سيصلّي لها، وأضاف: "ثقوا في الله العليم". ولم يقدّم نصيحة.

كيميا الآن في عامها الثامن. عاد الشتاء واختفت المدفّات تحت طبقات ثلج كثيفة. حين يفتح فاروق الباب، كلّ صباح، يجرف الثلج جانباً ليفسح مجالاً للخروج. بعد أيام لم يعد مدخل البيت غير مجاز، ضيّق مضغوط بين جدارَين من جليد. تحمرّ خدود الأولاد وهم يتزلّجون على السفوح، ضاحكين من أنفاسهم حين تستحيل إلى سحب بيضاء وهم يتكلّمون. تضحك كيميا، أيضاً، وهي تتزلّج، لكنها تسكُن لحظات طويلة ثم تتطلّع في الجبال، كانت زرقاء أرجوانية على البُعد، أو قرنفلية قرمزية عند الغروب. وهكذا تبدأ.

حين رجعت أسيل من نزهتها مع كيميا، كانت منزعجة وغاضبة. تقول: "كنتُ أتبعها على الوادي الشماليّ حيث الكروم. ركضت أمامي، ثم لم أرها مطلقاً. فنظرتُ حولي، ناديتُ عليها، لكنها لم تكن في أيّ مكان".

"تقصدين، خلّفتها وراءك!".

ومع دموع أسيل التي تنهمر تقول: "لم أترك فرصة لإيجادها"..!؟

سأل فاروق: "أين بالضبط؟"

"قُرب الصخرتَين الكبيرتَين، تعرفهما، جانب كروم العنب والرمان. نظرتُ حولها وما بين الشجر والصخور. وناديتُ. ناديتُ". تبكي وتتابع: "لكنها لم تظهر أو تسمع أو تردّ".

فتأخذها آفدكيا بين ذراعيها: "لا تقلقي"، وتُلاطف شعرها: "ليس هذا خطأك؛ ستعود. تعرفين أختك، لها طرق خاصة".

وعادت كيميا، فعلاً، بعد ساعات، كأن شيئاً لم يكن.

قالت أسيل ساخطة: "ألم تسمعيني حين ناديتُ باسمك؟"

فتنظر إليها كيميا؛ غير بادٍ عليها الفهم: "جلستُ لحظةَ على صخرة، ثم لا أعرف؛ لا أذكُر".

تقول آفدكيا: "اتركيها في حالها. المهمّ أنها عادت".

ثم تختفي كيميا من جديد. وهذه المرة مع مجموعة أولاد في سنّها، خارج القرية، وكانت تراقب قطيعاً شارداً من غنم وماعز. لم يعرها الأولاد انتباهاً حين ركضت على السفح وراء معزة تخلّفت. فهذا ما يفعله كلٌّ منهم بدوره. كانت الشمس وسط السماء حين لاحظوا غياب كيميا. فنادوا باسمها: "كيميا! كيميا!". كأن الأمر لعبة في البداية، لكنّ الصدى كان الجواب. وهم يسيرون عائدين إلى القرية من دون كيميا، أمامهم حيواناتهم، قلقوا. فماذا سيقول والدا كيميا؟

بعد انقضاء ساعات وهبوط الظلام، عادت كيميا أخيراً. فغضب فاروق هذه المرة.

"كيميا، لن يستمرّ الحال هكذا. كلّنا قلقنا عليك، وأنت تتظاهرين بأن كلّ شيء كما هو، مع أنه مختلف"، كان متجهّماً، وصوته مرتجف: "من الآن فصاعداً، يُمنع عليك الذهاب لأيّ مكان من دون أمك؛ ستظلّ عينها عليك. لا نزهة لوحدك أو مع أولاد آخرين! أتفهمين؟"

حدّقت كيميا في والدها، صامتة. من دون أن يبدو عليها فهم ما قاله والدها.

قالت آفدكيا: "يكفي اليوم"، ودارت نحو كيميا، تضيف: "غداً ستساعدينني أنت وأسيل في طبخ الخُضار".

- ٣ -

كانت آفدكيا تمسح العرق عن جبينها. بعد مضيّ عدة شهور من ثوران زوجها، وكانت الآن في بداية الصيف، ومع أن الظهيرة قد علت، إلا أن الشمس لا تزال ساطعة. من شرفة السطح حيث تقف، ترى قمم الجبال على البُعد، بينما تحت عند قدميها، فوق بساط بالٍ منبسط، جفّ القمح السليق في الصباح الباكر وأصبح كالذهب. كانت تفكّر في كيميا. ويبدو أن الصغيرة قد استقرّت أخيراً في نظام القرية اليوميّ. وانتابتها راحة.

دارت نحو جمع صغير من النسوة والأولاد والشباب المحتشدين على السطح يرقبون آخر مرحلة من طقوس القمح التي تغمر القرية كلّ صيف. مسلّحة بسلّة، تصبّ ابنة عمها القمح من أعلى قدر ممكن كي تُخلّه الرياح. "لا يزال هناك عدة ساعات من العمل"، فكّرت آفدكيا، "حتى أستطيع الجلوس في النهاية والتمتّع بالأمسية". انضمت الأخريات، فبدأت تَشغَل نفسها بتعبئة القمح في أكياس القنّب القديمة، حيث يحملها الشباب فوراً إلى صومعة التخزين.

والآن انتهى العمل. أحالت الشمس البيوت إلى جمر، وشرائط سحب برتقالية وحمراء تمتدّ عبر القرية وهي تغرق بطيئاً في سكينة ليلها. أبانت آفدكيا أن القرية سترتاح لدى معرفتها أنها لن تجوع الشتاء المقبل. خلا حولها السطح لجلوس العائلة معاً، مع بضع حبّات من القمح تخلّفت كذكرَى عن العمل المنتهي. طال اليوم. وكان جسمها يشتاق للراحة. فراحت إلى السلّم الخشبيّ ثم عادت بصينية الشاي التي جهّزتها أسيل. تبعها فاروق والأولاد، فجلست آفدكيا تبتسم لمنظر عائلتها. أسيل تصبّ الشاي، وفاروق ينفث في غليونه، بينما كيميا تلتمس الدفء منه. كان مشهداً مألوفاً.

وقد انضمّ إليهم في الأمسية، جارهم حسين، وهو مسلم وَرِع. لا يتعب هو وفاروق من مضايقة أحدهم الآخر، فحسين يعنّف فاروق على ذهابه الشحيح إلى المسجد، ويردّ فاروق فوراً إن الله أكبر بكثير من جدران المسجد الأربعة. فيردّ حسين أنه، مع صحة هذا، فالله يحبّ مكانه الخاص حيث يرى عباده محتشدين معاً.

ويضحك فاروق: "ربكَ فاتر الهمّة. أما ربي فينظر في كلّ مكان".

لا تشارك آفدكيا في هذه المعارك. فالرجال أطفال! مثل ابنها طاهر، الذي يبدو وسيماً في قميصه الأخضر الجديد الذي خاطته. نظرت إليه آفدكيا باعتزاز. ذات يوم قريب، سيتزوّج ويهبني بضعة أحفاد.

"بابا، قل لنا ثانية: كيف صادفت ماما"؟ وتبتسم كيميا إلى أبيها: "هل كنتَ ترى ماما جميلة؟"

"أنت شيطان صغير، تعرفين أني لا أتعب من حكاية القصة. نعم، كانت جميلة، كزهرة ربيع". وكشّر فاروق وهو يتطلّع في وجه زوجه المتعب.

لفلفت كيميا نفسها لترتاح أكثر على أبيها: "قل لي، بابا، قل لي".

"طيب، كنتُ صغيراً مثلك حين وصلتُ هذه المنطقة من العالم، مع ثلّة عوائل وقطعانهم. لم نكن نعيش في بيوت حجرية، بل في خيام من الجوخ. نرعى ماعزنا وأغنامنا عبر الجبال بحثاً عن كلأ جديد، ولا نستقرّ طويلاً بأيّ مكان. كنا نضرب خيامنا غالباً على السفوح قرب قرية، حيث نقايض حليبنا وصوفنا وجبننا بالخضار والفاكهة". وتوقّف فاروق، يفكّر في أهله، ثم قال: "جاء أسلافي من مكان بعيد، في الشرق. هكذا أخبرني والدي يوماً. من زمان طويل، قبل أن أُولد. ولم أعرف بنفسي أيّ محلّ غير أرض الروم، التي يحكمها، كما قال أبي، سلطان بلاطه في مدينة قونية، على مسافة خمسة أيام سيراً من هذه القرية. ثم جاء عمي وابناه (وكانا أكبر مني) إلى مدينتَي قونية وليرنده، حيث يبيعان صوفنا وبُسُطنا. ثم يشتريان بنقود البيع مُدًى وأواني طبخ، أو أوشحة

بديعة لنسوتنا أحياناً. وكان ابنا عمي يعودان دائماً مُحمّلَين بالحكايات التي أراها عصيّة التصديق. فيتكلّمان عن مبانٍ من حجر محفور، وعن أناس يتكلّمون لغات غريبة، ويلبسون ملابس أغرب. لم أكن أحسّ برغبة كبيرة في رؤية المدن. فأنا أُفضّل حياتي بالجبال؛ يومٌ هنا، يومٌ هناك، ولا أمكث بالمكان نفسه طويلاً، حيث السماء وحدها فوق رؤوسنا تحمينا".

توقّف فاروق، شارد الذهن. أسعده أن يحسّ بالرضا في سُكناه في هذه القرية! بمعنًى، حين بدأت فيها حياته كرجل.

انتظرت كيميا. تعرف أنه لا ينبغي عليها أن تقاطع فترات الصمت الفجائية التي تهبط على أبيها وهو يتكلّم عن الماضي.

بعدها واصل: "ذات يوم، كان أهلي قد أعدّوا خيمتهم قرب هذه القرية. وأنا شاب في الثامنة عشرة. مازلت أراقب قطيع العائلة وأساعد في الجزّ، ثم انخرطتُ في بيع الصوف والبُسط، وذهبتُ إلى قونية وليرنده. وهناك رأيتُ بأم عينيّ صدق كلام عمي وابنَي عمي. فهناك مبانٍ كثيرة حَفْرُها بديع. المساجد مزيّنة بقرميد فيروزيّ، والناس من مختلف الأصقاع. لكني أحسستُ بالأمر غامراً، ثقيل الوطأة. هذه الحياة لا تناسبني، يملؤها الضجيج والهياج! صحيح أن المرء يسمع هناك حكايات شيقة، وخاصّة في قونية. يتكلّم الناس عن أحلاف مؤقّتة بين السلطان وأمراء بيزنطة. ذات مرة أخبرني تاجر أن السلطان قد تحالف، في حدود وقت مولدي، مع إمبراطور غربيّ عظيم، يُدعى ذا اللحية الحمراء. بموجب هذا الاتفاق سَمَحَ السلطان للإمبراطور المسيحيّ بعبور هذه الجبال في طريقه إلى سوريا وفلسطين. ولم يكن أمراً هيناً، لأن الإمبراطور المسيحيّ كان يقود جيشاً جراراً من مئة وخمسين ألفاً من الرجال الأشدّاء – هكذا بلّغني التاجر. في بوادر الصيف غادر الإمبراطور ورجاله قونية. كان الجوّ حاراً ولم يكونوا معتادين على مثل هذه الحرارة".

رأى فاروق للوهلة الأولى هؤلاء الجُنود الأجانب وهم يجتازون مُجهَدين مدقّات الجبل في حرّ الصيف. قال: "حينها مات كثيرون على الطريق، ولدى وصولهم إلى جانب الجبل الآخر، آه، كانت نهايتهم". توقّف فاروق، مأخوذاً بالمنظر. قال: "كان أمراً فظيعاً. يحكي الناس أن الإمبراطور ذا اللحية الحمراء أحسّ بالحرّ، فمال بحصانه نحو نهر وهناك غرق. وما بقي من جيشه تشتّت، ولم يُسمع عنه بعدها أيّ خبر".

قاطعته كيميا: "وغرق الحصان أيضاً؟"

فضحك فاروق: "ذلك ما لا أعرفه. فقد جرى منذ زمن بعيد، قبل أن تطأ عائلتي هذه الأرض. ما أعرفه هو أنه حين عدتُ للقرية، كان أغلب الناس هنا مسيحيين، وأمكِ منهم. ومن جانبنا، كنا نتّبع الإسلام، مع قلّة تسكن هذه القرى، وكانت المساجد تُعمّر أحياناً على بُعد خطوات من الكنيسة. كما وجدنا قرى، كهذه، عاجزة عن بناء مسجد لفقرها الشديد، فكنا نستخدم جناحاً من الكنيسة لصلواتنا. تذكرين، يا آفدكيا؟"

فأومأت آفدكيا وقالت: "تتغيّر الأحوال بسرعة. لم تكن الأمور بهذا اليُسر دائماً".

فغصّ فاروق من بعض الذكريات: "لا. فقد أخذت بناصية بعض القرى مجازر فظيعة، حتى طالت أهلي بعض الأحيان. وكان المسيحيون القادمون من الغرب ينهبون ويقتلون؛ في طريقهم، كما قيل، لاسترداد "الأرض المقدّسة". وجاء زمان، قَاتَلَ فيه مسيحيو الغرب مسيحيي بيزنطة، إلى أن سقطت القسطنطينية بين أيديهم. فقاموا بذبح السكان، وطمروا المدينة، عاثوا فيها فساداً". حدّق فاروق في الليل كأن لهيب الحرائق لا يزال أمام عينيه: "كنتُ صغيراً. أذكر الخوف والخزي بصوت أبي وهو يقول (مسيحيون يقتلون مسيحيين!). لكن هنا"، واصل فاروق "كان طالعُنا حسناً. فالاضطرابات كانت حولنا، ولم يمسسنا منها شيء".

"لكنّ، بابا، قل لي. أين كانت ماما وقتها؟"

"سآتي للقصة. فانتظري"، بلع فاروق ريقه ثم واصل: "كنتُ أذهب للقرية غالباً فأدخل الكنيسة. أعرف هناك عيسى، نبيّ المسيحيين العظيم، وأمه مريم الموقَّرة. وأحبُ الجلوس قرب المذبَح على اليمين، لأرى العذراء وابنها".

نظرت كيميا إلى أبيها. فهي تزور الكنيسة أحياناً، وتحبُ الجلوس أمام العذراء.

"لكنّ"، واصل فاروق "هناك رأيتُ ما لم أكن أحبه بالكنيسة. ذلك المُسمَّر إلى صليب على المذبَح الكبير. كانت العذراء وابنها يرحِّبان بي. لكنّ لماذا هذا الجسد المعذَّب، في مكان ما بهذه السكينة، أمام الجميع؟ لا أفهم إلى الآن. كنا نعرف ما يحدث في كُبرى المدن وسط آسيا على أيدي المغول، ومنظر هذا النازف فوق صليبه كان يُذكِّرني بهذه الأهوال. جاء أهلي، كالمغول، من السهوب والصحارى، حيث تنهض مدن كهذه، مثل هيرات[1] وبلخ وسمرقند[2]. لكن لم يدمّروها، بل تعلّموا منها وشاركوا أهلها حرفَهم ومعارفهم".

مال فاروق للصمت. يفكّر في أهله، فخوراً بهم. لقد جلبوا معهم إيمانهم الجديد بإله الرحمة والمغفرة. أماكن صلواتهم باتساع الأرض التي جال فيها أسلافهم. للمساجد التي دخلها في قونية وليرنده تقشّف الصحراء المكين، أما زخرفها الوحيد فأشكال هندسية تتكرّر دونما نهاية على الجدران، شبيهة، كما أظنّ، بأنفاس الناس وهي تُكرّر اسم الله. مع ذلك، يعترف، حين ذهبتُ إلى مسجد القرية الجديد، رحتُ أفتقد العذراء وابنها.

نفد صبر كيميا. فسألته: "وماما. كيف صادفتها؟"

---

(١) هيرات: شمال غرب أفغانستان. (م)

(٢) سمرقند: شرقيّ أوزبكستان. (م)

"انتظري لحظة. سآتي على ذكرها"، وأخذ فاروق رشفة شاي من كأسه التي كانت قد بردت، "ذات صباح، حين ظهرت الشمس بحرف الجبل، دخلتُ الكنيسة، وهناك، أمام العذراء، رأيتُ فتاة على ركبتيها. مستغرقة في صلواتها، لم تلحظني وأنا أدخل. ثم خرجتُ من الكنيسة على أطراف أصابعي. وجلستُ خارجها على صخرة، من دون أن أعرف لماذا، انتظرتها. كان الفصل ربيعاً، والهواء لا يزال بارداً، لكنه يشي بوعد الدفء. حين انبعثت الفتاة من الكنيسة، نظرَتْ إليّ؛ وكان لدي وقت كاف لألمح خضرة عينيها قبل أن تبتعد. تبعتُها على مسافة، لا أكاد أعي ما أفعل، حتى اختفت في أحد البيوت الحجرية. وفي اليوم التالي، وجدتُ نفسي أمرّ أمام منزلها مع قطيعي، وريثما أتساءل إن كنتُ سأراها ثانية، طلعت على عتبة الباب، وفي عينيها لمحتُ ابتسامة".

ونظر فاروق إلى زوجه.

قال: "كنتِ تلبسين جونلة زرقاء داكنة وصدريّة مشغولة".

فأومأت آفدكيا: "نعم، أذكر". مرّ زمن طويل!

واصل فاروق: "وددتُ لو أردّ عليها ابتسامتها، لكني وقفتُ أحدّقُ حتى تلاشت ابتسامة عينيها. كان جلدها أبيض، مثلك". وربّتَ على خدّ كيميا، ثم أردف، وهو ينظر إلى زوجه: "أذكُر لمعة الشمس فوق خصلة شعر ذهبيّ أحمر، تتسلّ من تحت شالها. ففكّرتُ، كم هي جميلة. ثم سمعتُ صوت امرأة ينادي: "آفدكيا، آفدكيا، أين أنتِ؟"، فاستدرتِ تختفين عبر الباب. في تلك الليلة، وأنا راقد تحت النجوم، جافاني النوم، ظللتُ أُردّد اسمك مرات عديدة.

"من يومها ظلّت قطعاني تُقرّبني من المنازل. ورأيتُها ذات يوم مع جمع من البنات يقطفن خضروات من بقعة أرض بسفح القرية الجنوبي". وبعدها بأيام رأيتُها ثانية مع صاحباتها، يجمعن هذه المرة البرقوق الأخضر النامي حول القرية. ظللن كلّهن يضحكن مني، ولم أجرؤ على

الاقتراب من هذه المنازل فترة من الزمن. وعند نبع خارج القرية، صادفتها من جديد. كالعادة، مع البنات الأخريات. كانت تحمل جرّة شرقية ثقيلة، وقبل أن أفكّر، تناولتُ الجرّة بين يديّ وشرعتُ أملؤها. ثم رددتُها إليها، فتلامست أيدينا. أحسستُ بوجهي يحترق، فجمّعتُ قطعاني وابتعدتُ.

"هلّ صباحٌ صيفيٌّ! مازلت أحسّ به وكأنه الأمس. كانت النسوة، في آخر القرية، مثل كلّ فصل صيف، يغسلن شحنات كبيرة من القمح عند الفسقية. يندفع الماء لأسفل، مُحمراً مع الأرض؛ فتنتقي النسوة الحصى الصغيرة من بين الحَبّ. تدوّي أصواتهن في هواء الصبح. حيث أقف، كن كبُقع الألوان. وددتُ لو كانت بينهن. نسيتُ أمر أغنامي وماعزي لدقائق، وقلبي ينداح مشتاقاً لرؤية ذات العينين الخضراوين.

"(هكذا تراقب حيواناتكَ؟)، وصوت مفعم بالضحك. فدرتُ مُجفلاً، لأرى أمامي من تسكُن أفكاري.

"(ماعزكَ شردت؛ فهلاّ أعينكَ؟)

"فلم يسعفني الفكر، وربما بدوتُ سخيفاً.

"(جئتُ أطلب منكَ أن تعطينا بعض الحليب، مقابل لفت وفاصولياء، وبرقوق).

"كان صوتها واضحاً حازماً. على راحته، خلو الهموم. أما أنا، فتحفّ بي الهموم، مثل كومة صلصال قبل أن تستحيل جرّة رائعة. ولحسن الحظّ، أضحكتني الفكرة، وارتحتُ. حمداً لله.

"قلتُ (انتظري)، وركضتُ وراء ماعزي التي انتشرت بكلّ مكان فجمّعتها. ودُهشتُ لدى سماع نفسي أقول (احكي لي عن عيسى وأمه بالكنيسة).

"فغاضت ابتسامة عينيها. وفجأة نظرت بجدّية ومهابة. (مريم العذراء؟ ترعانا جميعاً؛ هي الرحمة، وابنها - نسميه يسوع - هو الحبّ).

"كانت تقف أمامي، رائقة كمياه نبع، كما فكّرتُ. ومن حولنا ورق الشجر، يهفهف منتشياً فرحاً.

"قلتُ (سأتزوّجك). منفلتاً من يقيني. ماجت الكلمات من دون أن أعيها. عاد شيء كظلّ ابتسامة للظهور في عينيها.

"قالت (عليكَ أن تطلبني من أبي أولاً. فتعال الليلة).

"وقبل أن أدور مبتعداً، أضافت (لا تنسَ الحليب).

"وقفتُ ذاهلاً أرقبها، وهي تبتعد ناحية القرية. أسمع الصخر يتدحرج تحت قدميها، وأصوات النسوة من جديد حول الفسقية. ماذا جرى؟ شيء مهمّ، شيء مصيريّ، مثلما تقرّر الذهاب من درب، مستبعداً آخر، عند مفرق طرق. لكني، أنا بنفسي، لم أُقرّر شيئاً! جرى ما جرى كلّه من دون وعي مني، مع ذلك لم أحسّ بالحرية من ذي قبل، وكلّ ما كان عليّ هو أن أحمد الله".

مرة أخرى لاذ فاروق بالصمت. لا تزال لحظتها رائقة في خياله. فتذكّر، من وقتها، أغنية قديمة سمع جدّه يغنّيها، هلّت على شفتيه، بوسع السماء، بوسع نطاق جبليّ حوله. قال: "العالم ملكي، وأنا أسعد رجل في الدنيا".

ناشده صوت ابنته كيميا: "بابا، بابا. وماذا قال جدّي حين رحتَ تطلبها؟"

أطلق فاروق آهةً "لم يكن الأمر بسيطاً. كان أول المساء، وكلّ ما حولنا يغمره نور ذهبيّ".

"خفتَ، يا بابا؟"

"نعم. خفتُ. لكني كنتُ مصمّماً. كان والد آفدكيا يجلس خارج المنزل قرب الباب على مقعد حجريّ. رآني أدنو، وتبيّنتُ أنه يزِنُني من رأسي لأخمص قدمي.

"سأتزوّج ابنتكَ، قلتُ لنفسي وأنا أمضي نحو العجوز. سأتزوجها . وما إن صرتُ أمامه، لم أنطق بكلمة. كان يجلس منتصباً وعيناه تتصفّحانني. فأحسستُ أني ولد ضاع ثم وجدوه فجأة. كانت سيماء جدّك صارمة. أنّى له بكلّ هذه القوة والعزم؟ شعرتُ بساقيّ تخوران وقلبي تُفعمه الخشية. لماذا يمنحني هذا الرجل ابنته؟ لديه بيت؛ وعندي خيمة من شَعر ماعز. لديه أرض؛ وعندي سفح الجبل أهيم فيه من دون أن أدّعي ملكية جزء منه. والأسوأ من ذلك كلّه، أن هؤلاء مسيحيون؛ نبيّهم عيسى ويعبدون أمه مريم. أما أهلي فاهتدوا لحقيقة الإسلام مؤخّراً، وهو يعني أننا نُسلّم بالله، الواحد الأحد، ونبيّه محمّد. فكيف نوفّق ما بين خلافاتنا؟ غمرتني موجة من يأس. فلن تكون آفدكيا لي. سيسخر مني أبوها، ذو الزيّ الرمادي، لو تجرّأتُ أن أخبره برغبتي المجنونة.

"(إذن، أيها الشاب، ماذا أتى بكَ إلى هنا؟)

"توصّلتُ أخيراً للقول: (ابنتكَ. طلبت مني ابنتكَ أن آتي بحليب إليكم). وأظهرتُ له إبريق الحليب الطازج الذي أحمله.

"لاحظتُ عندئذ الخطوط التي تخدّد زاويتي عينيه. يبدو أنها تتضاعف، حول فمه خطّان ظاهران. وكان وجهه أمامي يبتسم.

"سألني والد آفدكيا (هذا كلّ شيء؟)، ورأيتُ في عينيه ومضة. (قالت لي ابنتي: إنكَ تريد أن تطلب مني شيئاً؛ فاطلبه).

"لم أُصدّق ما سمعته. فهل سيحدث حقاً؟ انفجرت الكلمات التي ردّدتها لنفسي وأنا منطلق نحو منزل آفدكيا من فمي: (سأتزوّج ابنتكَ)، قلتُها وسكتُّ. لم يكن طلباً! كيف لفظتُ بمثل هذا؟ لقد فقدتُ كلّ فرصتي في القبول. لكنّ لدهشتي، ضحك الجدّ من كلّ قلبه.

"(يا بنيّ، تحتاج إلى تهذيب مسلككَ. أعني أنكَ مباشر. وأنّى لكَ بمعرفة أن ابنتي ستقبلكَ زوجاً؟)

"ردّني سؤاله. فهل غيّرتَ رأيها؟ ألم تذكُر لي أن أُبلّغ أباها؟ ربما لم يكن عليّ أن آتي. كنتُ على وشك أن أستدير فأهرب حين مدّ العجوز يده.

"(أنتَ جواد بريّ، يا عزيزي. فاهدأ واجلس هنا جانبي).

"ففعلتُ ما قال. وكان عقلي مهتاجاً.

"قال العجوز: (تريد أن تتزوّج ابنتي؟ تعرف، ستكون آفدكيا زوجاً صالحة. فلها شخصيتها، لكني أراكَ تعرف ما تريد، وأنكَ مستعدّ لتحمّل المخاطر).

"لوهلة ظللنا صامتَين. كانت آخر أشعة الشمس قد لوّنت وجه الجدّ، فبدا كالمصوغ من ذهب.

"قال يقطع الصمت: (هناك شرط واحد)، فأحسستُ بقلبي يغرق. هل كان على وشك أن يطلب مني الرحيل والإتيان بكنز خفيّ من قاع البحر، أم قلب حيوان مخيف يرقب افتراس أيّ امرئ يجرؤ أن يقترب؟ لكني سمعتُ ما لم أكُ مستعداً له.

"قال والد آفدكيا: (أريد منكَ أن تقرّ هنا، في هذه القرية. نحتاج إلى دم جديد، كما) – وابتسم – (أريد رؤية أحفادي يكبرون).

"فاستنتجتُ (إذن هذا ما جاء بكَ لتُولد هنا في بلدكَ الأم)". نظر إلى كيميا، وكانت تلتجئ إليه، فرآها وقد غطت في النوم، بينما تهزّ آفدكيا رأسها.

"نسيتَ ذكرَ أن أبي جعلكَ تبني بيتاً قبل السماح بزفافنا، واستغرق منكَ ستة أشهر، ستة أشهر"، وظلت تردّدها بنبرة توبيخ في صوتها "قبل أن نتزوّج أخيراً".

ضحك فاروق، فبدا بضحكته الواسعة المطوّقة أكبر من الحياة. قال، وسط ضحكته: "ألن تنسيني قطّ؟"

فهزّت آفدكيا رأسها، جاهدة ألاّ تبتسم.

- ٤ -

بدأ اليوم كأيّ يوم آخر. مضى أحمد للعمل بديوان صغير يقضي فيه ساعات يكتب صحفاً قانونية للقاضي، كانت في الأساس عبارة عن حيازات أراضٍ وحقوق استغلال ممتلكات، ومع أن الظهيرة لم تعلُ بعد إلا أنه أنهى أعباء عمله. دارت أفكاره نحو جلال الذي يدعوه الناس مولانا. كان مولانا ابن معلّم آخر تُوفّي، بهاء الدين ولد، ومثل أبيه، يعلّم بالمعهد الأول في قونية، حيث يلقي مواعظه كلّ ظهر تقريباً لمن يهمّه الحضور. يقول بعض أصحاب أحمد: إنه ليس غطريساً[1] ولا مملاً، كأغلب المعلّمين، بل دافئ عطوف. ويشكو آخرون من تقبّله المسيحيين واليهود، وحتى النساء بين مريديه. هو خطأ قطعيّ، أليس كذلك؟ لكنه لا يبالي بهذه النمائم، مع ذلك، كان يستميح عذراً دائماً، حتى اليوم على الأقلّ، ألاّ يذهب لسماع مولانا.

إنني أصلّي وأذهب للمسجد يوم الجمعة وأُزكّي، فما حاجتي إلى واعظ وسماعه؟ هناك الكثير منهم على أيّ حال. لا يحاول الكهنة المسيحيون فحسب صدّ نهضة الإسلام، ولا الفرنجة في طريقهم إلى فلسطين، بل أيضاً الشحّاذون المتنكّرون القادمون من الشرق كاسبو قوتهم بابتلاع السيوف، أو نفث النار، أو ادّعاء قراءة الطالع. لم يفكّر أحمد قطّ في أن ابن بهاء الدين ولد واحدٌ منهم، مع أن بهاء الدين قَدِمَ من الشرق أيضاً. كان الجميع يعلم أن بهاء الدين معلّم دينيّ عظيم، حتى دعاه السلطان علاء الدين قيقباد للمجيء والاستقرار في قونية مع عائلته. يقول أغلبهم: إن جلال بن بهاء الدين، أعظم من أبيه. لم يكن

---

1 – الظالم المتكبّر.

الشكّ هو ما صرف أحمد، بل حسٌ غامض من أن مولانا قد يصل إلى مكان فيه لا يريد أحمد أن يطّلع عليه.

في ذلك اليوم، عموماً، ألحّت عليه فكرة أن جلال الدين يَعِظُ بمعهده. وماذا أخشى؟ فنحّى أحمد عنه الحبر والأوراق، ثم راح للمعهد. وهو يقترب، غذّ خطوته سريعاً كمن يخشى فوات موعد مهمّ. ولِمَ العجلة؟ فأنا ذاهب لسماع مجرّد كلام من معلّم دينيّ.

كانت أبواب المعهد مُشرَعة حين وصل والقاعة تغصّ بالناس. اندفع أحمد لا يلوي إلى الصفّ الأماميّ بين سُباب نصف مسموع، لكنّ ما سمعه من كلام أشعل نار قلبه.

"هو الخالق البارئ؛ إليه الأمر كلّه".

واقفاً فوق منبر صغير إزاء الحشد، رجل يلبس عباءة زرقاء، ينطق بكلام يستدرّ الدمع لمآقيه.

"حبّ الخالق مستور في الدنيا وبين الناس جميعاً، سواء أكانوا مجوساً أم يهوداً أم نصارى".

فمسح أحمد العرق عن جبينه.

"من يخش الله، وإن كان كافراً، فهو مؤمن، غير مارق".

دار رأسه. الأفكار التي لم يُضمرها تهاجمه، كألسنة لهب تتقافز من النار. ماذا أفعل في قونية؟ ماذا أفعل بملء هذه الأوراق الفارغة يوماً بعد آخر؟ كان الخوف الكامن ضارياً، يمتزج غريباً مع الفرحة. أنا الآن بالثانية والعشرين من العمر، وماذا أنجزتُ؟ لا شيء! ما سمعه من كلام كان ذا معنىً، والباقي تسلية. لن أواصل في تزجية بقية عمري. ودفعته الفكرة للخروج من القاعة.

سار نحو المنزل الذي يشاركه فيه أخوه عثمان، في ضواحي المدينة. منذ عامين، مات أبوهما، فكان المنزل يخلو معظم النهار. لمحه في

سكينة الظهيرة، كالنائم، حين وصل. أما شجرة المشمش العجوز، ففي ينوعها الكامل، تتمايل في رقة مع النسيم.

جمع بسرعة بعضاً من قمصانه وقفطاناً، دفعها في حقيبة ملقياً بها على كتفه بمعطفه الشتويّ. ثم جلس ليكتب شيئاً على رقعة من الرقوق:

"عثمان، أخي العزيز،

لا تحزن لقراري. مولانا، كرّمه الله، أنقذني من نفسي. سأغادر قونية، لأعيش في عزلة. سأتوجّه للجبال، لربما ألقى السكينة والمراد، بإذن الله.

أخوكَ الحبيب، أحمد".

ترك الرسالة واثقاً، ومن دون أن ينظر خلفه، شقّ طريقه نحو قلب المدينة، كان الوقت آخر النهار، حيث تصل الحياة في السوق إلى تصعيد مفاجئ، تعويضاً عن هجعة الليل المُشرفة. فمرّ مسرعاً بمحال السجّاد وأكوام البُسط، معظمها جاء من دمشق أو صقلية. لمح بساط صلاة لبنياً في أزرق فاتح، من حرير تُشتَهر به قونية. غمرته رائحة الخشب المحروق وسباخ الخيل، مخلوطة بالزعفران والفلفل وحبّ الهيل. فاستعاد ذكرى اليوم الذي ذهب فيه لرؤية أخيه وكان يعمل قريباً في مخزن وراء خان لتجارة الملابس. كان عثمان يفرز مختلف البضائع التي تجلبها القوافل القادمة من هيرات، سمرقند، بُخارى، وغيرها من مدن الشرق الكبرى. رأى عثمان يُكدّس رُزماً كبيرة من الحرير ملفوفة بقماش قطنيّ جانب أكوام من السجّاد لا تزال مغبّرة من رحلتها. ثم رأى صناديق الخزف الصينيّ الرائع التي تنتظر أن تُحمّل للعربات المشدودة إلى الخيل، يذهب بعضها للقصر، وبعضها للقسطنطينية، وأخرى تشقّ طريقها للأناضول جنوباً حيث تنتظر، كما قال عثمان، أن تحملها سفن فينيسية إلى هناك.

لكنّ أحمد لا يملك وقتاً اليوم لهذا، ولا رغبة في رؤية أخيه. واصل السير، دخل على التوّ مركز الصائغين وتوقّف ثانية، يفتنه منظر الأقداح والصواني والأباريق التي لمحها في نور الشمس وهو يَرشُحُ من النوافذ المُصبّغة. نظر أحمد إلى أغماد معروضة ثرية الحفر، لا شكّ في أنها تُخفي أفخر المُدى. فكّر، سأحتاج إلى واحدة من هؤلاء. لكني لستُ بحاجة إلى هذه الرفاهية. وقد سبقه التاجر إلى عتبة الباب.

"وصلتني تواً من حلب، لكَ شوق أن تراها؟ انظر إلى هذه؛ بديعة؟"، ولمعت المدية المجلوّة كالمرآة وهي تخرج من غمدها الفضيّ المحفور. "سيبقى هذا الخنجر معكَ للأبد".

لحظياً، غوي أحمد. قال أخيراً: "لا. أحتاج شيئاً أبسط؛ تنفعني مجرّد مدية جيدة".

فتأوّه التاجر وشدّ مدية ضخمة من غمد جلديّ بسيط. قال: "ستبقى رفيقكَ إلى زمن طويل"، فأومأ أحمد.

"نعم، هذه ما أريد. بكم؟" سأَلَ.

"خمسة وسبعون درهماً، سعر معقول جداً".

فسلّمه أحمد النقود من دون مساومة، مع خيبة أمل الرجل الذي دمدم بأن ناس هذه الأيام لم يعد لديهم أخلاق.

من دون أن يولي انتباهاً لدمدمة التاجر، خرج أحمد متّجهاً نحو سوق الطعام الذي يمتدّ عَبْر عدّة حارات على يساره. اندفع إلى طرف الطريق، أكياس الخيش المعتادة من كلّ أنواع الحبوب والدقيق والجوز، جانب أهرامات صغيرة من الزيتون الأسود، ومربّعات الجبن البيضاء. وهناك أكياس صغيرة من المشمش والخوخ المجفّف، نصف مخفيّة بالعتمة، تصطفّ جانب جرار الزيت الضخمة في ظهور المحال.

اتّخذ أحمد قراره. فكلّ ما يحتاج إليه ربطة خبز، بعض الجوز والفواكه المجفّفة، بضع حفنات من الزيتون وقطعة جبن. سيقيني الجوع

فترة؛ ثم إني سأنال مؤونتي من القرى. ولدى وصولي إلى الجبال سأعيش على ما أصطاده، أقلّها في البداية. خنقته فورة غريبة. هذا المستهلّ. البدء، أخيراً. قال صوت مستهزئ داخله: "ستبدأ ماذا؟"، فضحك. سأبدأ الحياة؛ كنتُ نصف غاف، والآن أنا حيّ.

"حسنٌ أن أراكَ بهذا المزاج السعيد، يا أحمد".

أمامه، صاحبه القديم ثيوفانيس، واقفاً بيديه تحملان دفاتر كالعادة، معه تعلّم القراءة والكتابة على يد كاهن مسيحيّ عجوز. وقت كان أحمد ضليعاً في الفارسية، لغة عائلته والبلاط، كان ثيوفانيس، ابن كاتب العدل اليونانيّ، متقدّماً باللغة البيزنطية. يساعد الولدان بعضهما البعض فيما يدرسان. ثيوفانيس؛ عينان سوداوان، أشقر الشَعر. أحمد؛ عينان رماديتان وأسود الشَعر. "دم فارسيّ ويونانيّ"، اعتاد الناس التعليق لدى رؤيتهما معاً. ردّ ابتسامة صاحبه بينما عَبَرَت هذه الفكرة في خاطره وهو يستهلّ حياته الجديدة، لو تكلّم، ستختلط اللغة اليونانية مع لغة جديدة كانت تتغلغل أكثر في قونية، اللغة التركمانية[1]. لماذا يختلف الناس؟ وكردّ على سؤاله، ألحّت عليه كلمات مولانا: "حبّ الخالق مستور بين الناس جميعاً".

"أحمد، هل تحلم؟ وماذا تفعل بمعطفكَ الشتويّ؟". لا، لن يتقبّل ثيوفانيس هذا الردّ الملتبس.

فتردّد أحمد، محرجاً. فأنّى له، وهو الذي يوقّر "الحسّيّ"، توضيح أن حياته انقلبت رأساً على عقب من مجرّد كلام واعظ دينيّ، مهما كان ذيوع صيته؟ قال أحمد: "أنا راحل. لن أبقى بعد؛ حياتي هنا انتهت".

"أنتَ... ماذا؟"، وحدّق ثيوفانيس في أحمد نصف ضاحك، نصف متشكّك. ردّدَ: "أنتَ راحل. لماذا؟ وإلى أين؟"، وثارت ثائرة ثيوفانيس.

---

(١) التركمان: قبائل كانت تقيم حول بحر آرال، وفي بضع مناطق من إيران وأفغانستان. (م)

"انظر، ثيوفانيس، أعرف أننا صديقين، لكني لم أعد نفس ما كنتُ عليه بالأمس، ولا حتى هذا الصباح". كيف يُفهم صاحبه، وهو نفسه لا يميّز ما كان يجري عليه؟ فتطلّع في ثيوفانيس عاجزاً، أحسّ فجأة أنه حزين، ثم يهزهز نفسه. قال محرجاً: "قد تتقاطع دروبنا من جديد. سعدتُ بمعرفتكَ". بدت كلماته عبثية، وهو يستدير في فظاظة. سمع صاحبه ينادي باسمه، لكنه كان قد ضاع وسط الزحام.

وصل فجأة بوابة المدينة. مسكين ثيوفانيس، لكنْ ماذا أفعل؟ شدّ خطوته، أمام جدارين مُحصنّين وأبراج حراسة، ثم عَبَرَ الميدان، حيث كان يتمتع بركوب الخيل مع أصحابه. كان نصف الميدان خالياً تغطّيه خيام لاجئين قد وصلوا مؤخّراً. وعلى مسافة بعيدة كان خطّ طوروس الأزرق يدعوه.

كم يوماً مضى منذ رحيله عن قونية؟ فَقَدَ أحمد عديدها. يوم يتلو آخر: كان يتسنّم تلّة مغطّاة بشجر التنّوب، ثم نزل وادياً يظلّله شجر البتولا والبلوط. فغمره الظلّ في قاع أُخدود، سار بعده مع الشمس وهي تشعّ عليه بين الشجر.

ذات ظهيرة قد علت، وبعد سير منحدر، وقف من التعب على جرف صخريّ، لكنه انتعش من الهواء العليل، تهبّ عليه دوّامات كبيرة من الريح، إزاء سماء وهّاجة، حيث يغطس سريعاً قرص الشمس الأحمر خلف سلاسل الجبال. من حوله شجر، وصخور تتّقد، فغمره توّاً حسّ من المجد ممزوجاً بعرفان. وارتجف. أول الربيع، والهواء أبرد من قونية. صدمته غُصّة مفاجئة من الحنين. بالمدينة، حيث قضى سنوات حياته الاثنتين والعشرين، كانت أبراج ومنارات تشكّل السماء، مع صوت خافق بنشاط البشر. وهنا، كلّ شيء أخضر، برُقع زرقاء أو أرجوانية، ويُسمَع فقط هبّات الريح وصيحات الطير. أمر مهيب وساحق. لكنّ لماذا يأسف على حياته في قونية؟ فكّر في نظامه اليوميّ بدكان القاضي، الزعيق،

الغبار، الشِّجار اللدود بين التجار وملاّك الأراضي، كلّ هذا (ثم ضحك) لخشيتهم من خسارة ما يملكون، أو رغبتهم في تملّك المزيد. راح هذا كلّه، قال لنفسه، فغاض أسفه من حسّه بالراحة.

وقتها، نما لسمعه صوت جريان الماء، فذكّره بالعطش وأن طعامه قد حان. فكّر، سيكون عشاؤه بسيطاً، وهو يضع قطعة الخبز الوحيدة التي تخلّفت، ليأكل. غداً سأصادف قرية. لكنّ كلّ ما يحتاجه الآن، أن يجد مكاناً للمبيت. تتبّع صوت الماء فاكتشف على الفور جدول ماء يندفع على فراش من الصخر، وقد أخفته أجمة من الشجر. أكل خبزه واغتسل، وحين أدّى صلواته لفّ نفسه بمعطفه، ثم مال نحو غطاء كثيف من ورق الشجر.

ريثما كان يغشاه نوم بطيء، راح يتذكّر أولى لياليه بعيداً عن بيته. كأنه من زمان طويل. نام تلك الليلة في بستان على الطريق، وبينما هو راقد ليلته، توجّه بصلاة صامتة لمكان فوق الشجر: "يا من أنتَ في كلّ مكان، أرجوكَ أن تبعث بملائكتكَ لتحميني من وحوش البرية". صحّح نفسه بسرعة: "بل يكفي ملاك واحد. لن أزعج السماء بطلب صغير". وأيقظه الصباح التالي ندى رطب على وجهه. فتح عينيه، فسمح له الوقت أن يلمح كرة فراء حمراء ترقّى شجرة البتولا جانب رأسه. فتمتم: "نعم، نعم أعرف، حان وقت الصلاة". ثم ضحك. "طلبتُ منكَ حمايتي من وحوش البرية، لا السناجب".

بعدئذ، والطريق الرومانيّ يضيق إلى مدقّ متّجه نحو طوروس، اختفت البساتين، فاحتمى بالكهوف. جرّب تجويف شجرة، لكنّ جسمه أوجعه في الصباح، فقرّر أن فراشاً من ورق الشجر المقصّف سيناسبه أكثر.

ريثما كان يضحك من ذكرى ليلته الأولى بين الشجر، راح في النوم أخيراً. وحين استيقظ، كان الطير يبثّ أولى رسائله لتباشير النهار. فرش

معطفه على الأرض، وصبّ قليلاً من الماء من قرعته، ولدى تمام وضوئه، اتّجه شرقاً، وجمّع نفسه. كانت الكلمات التي سمعها في قونية من أيام (أم أسابيع؟) لا تزال تسكنه. "الخالق البارئ؛ إليه يعود الأمر كلّه". قد سمعها في الريح، وسط زقزقة الطير، في النور المنبثّ من بين ورق الشجر، وغلبه شعور العرفان. أمامه يوم مجيد جديد. تعجّب من حسّه هذا بمقامه بين هذه الغابة! تحطّمُ أغصان، ووشيشُ شجر، وطيرانٌ مفاجئ لعصفور، صارت هذه الأصوات جزءاً من حياته. عاد إلى خندقه حيث كان الليلة السابقة يشهد غروب الشمس، وتمدّد. كان بازٌ ينسلّ عالياً في أزرق سماء الوادي. نما لسمعه فجأة صوت فوج نساء على مبعدة. يبدو آتياً من جانب الوادي الآخر، يُرجع صداه على الجرف حيث يقف. مع ذلك، لم يجد أثراً لقرية. فكّر، قد تكون مخفية عند الشجر. حان وقت الذهاب لجلب طعام. فلفّ معطفه حول نفسه، ملقياً جرابه على كتفه، وشرع يسير وِجهةَ الصوت.

- ٥ -

أول ما لمحته عينا أحمد وهو يقف أمام صفٍّ من شجر الحور، كأنه علامة تحدّد القرية، كان شكلين على بعد ياردات. يختلطان بالبخار المتصاعد من مرجل كبير جنبهما. متسلّحين بعصيّ خشبية، يدقّان أكوام الملابس أمامهما. فتاة صغيرة تدفع حُزماً من أماليد الغصون تحت المرجل، فيمسّ جوانبها على التوّ لهيب برتقاليّ. على بعد خطوات، ثلّة من نساء وأطفال يحتشدون حول نبع، لملء أباريقهم، واحداً بعد آخر. خلفهم، جمع أولاد على حميرهم ينتظرون، مستعدّين لحمل الأباريق الأثقل، بينما تركض الأولاد في صراخ منفعل، لرشرشة بعضهم بعضاً. تَعبُرُ المدقّ معزَاة، فترسل دجاجتان مجفلتان نوبة احتجاج. فكّر، هناك شيء لطيف بالمشهد، يُكرّر نفسه في كلّ قرية عند هذه الناصية من النهار، حيث يحمل الهواء برودة الليل ولم تشرق الشمس بعد وراء الجبال.

"بكّر الربيع هذا العام"، قالت امرأة، وهي تتطلّع إلى السماء حيث يطير من فوقها سرب زرازير.

وقالت أخرى: "آه. سنجني الآن الخضار الطازج. مللتُ أكل البرغل واللوبيا".

ركض صغير أمام امرأة تغسل الملابس فشدّ جونلتها. أشار ناحية أحمد. فتوقفت المرأتان تحدّقان. تصوّرهما حانقتَين في محاولة الرؤية ما بين الغصون. خرّ جمع النساء والأطفال حول النبع صامتين. طبعاً، لا يعتادون رؤية الغرباء. بالنسبة لهم أعني خطراً كأنني نبأ. بدأ سيره بطيئاً نحوهم وهم يتراجعون، مُخلفين مسافة فراغ بينه وبين النبع. أبدو فظيعاً إلى حدٍ، بشَعري الأشعث ولحيتي الشمطاء، وعينيّ المتوجّعتَين الحمراوين، أو هكذا ظنّ.

قـال: "الـسلام علـيكم"، بابتـسامة أمـلَ أن تظهـر. فـرأى النـسوة مرتاحات.

رددن آلياً "وعليكم السلام".

"اسمي أحمد". وأخرج قرعة من جرابه، فأشار بأنه يريد أن يملأها بالماء.

كـان الـصغار متـشبّثين بأمهـاتهم. غـامر أحـدهم، ولـد في قفطـان برتقاليّ لامع، بالقول: "من أين جئتَ؟"

"من قونية. سمعتَ عن قونية؟"

فأومأ الولد، بينما راحت النسوة يتهامسن كلٌّ مع الأخرى: "جاء من قونية. جاء من قونية".

"وإلى أين تمضي؟"

نظر أحمد للفتاة الصغيرة التي اقتربت. عيناها سوداوان لامعتان، تظلّلهما أهداب طويلة معقوفة. فَسُرَّ. بدت جادّة لكنّ جميلة!

أصرّت الصغيرة، كمن لفّت الدنيا: "ذاهب إلى دمشق؟"

فردّت امرأة: "كيميا، اهدئي".

لكن اتّضح أنهن يرقُبن الإجابة. تردّد أحمد لحظة. الله وحده العليم أني غير ذاهب لأيّ مكان، كما أنه العليم بأن حياتي في قونية انتهت. ردّ أخيراً مع آهة: "ليس هناك مكان أذهب إليه. ليس الله في مكان، وهو في كلّ مكان".

حدّقت فيه المرأة حائرة، ثم هزّت كتفيها.

هزّ أحمد كتفيه أيضاً. لماذا يجب عليهن الفهم؟ لقد عجز أفضل أصحابه عن تمييز حاجته الفجائية للعزلة. كانت الصغيرة ترقبه بنظرة فضولية على وجهه، متوتّرة وشاردة في الوقت نفسه. اسمها كيميا. راح يتطلّع فيها حين سكنَت، كمن ينصت لنداء بعيد. لاحظ أحمد الخوف بعينَي امرأة يبدو أنها أمها. ثم استردّت الصغيرة نَفَسها وارتاحت المرأة.

حدث ذلك كلّه بسرعة، كأن سحابة عبرت أمام الشمس ثم اختفت. ترقبه الصغيرة الآن بانتباه.

"تحتاج إلى بعض الطعام"، قالت كأمرٍ واقع، فضحك أحمد، كأنه يسمع أمه: "تحتاج إلى الطعام، يا بُنيّ".

"أنتِ على حقّ. لكني صياد ماهر". ومن جرابه شدّ أرنباً صغيراً قد اصطاده أمس. سأل، يخاطب أمها: "تعطيني قطعة جبن وخبزاً مقابل هذا؟"

أخذت آفدكيا الأرنب من يديه، فَحَصَته ثم ابتعدت من دون كلام، إشارة إلى أن يتبعها.

أحبها. بدت قوية، وجهها مغضّن كأرض محروثة. بها وقار فطريّ يتّسم به أهل الريف، كما يتّخذ الملوك تيجانهم أو العجائز حكمتهم. فكّر: أهل حظّ. فرفاقهم دائماً الأرض والمطر والريح، ومثلها أحياناً تراهم جبابرة وقساة، لكنهم طبيعيون بسطاء.

تبع المرأة، وكيميا إلى جانبه. وهو يسير، سرى بوعيه أن قدمه تؤلمه.

جلس على مقعد صخريّ واطئ يستند إلى جدار المنزل، وبعد دقائق، دخلت كيميا وأمها. الشمس الآن عالية فتمدّد، يستمتع بالدفء.

فكّر، لقد وصلتُ. مما أدهشه. من قبل كان يخطّط: سيبني لنفسه كوخاً بمكان من الغابة، ليس ببعيد، ويستقرّ هناك، بحياة تخلو من المشاغل التافهة. صفا دماغه بعد إجهاد سير الأيام الخوالي في عزلة. أحسّ بنفسه أنظف، وأبسط. وقد رحلت عنه نوبات القلق التي اعتاد أن تضغط عليه. بكّر أو تأخّر تفقد معناها. قراره أن يكون هنا أو هناك ليس بذي معنًى. الآن هو هنا. جعلته الفكرة يضحك، ثم ترقرقت ضحكته بين الصغار وقد تجمّعوا أمامه. خرجت كيميا من المنزل عندئذ، تمسك حزمة صغيرة ملفوفة بقماشة زرقاء.

قالت "هذا لكَ"، وهي تُسلمه اللفّة الصغيرة. "كن حذراً، فيها بيض".

أخذ اللفّة ووقف "شكراً. سأتّكل على الله الآن".

ترقبه بالجدّية نفسها التي بانت عنها قبل قليل. وكان مجرّد سؤال: "هل ستجيء ثانية؟"

قال: "الله يعلم". فأومأت.

وهو يدخل الغابة، دار ناظراً نحو القرية. كلّ شيء وكلّ امرئ حيث كان. للقرية وأهلها مكانة في حياته، مثل أصوات الغابة الأليفة وهي تُرحّب به. مغلوباً بموجة عرفان، خرّ على ركبتيه يضحك من جديد: "يا رحمن، زَوّدتَني لتُريحني بوسادة من ورق الشجر".

- ٦ -

مرت أسابيع منذ ظهور الرجل الغريب على حافة الغابة، وهكذا، تزوّدوا بمادّة جديدة لنميمة النساء: كم سيبقى؟ ماذا سيفعل بالشتاء؟ الغريب أنه من قونية! مرّ بعضٌ من رجالهم هناك. حكوا عن الثروات التي هلّت على قونية من أنحاء العالم كلّه، من المسيحيين، من المسلمين، من اليهود، وكانوا يعيشون سالمين بعضهم مع بعض. لكن هذا الرجل لا يبدو ثرياً، ولا تعنيهم ديانته. فليست هناك مساجد بالقرية، لذلك يستخدمون الجزء الشرقيّ من الكنيسة لصلاة المسلمين يوم الجمعة. واشتكى بعض المسيحيين وقتئذ أن في هذا إهانة لإله عيسى ومريم. لكنّ آفدكيا لاحظت أن زوجها فاروق يوقّر العذراء المقدّسة كما توقّرها، وهي المسيحية، ما جعلها توقن على أيّ حال بأن الأب والله رفيقان طيبان. كما أضاف فاروق بأنه لو كان الإله واحداً، كما يردّد الإمام وكاهنها، فلا يعنيه قطعاً أن يُعبد بأكثر من طريقة. لكنّ فاروق لا يتعبّد كالآخرين. فهو يذهب نادراً للمسجد أو الكنيسة؛ لكنه لا يقصّر في توقير القمر الجديد، أو صبّ قطرات ماء على الأرض قبل الشراب.

وضّح ذات يوم: "هذا نصيب الأرض. كان والداي وأجدادي يفعلونها عطية للأرباب". وتكلّم عن الكهنة محلّ خشية وتوقير أسلافهم. "عندما كنتُ طفلاً، كان هناك صنم صغير مُسمّر دوماً برأس خيمتنا. مصنوع من قماش؛ وكان مُسوداً بالياً". قال: "في تلك الأيام، كان رأس العائلة يذُرّ الماء دائماً قبل الشراب فوق الصنم. وبعد إسلامنا اختفى الصنم، لكنّ ذرّ الماء بقي".

حضور أحمد كان سبب الاضطراب، من دون أن يعي. مكث في كهف صغير على بُعد ساعتين سيراً على الأقدام شمال القرية. ذات يوم لمحه طاهر وهو يجمع الحطب. وأشار الرجل بعلامة (دعوني وشأني). فيما

بعد رآه طاهر ساجداً أمام الكهف. حين بلّغ النساء، وافقنه: إن ولياً قُرب قريتهم بشارة خير. فاستُشير الإمام: "هل نأخذ إليه بعض الطعام؟"، فوافق فوراً، فوجدت سلال الخُضر والفاكهة طريقها إلى كهف أحمد، حيث تُترك عند المدخل.

وبلّغ الأب كريستوم، الذي يزور القرية كلّ رابع قمر، عن أحمد. "هل تبدو الحياة بهذا الشكل طبيعية برأيك؟!"

كانت إجابته حذرة "حَسَب. فليس متاحاً لنا أن نعيش في عزلة؛ والأمر مرهون بثُلّة فقط".

تغطّي أبرشية الأب كريستوم اثنتي عشرة قرية صغيرة مبعثرة بوديان وذُرا جبال طوروس. اعتاد أن يقول بابتسامة كبيرة: "تحتاج إلى قدمين قويتين لتصبح كاهن قرية"، ما جعل الغضون حول وجهه تتعمّق، لتُخفي بالوقت نفسه الإرهاق الذي يحسّه زاحفاً في عظامه. ذات يوم سأهرم، وعندها يصعب عليّ أن أقوم بهذا العمل، فكّر مؤخّراً وهو قلق، وماذا سيحدث عندئذ لهؤلاء؟ فهم يعمّدون صغارهم، لكنهم من باب آخر يبنون مساجد، ويسمحون بتخريب كنائسهم. فديانة الإسلام الجديدة تكسب أرضاً، وليس لها من منكر. في القسطنطينية يتقابل المطارنة ويتكلّمون، لكنّ من دون جدوى، فتأوّه الأب: هذا العمل يشكّل حياته كلّها، وماذا في النهاية أنجز؟

"سأقول لكَ، من الخطأ لشاب مثلكَ أن يعزف عن العالم والحياة وألاّ يكون أباً لأطفال". وكما تفعل النسوة كلّ صباح، يملأن جرارهن عند النبع، ويتكلّمن عن أحمد.

تدمدم آنيا العجوز: "عظيم أن تكون ولياً، لكنّ ليس من الخطأ أن تكون ولياً وأباً؟ ألا ترى إمامنا".

وتُقحِم آفدكيا نفسها: "انظر إلى الأب كريستوم".

فتُعلن صوفيا بصوت ظافر: "آه، يقول الأب كريستوم: إن الله يريد من أبنائه أن يتكاثروا".

تتفجر آفدكيا في الضحك: "آه يا صوفيا، وأنت تنفذّين وصية الله بحذافيرها؛ فلديك خمسة أولاد، وهناك واحد في الطريق، وقد اجتزت عتبة العشرين!".

حضنت صوفيا بطنها الناتئ بفخر. قالت بالمختَصَر المفيد كما يردّد الأب كريستوم: "الأطفال بذور المستقبل".

فكّرت آفدكيا، هناك شيء بالقرية أكثر من مضحك، فهي تتداول في أمور الزواج والحمّل، بينما لا يبدي الناسك الشاب أدنى اهتمام بالموضوع.

بعد فترة، فَقَدَ الناس اهتمامهم. لكنهم لم ينسوا أحمد؛ باعتباره صار من محيطهم، حضوره لا يُنكَر، كالغابة أو جدول الماء آخر القرية. تحتاج الأرض إلى ماء لتُعشب، وأحمد في كهفه يحتاج إلى غذاء منتَظَم، لكنه ليس متطفلاً. ذات أسبوع ترك طفل سلّة طعام بمدخل الكهف، وكان طائر أو أرنب بريّ يعود أحياناً بدوره. حين يلُوح أحمد، يتّضح أنه لا يريد الكلام، وصار هذا مقبولاً كقبول الشمس وهي تبزغ من الشرق أو جداول الماء وهي تهبط المنحدرات.

❖

عموماً، لم يكن أحمد مهماً اليوم، بل بلوغ الأب كريستوم بعد غياب أكثر من ثلاثة أشهر. لا يُخْلصُ أهل القرية دائماً في ولائهم للكنيسة، لكنهم يكنّون للكاهن عاطفة غامرة، وزياراته تجلب للقرية جواً من الاحتفال.

ستُشعل النسوة هذا المساء شموعاً في الكنيسة، ويُلبسن المواليد أحلى الملابس، ويحتفل الجمع. ثم يُدعى الأب كريستوم لمشاركة إحدى العائلات الطعام على شرفة سطح. توقَد النيران، ويَحضُر كالعادة

صاحبه الإمام. يدرك الرجلان ما بينهما من خلاف عقائديّ، لكنّ اهتمامهما المشترك مع مرور السنين لمصلحة القرويين هو ما جمعهم، يحجب هذا الخلاف. في ظلّ المراتب الكهنوتية لديانتيهما الموقّرتَين، يعرفان أن منصبَيهما مختلفان. فالإمام مجرّد قائد لصلاة الجمعة، بينما الأب كريستوم ممثّل الله الرسميّ، وهو ما كان يُثقل كاهله أحياناً، كما يعترف. لكنه لا ينتهك مشاعر أحد.

جلس الأب كريستوم بجانب وهج النار على السطح، يهدهده طنين الحوار من حوله. غرق الأب في أفكاره. كان يفكّر، إن خلافنا، سواء بالمرتبة أو القناعات، لا يعني الكثير في عينَي الله. وهو يحفظ هذا الرأي مصوناً في نفسه. لأنه على يقين من أن المطارنة لن يُقدّروه. لكنّ ماذا يعرف المطارنة عن حياة هؤلاء، فهم كالعادة يشغلهم شجارهم حول ما إن كان على الكنيسة الشرقية أو اللاتينية التحكّم في القسطنطينية؟ ماذا يعرفون عن معاناة أهل القُرى المُعوَزين: لا يعرفون التنبؤ بالمواسم، بل الأسوأ، الغزوات المستمرة، مرور القوات الغازية، الرقّ، المذابح؟ حين أنظر إلى هؤلاء وأُنصت إليهم، أعرفُ أنهم أولاد الله، وأعرف أنه الشيء الوحيد المهم. لكنّ، ويتعذّب الأب كريستوم، أيّ كاهن أنا؟ وأنتَ، يا إلهنا يسوع، ألم أنس أنكَ شاهدي؟ كان يحسّ أكثر من ذي قبل بالسنين تثقّل كاهليه كما يبدو أن ديانة الإسلام الجديدة قد جلبت عليه أسئلة لا تُحتمل.

"أبانا، لا تحزن"، وقطع أفكاره صوت طفلة "نحن سعداء لأنكَ معنا أيها الأب".

هي كيميا، طبعاً. فكّر، هذه الطفلة ترى كلّ شيء. هناك ما يُقلق ويصعّب تحديده قليلاً بشأنها. مع أنها شخص ألُوف.

تتطلّع كيميا في الكاهن بجاذبية هادئة. قالت فخورة: "أنجزتُ الكتابة كلّها. الصفحة كلّها. تحبّ أن تراها؟"

"طبعاً".

عندما يزور القرية، يقضي الأب كريستوم وقتاً في تعليم الصغار القراءة والكتابة. وعلى نحو مطّرد، يستخدمون كلمات مقتبسة من البدو التركمان، وكان يحسّ أن ذلك واجبه عموماً في حماية اللغة اليونانية، التي يتكلّم بها أهل هذه البلاد منذ قرون. يتساءل أحياناً: على أيّ حال. هل هذه معركة أخرى خاسرة؟ فلم يعد أحد يهتم كثيراً باللغات؛ فاللغات ببساطة أدوات يستعملها الناس. تختلط في المدن اللغتان العربية والفارسية باليونانية، على التساوي. وهكذا، يختلف الأمر: فالإسلام واللغة التركمانية يحلاّن ببطء محلّ المسيحية واللغة اليونانية. كم كان أمراً مقلقاً أن يسكن المرء أحياناً بلاد الأناضول وجبال طوروس، مشدوداً بين إمبراطوريتين: بيزنطية وفارسية!

ولم يكن مُجدياً أن كلتا الإمبراطوريتين كانت مهدّدة من خاصرتها بـ"مآثر" البرابرة المرعبة تجاه أيّ ممن تُرتَكَب عليه: سواء التركمان في الشرق أو الفرنجة وحلفاؤهم في الغرب. ومع تقدّم المغول، فكّر الأب كريستوم، لم يكن الفرد المهدَّد وحده، لكنّ كلّ وسائل الحياة بأشكالها الغريبة وثرواتها. سمع المرء عن مكتبات تختفي في حريق، عن مخطوطات ومنمنمات تُمزّق أشلاء، عن أعمال فنية تُسحن إلى كُسارة. عالمنا في اضطراب، تأوّه الكاهن العجوز، مع ذلك لا تتوقّف الحياة. يخلُد العجائز إلى ذكرياتهم بينما يشيّد الشبان عوالم جديدة. لم يعد الأب كريستوم إلى قونية منذ سنين، لكنه سمع، تحت حِكم السلطان التنويريّ، أن ثقافة جديدة تُستلهَم من فارس، مع أنها غير منفصلة عن جذورها اليونانية، قد انبعثت بفن وأسلوب وجمال يخصّها. فكّر، فلماذا أقلق؟ ولله في خلقه شؤون، ومن نطلب غيره؟

قاطعته في أفكاره أغنية عاطفية بريّة بزغَت من الليل. الصوت أجشّ، والألحان خشنة بلعومية. لم يفهم الكاهن الكلمات، لكنّ لنكهة الأغنية

خَبَب جواد، نكهة صحارى وسموات لانهائية. تساءل، هل تعود إلى جديد أم قديم؟ دوّمت الأغنية، تستدعي حكمة الله. كان صوت فاروق.

هذه صلاة، صلاة حقيقية. فكّر الأب كريستوم، وهو يحسّ بالشكوك تهاجمه ثانية. للناس دياناتهم، ويستمع الله إلى كلٍ منهم. ومن نحن لنخبرهم كيف نكلّمه؟ لم يغنّ فاروق بمثل هذه العاطفة، وهذا الشوق. الرجل يتألّم، لكنّ في الألم نداء، فكّر الأب كريستوم، في ذلك النوع من النداء حيث لا يبقَى من دون ردّ. مع أنه قد يأخذ وقتاً طويلاً قبل أن يتمكّن المرء من سماع الردّ.

ناشده الصوتُ: "أبي، هل لكَ أن تنظر في كتابتي؟"

مرّر يده على حاجبه مُجفلاً، يحدّق في كيميا، كانت لا تزال بجانبه. إنني أشيخ. للحظة نسيها كلياً. لاحظ أن الصوت توقّف عن الغناء. فقال: "آسف، يا كيميا. نعم، أريني".

أعطته رقعة الورق التي خلّفها تقريباً منذ أربعة أشهر، مع كلمات كُتبت عليها بعناية لتنسخها. تحت كلّ كلمة كتبها في الأصل، بريشة طائر، بدت كتابتها بالفحم أثقل لكنّ بالدقّة نفسها.

فابتسم الأب كريستوم: "ممتاز، يا كيميا". كان مسروراً. ويعرف جيداً أن دروس كتابته للقرويين مجرّد فضول، شيء يهدّئ الأطفال فترة. فالحياة خشنة في القرى، وهناك مهمات أخرى أكثر إلحاحاً من الكتابة، مثل حصاد القمح، إطعام الحيوانات، ريّ الأرض، قطاف الفاكهة، إصلاح الأسقف قبل الشتاء. إن الكتابة رفاهية لمن يقتنون الخدم، لا لخلق مثلهم.

شرع الكاهن "ماذا سنفعل مع هذه الصغيرة؟". وقد انتهت أغنيته، وقف فاروق أمامه يتطلّع في العلامات السود فوق فرخ الورق، حيث لم يكن يعني شيئاً إليه. حكّ رأسه ونظر محتاراً. قال أخيراً: "ليستْ كالآخرين. أنا وأمها، نقلق عليها".

ردّ الكاهنُ رقعةَ الورق إلى كيميا. "كيميا، نحتاج أنا وأبوك للكلام. سأعطيكِ بضعة أحرف جديدة قبل الذهاب".

فركضت نحو أمها. "انظري، يقول الأب أحرفي ممتازة".

دار الأب كريستوم إلى فاروق. "لا تقلق، يا فاروق. للربّ مشيئته، وهي مجهولة لدينا".

جلس فاروق متثاقلاً بجانب الكاهن.

لاحظ الأب كريستوم ابيضاض شعر فاروق عند فوديه. "كم عمركَ، فاروق؟"

ردّد فاروق "كم عمري؟". وتردّد. "أربعون تقريباً، أتصوّر. لا يحتفظ أهلي بسجلّ لهذا، ولا أحد يعرف حقاً".

فكّر الكاهن: "آه، حين زوّجتكَ، من ثماني عشرة سنة، كنتَ بحدود العشرين، فأنتَ لا تبعد كثيراً، إنكَ في أواخر الثلاثينيات".

وقع الصمت بين الرجلين، وضاع كلٌّ بأفكاره. أمامهم تطقطق النار. وما بين وقت وآخر، تندلع شرارة كمن يجرّب الفرار.

قال الكاهن بعد وهلة: "عُمر جيد".

هبط الليل، فوقهم السماء كقطعة حرير داكنة مرصّعة بألماس دقيق.

عاد الأب كريستوم للموضوع الذي يقلق فاروق. أمّن عليه: "أنتَ على حقّ. كيميا مختلفة". وأضاف، يدهشه اقتراحه: "عليها الذهاب إلى قونية والدراسة هناك". بدت فكرة جيدة. فلا يملك هؤلاء مالاً، ولم يكن نادراً أن يتكفّل أحد بتزويد مثل هؤلاء الصغار بالتعليم. هناك أديرة أيضاً، يعرف اثنين منهم على الأقلّ، بعد توصيته، قد تُقبل الطفلة بسهولة. كان يفكّر، من دون وعي بأن فاروق يقف أمامه، وجهه أحمر من الغضب.

فانفجر "أُرسل كيميا بعيداً؟ أبداً!"

قال الأب كريستوم، مسترضياً: "أنا لا أقول، هذا ما يجب أن تفعله، لكنْ عليكَ أن تضعه في حسبانكَ".

فردّ فاروق: "لن أضع شيئاً في الحسبان"، وابتعد بفظاظة.

لكنّ الأب كريستوم يعرف الرجل. سيُشرك فاروق زوجه في غضبه أولاً، وآفدكيا زوج حكيمة. ستُنصت لزوجها، ويُستشار الإمام، ثم تشقّ الفكرة في النهاية دربها عبر القرية، ويتم التوصّل إلى إجماع. وإن صحّ هذا، فسيجد الله وسيلة للتحقيق. في هذه الأثناء، سيدع فاروق غضبه يتجمّع، ويكون الأب كريستوم هو الساذَج لوهلة. الفكرة جعلته يبتسم، وحين شعر بيد تتسلّ إلى يده، لم يدهشه أن يجد كيميا تجلس بجانبه وتردّ عليه ابتسامته.

انتهت الاحتفالات وعادت القرية لنظامها اليوميّ. رحل الأب كريستوم في الفجر، يصحبه طاهر بأمل العثور على حديدة محراث جديدة في قرية قريبة. على شرفة السطح تتسلّح أسيل بمقشّة قصب، تكنس قشور بذور العبّاد المتخلّف عن جمع الليلة الماضية.

"كيميا، تحرّكي؟ ألا ترين أنك في طريقي؟"

كانت كيميا تقف على بعد أقدام، بركن الشرفة، تمنع أسيل من كنس المطرح الذي كان يجلس فيه الأب كريستوم البارحة.

"لا تمسّي حروفي يا أسيل، لا، أرجوك".

"حروفك! هذه خربشة بالتراب! فلمَ لا تساعديني في التنظيف بدلاً من هذه الجلبة؟"

"لقد كتبها الأب كريستوم بنفسه ليريني. أرجوك، أسيل، أرجوك".

فهزّت أسيلُ رأسها ساخطة: "أنت مجنونة، يا كيميا! هذه الكتابة هراء. فيمَ حاجتكِ إليها؟ هل ستُعينكِ الكتابة على عجن الخبز أو حلب الماعز؟"

تُحدّق كيميا في أختها يائسة. وتلهث أسيل بآهة. لا نفع من الجدال. فمحاولة الكلام بتعقّل مع كيميا كمواجهة حائط. والأمر سواء؛ ستبكي كيميا في النهاية أو تبتسم مع نفسها، ثم تنسى بقية العالَم وساكنيه. شيء يثير التوتّر!

هتفت أسيل: "أنت تدفعيننا كلنا للجنون، يا كيميا".

بدأت شفتا كيميا ترتجفان، وساحت عيناها بالدموع، التي هلّت على خدّيها. تمتمت: "ليس لي أن أوضّح، ليس لي أن أوضّح"، ويدها على شفتيها، كمن يحاول أن يمنع نشيجاً. "أريد أن أتعلّم كيف أقرأ. فهو أمر مهول على قلبي".

سألت أسيل "ما هذا المهول؟"، وهي تتحرّك على الرغم من نفسها.

فتهزّ كيميا رأسها عاجزة، وهي تردّد: "ليس لي أن أوضّح، ليس لي".

كفّت أسيل وهي ترمي بمقشّة القصب: "لنذهب ونجهّز الوجبة".

تضع آفدكيا على الشرفة قطعة قماش أمام زوجها فاروق، وكان قد صعد للتوّ وجلس وظهره للجدار. أعدّت القفص لتُسند إليه الصينية النحاسية المدوّرة الكبيرة التي أحضرتها أسيل، عليها الصحون المعتادة من اللبن والعسل والزيتون، وفي جانب منها أكواب الشاي. خَلفَها كيميا تحمل صحناً خزفياً يضمّ أرغفة كبيرة من الخبز المكمور الذي خبزته أمها منذ أسبوع بالفرن العموميّ. عادت أختها أسيل للمنزل لتحضرَ إبريق الشاي الساخن، وللتوّ راحوا جميعاً يأكلون فطورهم.

"أسيل، صبّي لي ثانيةً، وأنت يا كيميا، أرجوك، كفّي عن الحلم وكُلي". آفدكيا تهزّ رأسها معترضة، مع أنها كانت تبدو مثل أمّ راضية.

كدجاجة حولها فراخ، فكّر فاروق، فبعثت الصورة في وجهه ابتسامة لا إرادية.

قالت آفدكيا هازئة: "يسعدني أن أرى مزاجكَ يتحسّن. فلا أعرف ماذا جرى لكَ البارحة، لكني لم أركَ متجهّماً منذ طلوع القمح الرديء".

هكذا دعته القرية، ذلك الصيف، منذ سنين، حين دمّر المطر المحاصيل، وسار فاروق أسابيع يهزّ رأسه يائساً.

اختفت الابتسامة من وجه فاروق وقال: "آه، أحسّ بالسوء كأيامها".

ولم ينطق بعدها ببنت شفة، ولم تلحّ عليه آفدكيا. أنهوا وجبتهم صامتين. اختفت أسيل. عدا كيميا التي تنقّي بحرص قشور العبّاد من التراب في الركن، كان فاروق وآفدكيا وحيدين.

تمتم فاروق: "لم أستطع النوم البارحة". لا تزال كلمات الأب كريستوم يرنّ صداها بأذنيه. انفجر فجأة "تعرفين ماذا اقترح؟ تعرفين أيّ هراء كان في باله؟

"منْ؟ وأيّ هراء؟ طاهر لا يزال طفلاً، هو -".

فاستهجن فاروق غاضباً: "لا أتكلّم عن طاهر. أتكلّم عن الأب كريستوم".

"الأب كريستوم! خرجتَ عن طورك. أصابكَ كابوس؟"

فردَّ فاروق: "آه، نوعاً ما، لا يبعد الأمر عن كابوس. البارحة، كنا نتكلّم عن..."، أشار فاروق بذقنه نحو كيميا، ثم واصل، خافضاً صوته: "عنها. قال الأب كريستوم..."، وتوقّف فاروق، فقد خنقت حلقه الكلمات.

"ماذا قال؟ هه؟ أثرتَ أعصابي".

"قال يجب أن تذهب إلى قونية"، سكت فاروق ثم أضاف على مضض "لتدرس. فما رأيك؟ إلى قونية! لتدرس!"، واهتزّ صوته ساخطاً.

"شش، ستُمرض نفسكَ. فلن تذهب إلى قونية الآن، هه؟"، تهمس آفدكيا بهدوء، كما تُكلّم طفلاً لينام فتحكي له، لكنه لن يذهب للفراش، فهي تكذب عليه بشكل لطيف.

تطلّع فاروق في زوجه، مستميتاً للمزيد من كلمات التطمين.

قالت، تغتصب ابتسامة: "لا تقلق. يجب ألا نفكّر فيه الآن". ثم نهضت: "تعالي يا كيميا، لنذهب إلى الأرض. فالفول يحتاج إلى أن نقطفه. أين أختك؟"

وبينما كانت تمضي إلى الباب، دارت وردّدت: "لا تقلق. فلن يعود الأب كريستوم قبل الخريف، وخلال هذا، سيرينا الله ماذا نفعل".

لم يعترف فاروق بالأمر بصوت عال، لكنه حين يحسّ بالضياع أو الانزعاج، تجد آفدكيا دائماً طريقة لتُهدئه. زال ثُقل معدته. نعم، لن يعود الأب كريستوم على أيّ حال قبل الخريف. وستجري أمور كثيرة حتى هذا الوقت. (سأفحص الكروم)، قرّر. فالعنب ينضج بسرعة.

الشمس الآن عالية. مسحت آفدكيا العرق عن جبينها. بين صفّين من الفول، تقف مع أسيل وكيميا على الجانبين. ثقلت الأكياس بالبصل والفول الذي قطفنه، فقالت: "لنتوقّف. يكفي هذا".

ركضت البنتان لتجلسا على حافة المصرف الذي يحدّ السبيل المفضي إلى البستان. قطفت أسيل زهرة عبّاد وبدأت بنزع البذور، وتركتها تسقط في طيات قفطان كيميا. انضمّت آفدكيا للجلوس جانب ابنتيها متثاقلة. لا تزال تفكّر في حوارها مع زوجها فاروق، متسائلة: هل الأب كريستوم على حق؟ هل يجب أن تذهب كيميا إلى قونية؟ من الصعب أن تتخيّل كيميا خارج القرية. وبعد... ربما كان هذا جواب مخاوفها. تعرف آفدكيا أن الكاهن مغرم بكيميا، وتثق في حكمته. لكنها تظنّ حتى اليوم أن كتابتها بالتراب ما هي إلا نوع من اللعب. أما الآن فترى فيها المزيد أكثر مما تظنّ. نظرت إلى كيميا وأختها. كم تختلفان عن بعضهما البعض! فكّرت أنه لم يمرّ أكثر من خمسة أشهر منذ أن منعت كيميا أن تسير على هداها. لا يبدو أنها تهتمّ. والغريب أنها تتفادانا! قد لا تبالي كيميا بالذهاب إلى قونية أيضاً. فهل هذا ما يريده الله؟ وقعت عينا آفدكيا على أكياس الفول والبصل المترعة بجانبها وتحرّكت أفكارها نحو أحمد في كهفه. فقد يحبّ بالتأكيد بعض الخضار، وكذلك بعض الفاكهة.

قالت: "نضج المشمش طبعاً"، وهي تقف وتتمدّد، ويداها على مؤخّرتها. كان ظهرها يؤلمها. "لنذهب فنقطف قليلاً منه، وتأخذان معاً سلّة إلى أحمد". نظرت إلى كيميا في عينيها، ويدها على كتف الصغيرة: "سأتركك تذهبين مع أختك، لكنْ لا تبتعدي عنها، أتفهمين. لا أريد أن يغضب والدك مني لسماحي لك بالتجوال هنا وهناك".

قفزت كيميا على قدميها، وأطلقت صرخةً.

"كيميا، ألا تنتبهي!".

كانت كيميا تُحدّق في بذور العبّاد، وقد تبعثرت على قدميها.

"نسيتُ"، قالت وهي مندهشة أكثر منها منتبهة.

"أليس لها أبداً أن تنتبه؟"

"أسيل، لا جلبة. فهي مجرّد بذور عبّاد. بدلاً من ذلك، فكّري في المشمش".

بدأتا السير نحو البستان، وجدول الماء يبقبق بجانبهما. ثم تركض كيميا للأمام.

كان أحمد يجلس على الصخرة الملساء بمدخل الكهف، يدفئ نفسه في ظلّ شمس الظهيرة، ولم يتحرّك حين انبعثت البنتان من الغابة. وقفت أسيل وأسقطت سلّتها. كان الجميع يعرفون أن أحمد لا يبالي بالصحبة، ويفضّل الفرار والاختباء أكثر من المواجهة مع أحد. مع ذلك ظلّ يتطلّع كأنه يتوقّعهما. أمامه كيميا، بسلّتها الملأى بالمشمش والبصل.

فابتسم أحمد. قال: "أنتِ كيميا. كنتُ أتساءل متى أراكِ ثانية". ودار ناحية أسيل، فأضاف: "وأنتِ أختها الأكبر. أراكما متشابهتين".

كانت أسيل تقف على بُعد خطوات، مستعدّة لأن تجفل.

قال أحمد: "لا تخافي"، وردّد "فاليوم إجازة، يوم مقدّس"، مقطّعاً كلماته كمن يوضّح لمَ قَطَعَ قاعدته في الصمت والعزلة. واصل: "في مثل هذا اليوم، سمعتُ كلماته، منذ ثلاثة أشهر بالضبط".

جلست كيميا على الصخرة الكبيرة بجانب أحمد، تُطوّح ساقيها. اقتربت أسيل حذرة.

سألت كيميا: "مَن سمعته؟"

فأغلق أحمد عينيه، وغاصت الابتسامة من وجهه. قال ببطء: "مولانا".

"مَن؟"

فتدخّلت أسيل: "كيميا، شش".

لكنَّ أحمد لم يبالِ بأن يُسأل. على العكس! فاللحن الذي يسمعه كان واهناً، لكنه يودّ اليوم أن يُشرك فيه هاتين البنتين القرويتين. قال: "رجل الحكمة. رجل الله، ولكلماته قوة". فُتحَت عيناه وبدأ يضحك. "انظري إليّ، كنتُ مثل إبريق فارغ، تملؤه الريح، والآن...". وتشتتت كلماته.

أرادت كيميا أن تعرف "والآن؟"

"الآن أكثر فراغاً من قبل، لكنَّ هذا الفراغ أصبح وعداً".

صمتت كيميا فترة. ثم سألته أخيراً "ماذا قال؟ ماذا قال مولانا؟"

"قال: كلّ شيء وكلّ امرئ يحبّ الخالق، وذلك ما يجعلنا تحت جناحه".

هتفت كيميا: "صحيح، وإليه يعود الأمر كلّه".

فوقف أحمد، مجفلاً: "ماذا قلت؟ هل لك أن تردّدي ما قلته حالاً؟"

لم يبدُ على كيميا الفهم.

تدخّلت أسيل: "لا تُلقِ بالاً. فكيميا دائماً لا تعرف ما تقول، أو حتى أين هي".

لكنَّ أحمد لم ينصت. كان يُحدّق في كيميا. "أرجوك يا كيميا، هل لك أن تردّدي ما قلته حالاً؟". يتكلّم بروية كمن يكلّم حيواناً رعديداً.

"لا أعرف، لا أعرف". وقاربت على الدمع. تردّد "أعرف فقط أن...".

"ماذا؟"

"أني أنتظر...". وتوقّفت ثانية. "أنتظر...". هزّت رأسها عاجزة. "لا أعرف". ومن ثم، كأن شيئاً لم يحدث، قفزت على قدميها. "أتينا إليكَ بفاكهة وخبز وجُبن وزيتون، و...". توقّفت. "أُريكَ حروفي؟". وراحت ترسم بعصا بضعة أحرف يونانية تعلّمتها من الأب كريستوم.

"إذن تعرفين الكتابة!". وأحمد مندهش. فقلّة من القرويين يعرفون الكتابة والقراءة، والبنات منهم أقلّ. وأذهله ترديدها كلمات مولانا. كلمات طبعاً من القرآن العظيم، لكنَّ في القرآن كلام كثير. وأنّى لها

معرفة كيف تختار هذه الكلمات خاصّة؟ "هل تحبين تعلّم أحرف أخرى؟"

نظرت إليه كيميا: "هل تستطيع أن تعلّمني؟". وبرقت عيناها من الانفعال.

نفد صبر أسيل. فقالت "علينا أن نعود".

قال أحمد: "نعم، نعم، عليكما بالعودة".

لم تتحرّك كيميا. سألته ثانية "علّمني؟"

قال: "أقدر. المرة القادمة سأريك بضع كلمات". وفرّغ السلّتين بجراب كتّانيّ كبير. "ليكرم الله عائلتكما وقريتكما". وشاهد الفتاتين ترحلان، ثم دار فاختفى بالكهف.

وهكذا كان. وافقت آفدكيا أن تأخذ كيميا كلّ أسبوع سلّة فاكهة وخضار إلى أحمد، وتقضي هناك بعض الوقت معه لتتعلّم الكتابة.

"إن كان هذا يسعدك، فلمَ لا؟"

دمدم فاروق لكنه رقّ أخيراً. قال: "بهذه الطريقة، لن يكون لها أن تذهب لأيّ مكان آخر لتدرس".

تصحبها أسيل أحياناً. تجلس، تحيك شرائط بيضاء لانهاية لها، بينما كيميا، محنية على الأرض بعصيّ صغيرة، تتبع أثر علامات غريبة يبرزها أحمد في الأرض. ذات يوم رسم أحمد سطوراً منحنية صغيرة.

فهتفت كيميا: "آه، جميلة. ما هذه؟"

ردّ أحمد: "هي الفارسية، لغة بلاط السلطان، ويستعملها أيضاً مولانا".

"هل تتحدّث الفارسية؟"

"نعم. فهي لغة أمي؛ جاء والداها من الشرق".

ظلّت كيميا صامتة فترة.

سألت: "كم لغة يتحدّث أهل قونية؟"

"اليونانية كما نتحدّث الآن، الفارسية، والعربية أيضاً" توقّف "ولغة التركمان أخيراً، كما نسمع أحياناً لغات من أقصى الغرب: الفينيسية، السكسونية، والفرنجة".

تساءلت كيميا عالياً: "لماذا يتحدّث الناس لغات عدّة؟"

اعترف أحمد "وأنا، أيضاً، أتساءل أحياناً"، وارتجف "ماذا نعرف عن إرادته؟"، لان وجهه بابتسامة "سؤالك يذكّرني بما قاله مولانا يوم أن قرّرتُ ترك قونية".

"ماذا قال؟"

"لا أذكر كلماته على وجه الدقّة، لكنها كانت عن طرق كثيرة تُفضي إلى الله. قال إنها بلا نهاية، لكنْ حالما تصل، يدرك كلّ امرئ الغاية نفسها دائماً".

هتفت كيميا: "إذن سيتحدّث الناس يوماً لغة واحدة". وأضافت متعجّبة "لكنْ حتى ذلك الحين، أيّ لغة نتحدّث؟"

تطلّع فيها أحمد متشكّكاً، ثم أضاء وجهه "تعرفين، أظنّ لن نحتاج للكلام. سيصبح الصمت لغتنا المشتركة".

❖

"آه، لكنها ستكون مأساة!"، وعادت لأحرف أحمد المنحنية الغريبة التي رسمها، ثم سألته: "أرجوكَ، اقرأها لي".

صاح أحمد "دوست". ردّد بنعومة "دوست" وهو يغمض عينيه.

الكلمة أشبه بهدهدة. "ماذا تعني؟"

"تعني الرفيق، الحبيب، محطّ شوقنا".

❖

تلك الليلة، وجدت كيميا النوم عصياً. هناك حزنٌ في قلبها لم تفهم مغزاه، مع أنها كانت تحسّ بالقرب في الوقت ذاته، القرب من "ذلك" (أياً

كان "ذلك") مَنْ تنتظره. تردّد مع نفسها "دوست"، وتتذبذب الكلمة عَبْر صدرها "دوست". يبدو أنها الجواب، لكنه جواب سؤال لا تعرفه. تدور بجانبها أسيل وهي تئنّ بنومها. من النافذة الضيقة شعاع من نور القمر يحيك نفسه بأشكال من شرائط بيضاء تستحيل فوراً إلى سبيل يرقى ثابتاً نحو السماء. بدأت صعود السبيل الأبيض. أخذها ما وراء القرية، ثم ما وراء الجبال. بأقصى البعيد، منبعثة من الظلام، محدّدات قباب ومآذن. بدأت تدوّم، فاستحالت إلى طيات ومنحنيات، كلمة فارسية. همهمت "دوست"، وهي تحسّ بنفسها تسقط في ليونة غائرة.

❖

"لماذا تأخّر الجميع هذا الصباح؟"، نبّهها صوت آفدكيا من الجدار الآخر. "أسيل، هاتي الشاي إلى الشرفة. وأين أختك؟"

تمطّت كيميا، تحسّ بسعادة غريبة. عَبْر النافذة، كان ضوء الشمس يغمر الغرفة. لو أغمضت عينيها طويلاً، لتذكّرت من كانت تسير معه.

روّعها صوت أسيل المتوتّر من طرادها "كيميا، ألا تتحركين؟"

فهمست لنفسها "دوست. دوست"، ثم نطّت من الفراش.

"كلّمني عن مولانا. كلّمته؟"، وتمسك ركبتيها بيديها، يغطّي قفطانها البُنيّ قدميها، كيميا إزاء أحمد، الجالس على صخرة مسطّحة كبيرة جلبها لتوافق أحواله. كانت رمادية صقيلة من النتوءات، بانحناءة ناعمة مريحة للجلوس عليها. وجدها ذات يوم عند حافة الغابة فحملها طول الطريق إلى كهفه. مقعد كامل لمن يريد العيش ببساطة، فكّر وقتئذ.

بينهما، مرسومة بالتراب، أحرف يونانية كآثار أقدام طير. وكيميا ترقب الردّ.

قال أحمد: "لم أكلّم مولانا. تعرفين، رأيتُه مرة واحدة".

"مرة واحدة! قلتَ إنه أخبركَ -".

فصحّح أحمد "قلتُ سمعته يتكلّم. كان بمعهده يتحدّث إلى جمع غفير، ثم...". سكت أحمد، ثم أضاف "كأنه يكلّمني بخاصّة".

أومأت "وما المعهد؟"

"مكان يتكلّم فيه الوعّاظ مع الناس للتعلّم".

"يلبس عباءته الزرقاء وعمامته الرمادية؟"

لهث أحمد. لا تكفّ الصغيرة عن إدهاشي. ففي قونية، وهو يسمع مولانا بالمعهد، كان يلبس عباءته العربية الزرقاء المصفوفة بالأزرار من الرقبة حتى القدم، وبرأسه عمامة رمادية.

سأل: "كيف عرفت؟"

"رأيتُ البارحة رجلاً؛ يلبس عباءة زرقاء وعمامة رمادية. عيناه زرقاوان في رماديّ. ابتسم لي وأخذني من يدي".

وظلاّ صامتين.

قال أحمد بعد وهلة: "محظوظة أنت. فقد ترينه يوماً. من يدري؟"

فتطلّعت في أحمد بالجدّية نفسها التي صدمته بها أول ما قابلها وأمها قرب فسقية القرية.

"نعم، سأراه".

وصدمه اليقين الهادئ في نطقها.

❖

حين فتحت آفدكيا الباب صباحاً، أحسّت بفورة جديدة في الهواء. للمرة الأولى من أسابيع لم تكن الشمس قد وصلت بعد سطح القمم الشرقية.

سيكون الأب كريستوم معنا قريباً، فكّرت. فالخريف موشك.

جمعت عدّة عصيّ من حزمة الحطب المكوّمة بجانب المنزل ثم دخلت لتجهّز أول وجبة بالنهار. عادت فكرة الكاهن العجوز لتنبيه قلقها عن كيميا. دروس أحمد تلك شيء طيب. فلم تشرُد كيميا مرة، وارتاح فاروق. لكنّ الصغيرة كانت أكثر نفوراً من أصحابها، ولا تزال تتسلّ بحالات ذهول تُرعب آفدكيا. تغيب أحياناً عدّة ثوانٍ، وبأوقات أخرى كأن الصغيرة لم تعد هناك، وجسمها مجرّد هيكل.

بعد الظهيرة، حيث كانتا تقطّعان البصل شرائح على شرفة السطح المستحمّة في نور ذهبيّ محمرّ من شمس ما بعد الظهر، غامرت آفدكيا: "ماذا يجري؟ أين يسرح خيالكِ وقتئذٍ وأنتِ تشردين عنا؟". وفوراً تأسّفت من سؤالها. في سكينة اللحظة بدا السؤال دخيلاً.

لكنّ كيميا لا تبالي. قالت: "لا أعرف"، وهي تُنحّي سكينها الصغيرة جانباً، وتُحدّق في شرود نحو الجبال "لا أكون بأيّ مكان. أقصد لا أكون هنا، لكني أيضاً لا أكون بأيّ مكان آخر"، وأحنقها أن تبذل جهداً للتعبير عن تجاربها "أحسّ أني وصلتُ، وأكون... كأني بالضبط في حلم! سعيدة لا ينقصني شيء".

"حلم!". كمعظم أصحابها، تظنّ آفدكيا أن الله يرسل أحلاماً للناس أحياناً ليرشدهم. وحلم كيميا قطعاً واحد من هذه الأحلام. "أيّ حلم؟ أخبريني".

"حلمي بلقاء مولانا".

كأن كيميا تتكلّم عن معارف قديمة، لكنّ مولانا يعني "سيدنا". سألت آفدكيا، مضلّلة "مَن؟"

"ذهب أحمد ليراه في قونية". وبرقت عينا كيميا من التحفّز.

في قونية! أمسك القلق بتلابيبها ثانية. ثم صرخَت "انظري ماذا جعلتني أفعل! لقد جرحتُ إصبعي. إنه حلم عظيم، لكنه لن يوفّر لنا وجبة".

لم تردّ كيميا. وحنقت آفدكيا مع نفسها. لقد فوّتت فرصة وكان هذا خطأها جزئياً. انسحبت الصغيرة بعيداً عن متناولها إلى لامبالاتها الهادئة المألوفة. أنهيتا مهمتهما صامتتين، ومسحتا أعينهما، وقد غار عليها رائحة البصل الحرّيفة.

❖

هلّ أول المطر، هلّ قرب جدول الماء فاستحال شجر الحور أصفر. آفدكيا تجلس على المقعد الحجريّ خارج المنزل، تعجن عصيدة قرع، آخر الموسم. تتعقّب من وقت لآخر في صمت أجرأ الدجاج وهو يرقب المزيد من الطعام. واصلت حوارها مع كيميا في نفسها. لا حاجة لمزيد من قلق زوجها. لكنها تتساءل عمن يكون هذا الرجل، (مولانا). وهل تواصل السماح لابنتها بالذهاب وتزجية الوقت مع أحمد؟ فهو يغذّيها بحكايات لن تجديها نفعاً. كأنه ينقصها أحلام لتملأ رأسها! ودارت أفكارها نحو الأب كريستوم. ربما عاد الآن. ماذا قد يتعهّد به؟

وصلتهم الأنباء بعد أيام. الوقت قُرب الظهيرة؛ فقد قصرت الظلال. كانت عائدة من جمع اللفت مع كيميا حين لمحت (كاف) في المدقّ

المفضي لمنزلهم. يسكن الولد قرية تبعد مسافة ساعتَي سير. كان وطاهر أصحاباً يذهبان معاً للصيد. فماذا أتى به إلى هنا؟ وقف (كاف) حين رآها، وبعد التحيات، بدلاً من أن يفرّ مبتعداً كعادته، حكّ يديه مُحرجاً بقفطانه وهو يحدّق في قدميه.

ألحّت عليه آفدكيا، وهي خائفة: "ماذا جرى؟ هناك أخبار سيئة؟"

فأومأ الولد. منذ أيام وُجِدَ الكاهن العجوز فاقد الوعي راقداً على سبيل يفضي إلى قرية (كاف). اكتشفتاه أم (كاف) وأخته. قال (كاف) "أخبرتنا أمي إنها وهي تضع أذنها على صدر الأب، وجدت قلبه يدقّ بسرعة، وتخرج أنفاسه متقطّعة، لكنْ حين صبّت على وجهه ماءً، فتح عينيه". وظلّ (كاف) صامتاً.

فاستحثّته آفدكيا "ثم؟"

"آه، ركضت أختي تطلب مساعدة. فجئتُ مع برهام وحسن، أولاد جيراننا. فهما أشدّ مني وأكبر". وفكّر (كاف) "وحملنا معاً الأب إلى منزلنا".

يبدو أنهم أعطوا الكاهن جرعة دواء عشبيّ وقضت أم (كاف) الليلة بجانبه. ثم قال (كاف): "لكنْ في الصباح، توقّف الأب كريستوم عن التنفّس".

تُنصت آفدكيا إليه وغَصّة في حلقها. تُحدّق في يديها، يديها اللتين ضمّهما الأب إلى يد زوجها فاروق ذلك اليوم في الكنيسة، منذ عشرين عاماً. فتسحّ دموعها على خدّيها. وهي تتساءل: "هل تعذّب الأب كريستوم؟"

ورداً على سؤالها، أضاف الولد: "حين دخلتُ الغرفة في الصباح وتطلّعت في الأب... كان على وجهه ابتسامة".

وجدوا بصرّة الكاهن كسرَة خبز ناشف، صليباً خشبياً قديماً، وقدحاً فضياً يستخدمه لتناول القدّاس، وقميصين. قال (كاف): "وهذا

أيضاً"، وأبان من قفطانه ورقة مجعّدة تمزّقت من زاوية، مكتوب عليها سطران بأحرف يونانية.

"ذلك المساء، وهو لا يزال في وعيه، سأل أمي أن تأخذها من كيسه، وقال مرتين (لكيميا، لكيميا). ثم، تقول أمي، أغمض عينيه ولم ينطق بعدها أبداً".

يسيرون ببطء وهم يتكلّمون حتى وصلوا أمام المنزل. سألت آفدكيا: "ماذا فعلتم في الجنازة؟"

"قاد إمامنا الصلاة، ونحن نردّد الترانيم المسيحية. ودفناه قرب الكنيسة".

هزّت آفدكيا رأسها. لم يحضر جنازته أيّ من الكهنة، فكّرت، ومن جديد نبعت في عينيها الدموع. لكنْ هكذا تجري الأمور هذه الأيام. يعرف الأب أنّ لا أحد سيخلُفه، وأن الكنيسة، ذات يوم، ستُهجر. حتى هي، في صلواتها، تخلط بين يسوع ومحمد. لا تزال طبعاً تسير لتُكلّم العذراء، لكنّ كمعظم نساء ورجال القرية، تحضر أيضاً صلاة الجمعة بمسجدهم المقام حديثاً. الماضي والجديد خيوط من صوف ملوّنة في نسيجي، فكّرت آفدكيا، فهل يتشكّل شيء في النهاية؟

عادت لنفسها. أمامها (كاف) يَعضُ شفتيه، غير موقن مما يجب عليه فعله تالياً. وبينما هي تمسح دموعها، شدّت شالها فوق شعرها، تلكز (كاف) نحو الباب. "ها، ادخل وتناول شيئاً. أتعبكَ المسيرُ".

تعبق الغرفة برائحة لبن رائب ودخان من نيران البارحة. وجدوا طاهر جالساً في ركن. دُهش لرؤيته (كاف). سأله: "ماذا تفعل هنا؟" فلم يردّ، ما أحنق طاهر. سأل، وهو يتطلّع في أمه "جرى شيء؟"

قالت آفدكيا: "لن نرى الأب كريستوم ثانية". خرجت كلماتها مؤلمة.

عندها دخلت أسيل بصينية عليها ستة أكواب شاي. أخذتها آفدكيا من يديها، وكأنها تريد أن تلقّى عذراً لتأخير الأنباء. بينما يوشك طاهر

على سؤالها، لمَ لن نرى الكاهن ثانية، ظهر فاروق بالباب. كان يصلح سقف الإسطبل تحت الشرفة، ونُشارة الخشب عالقة بقفطانه. نظر حوله، بينما تصبّ آفدكيا الشاي لم يتكلّم أحد.

سأل فاروق وهو يجلس: "ما الحكاية؟ تبدون جميعاً حزانى"، ثم لاحظ (كاف) "آه، أتيت بأنباء سيئة؟" وغصبَ مُزحَته بابتسامة.

قاطعته آفدكيا: "رحل الأب كريستوم. وجاء (كاف) يبلّغنا".

سأل فاروق: "رحل؟ إلى أين؟"

"تُوفّي الأب كريستوم، هكذا رحل!". وغَصّة حلقها تخنقها، فتحسّ بالدموع تحتشد ثانية. فتح فاروق فمه، ثم خلّل شعره بأصابعه كما يفعل حين يحزُبه ما لا يتوقّعه. خمّنت آفدكيا ما يدور بباله. آخر كلماته لصديقه القديم كانت كلّها غضباً، وقد تأخّر الوقت أن يسحبها. سلّمته كوب شاي، وهي تحاول الابتسام من بين الدموع.

سأل فاروق: "متى؟"

قالت: "الأسبوع الفائت. دفنوه بقرية (كاف)، قرب الكنيسة". ثم أرته الورقة التي أحضرها (كاف)، تضيف "ترك هذه لكيميا". ودارت نحو (كاف): "قل لفاروق ماذا حصل".

أنصت فاروق صامتاً، ثم تطلّع في كيميا الواقفة عند المدخل، وعيناها مثبتتان على الورقة. "كيميا، تعالي اجلسي. قد تخبرينا عما تعنيه".

هزّت رأسها. قالت: "نظرتُ. بعض الأحرف لم أرَها، وبعضها مكرّر مرات. فلا أعرف ما تعنيه".

قال فاروق: "لا عليكِ!"، ونظر إلى زوجه خجلان مرتاحاً. تعرف ما يدور بخلده، وهو ما تحسّ به: فلن تذهب بعد الآن إلى قونية.

كلّ عام يجلب المعجزة نفسها، من وقت لآخر. ينتفخ تفّاح البستان إلى فاكهة كاملة فيستحيل أحمر تقريباً.

أعلنت آفدكيا: "سنذهب غداً لقطاف التفاح"، وذلك بعد ليالٍ من زيارة (كاف). قطاف التفاح يحدّد آخر الصيف. هو إحدى علامات العام المهمة للصغار، ومثلهم، تتطلّع كيميا إليه.

يمتدّ البستان بطول جدول الماء، وأسفل الحدائق حيث تزرع القرية خضرواتها. يحمي البستان والحدائق من الريح، بالصف نفسه، شجر الحور الذي يحدّ القرية، حتى يصل المرء للغابة. يضم البستان أشجار تفاح أساساً مع ثلّة أشجار مشمش وخوخ، وهي قوية نظراً لتطرّف أجواء الجبال. علّقت آفدكيا مرة "الأشجار مثلنا. قوية وطيدة. تعرف كيف تتحمّل". في الربيع تختلط الأزهار في سيمفونية بأبيض ووردي.

انتشرت في الصباح مساحات قطنية واسعة تحت الشجر، فأحالت البستان إلى حقل ألوان براقة. تسلّق الصغار الأشجار وبدؤوا بقطاف الفاكهة، يسقطونها في السلال التي تحملها النساء. يثرثر الجميع ويضحكون، ويركض الصغار حولهم لالتقاط التفاح الذي تُفوّته السلال. لا توقن كيميا أيهما تفضّل، قطف التفاح من الأشجار، أم التقاط ما يقع على الأرض. لم يكن يعنيها شيء من هذا. ما تحبه أكثر هو الرائحة التي تغمر القرية أياماً حتى يتم تخزين معظم الفاكهة، بينما يُؤكل بعضها مطهواً أو مهروساً، أو يُقطّع شرائح ناعمة فيعلّق بخيوط ليُجفّف في حلقات حلوة الرائحة.

تقول آفدكيا في المساء نفسه: "وأنتما، كيميا وأسيل، خذا تفّاحاً لأحمد غداً".

يجلسون جميعاً بالشرفة، متعبين لكنْ راضين. الليلة صافية ولا يزال الموسم حاراً. تضيف: "متأكّدة أنه لم يأكل تفّاحاً كتفّاحنا في قونية".

قالت كيميا: "سآخذ ورقة الأب كريستوم. سيُبلغني أحمد عمّا لا أعرفه من أحرف".

هزّ فاروق رأسه معترضاً، وقبل أن يتفوّه بكلمة واحدة أوقفته آفدكيا عابسة. تقول عيناها: "دع المقادير على مآلها. فهي مجرّد ورقة".

قالت كيميا: "تعني الأحرف شيئاً. أنا متأكّدة أن الأب كريستوم سيُعيننا ويدلّنا".

ارتجفت آفدكيا. ربما لا يبعُد الكاهن العجوز على أيّ حال. رفع فاروق ناظريه مع آهة للنجوم. يا لخَرَف ما تحكيه النساء!

❖

أبطأت كيميا، لتتقدّمها أسيل. سلّتها ملأى كالعادة بقطع الجبن وطيات أرغفة الخبز، مع التفّاح اليوم، وبعض البصل والقرع. دفعت للوراء خُصل شعرها تحت الشال، ووقفت تنصت. تلاشت جلبة القرية. حولها الصمت حياً مع الهمس: تقصّف غصن قريب، طنين حشرات، وقع قدمَي أسيل يشحُب مبتعداً، وكما العادة سقسقة[1] الطير. يرافق ذلك كلّه أشكال نور متراقص وظلال. أغمضت عينيها ثانية، يشبعها حسٌ من الرضا قد تنامَى إلى فرحة لا تُحتمل.

بدا صوت أسيل على البعد قلقاً: "كيميا، كـ يمـ يا...". ففتحت عينيها وهي تلمح سنجاباً مشغولاً بدفن بُندقة في الأرض.

صاحت: "آتية"، وبدأت تغذّ الخطا ثانية، تحسّ أيضاً أنها تدفن شيئاً ثميناً بالغابة. لا تعلم عموماً ما هو.

❖

---

1 – سقسق الطائر: صوّت بصوت ضعيف.

تطلّع أحمد مندهشاً لرؤيته البنتَين "لم أتوقّع مجيئكما بهذه السرعة!".

لاحظت كيميا أنه يلبس سترته الخضراء القديمة التي أعطيتاه مؤخّراً، وقد ضاقت على فاروق.

قالت أسيل مفسِّرة "موسم التفاح. أرادت أمي أن تنال بعضاً منه".

لم تستطع كيميا الانتظار، فقالت: "عندي شيء أودّ أن أريكَ إياه"، وهي تفضّ طيّة ورقة الأب كريستوم، فتُسلمها لأحمد.

قال: "لنجلس أولاً"، وهو ينظّف الأرض بيديه. ولدى تناوله الورقة، نظر فيها لوهلة بتمعّن. ثم رفع رأسه: "مِنْ أين؟"، ينظر مذهولاً أو قَلقاً. يصعب التمييز.

وضّحت أسيل: "تركها الأب كريستوم لكيميا. قال هذه لها"، وتوقّفت. "قال هذا قبل وفاته مباشرة".

"ولا تعرفين ما تعنيه؟"

هزّت كيميا رأسها. "لا تشبه ما أعطانيه من أحرف لأنسخها".

"لا، طبعاً، فهي رسالة... موجّهة لكِ يا كيميا".

موجّهة لها! تذكّرت لمعة عينَي الأب كريستوم وهما يتكلّمان، وابتسامته المتعبة آخر مرة زارهم بالقرية.

خلّل أحمد أصابعه بلحيته: "كيميا، عندك فكرة عما يقوله الأب في رسالته؟"

هزّت رأسها ثانية. "لا علم لي. أظنه يريدني أن أستزيد علماً".

قال أحمد: "صحيح. يريدك أن تدرسي، يريد منكِ الذهاب إلى قونية".

فلم تَحِر البنتان جواباً. وأحمد ينظر مدهوشاً في رسالة الكاهن العجوز.

سألت كيميا بعد وهلة: "هذا كلّ شيء؟"

فضّ أحمد الورقة ثانية "ليس بالضبط. فهو يقول: إن الأخت أندريه من دير القديس بطرس ستساعدك".

قونية! الأخت أندريه! دير القديس بطرس! تدور الكلمات في عقل كيميا، ثم تهتف: "لكني لا أريد الذهاب إلى قونية!". لا تتصوّر الحياة بعيداً عن القرية. فما شكل المدينة؟ هل هناك غابة قريبة حيث يمكن للمرء الاختباء فيها؟ هل هناك جداول ماء تُبرد المرء صيفاً؟ وماذا عن أبيها وأمها! كيف تتركهما؟ نظرت فجأة مقطوعة النفَس إلى أحمد والرعب يكاد يقتلها.

سأل أحمد: "ألا تريدين الذهاب إلى قونية؟"

روّعها صوت أحمد. تذكُر القباب والمآذن في حلمها، ذو العباءة الزرقاء يمسك يدها، والأكثر من ذلك فرحتها وحسّ الانتماء الذي شعرت به حينذاك.

قال أحمد هادئاً: "ألا تعرفين؟ هناك ما ينتظرك في قونية؟ هذا الشيء يتعلّق بمولانا؛ أنا موقن منه". سكت برهة، وقد لان وجهه ثم أضاف هادئاً: "لا تخافي. فكلّ شيء سيجري حسبما قُدِّر له".

كلمات أحمد بلسم. يتطلّع في عينيها عميقاً. فيخور خوفها، مُستبدَلاً بهدوء عظيم تحسّ به يطوّقهم ثلاثتهم. قد لا يتقرّر شيء، عموماً. فالحياة تسوقكَ، وأنتَ تنساق معها دائماً.

جاء صوت أحمد جاداً: "كيميا، عليكِ بتبليغ والديكِ". فظلاّ صامتَين للوهلة الأولى حتى هزّ أحمد نفسه للخروج من أفكاره. "دعيني أريكِ ما لا تعرفين من أحرف، وكيف نكوّن منها كلمات".

وتميل أسيل، هذه المرة، فوق العلامات الغريبة التي يرسمها أحمد على الأرض. إذن هذا ما تفعله الكتابة! تسمح للمرء بالحديث إليكَ، حتى بعد موته! رأت أختها وهي تردّد صوت كلّ حرف وراء أحمد، فاستحال توتّرها المعتاد من كيميا إلى حزن.

"كيميا، ألن تذهبي إلى قونية؟"

رفع أحمد ناظريه. كانت أسيل تبكي، فوضع يده على ذراعها. قال: "يشاء الله أحياناً ما نظنّ أننا لا نريد".

دفعته غاضبة عنها.

تهزُّ كيميا يديها. فماذا شاء الله؟ هل شاء لها الذهاب إلى قونية؟ حفّت هبة ريح مفاجئة أشجار الصنوبر من حولهم.

قال "لنصلِّ"، وبدأ بالتلاوة "بسم الله الرحمن الرحيم...". تعرف البنتان الصلاة. هي الكلمات التي يتلوها الإمام حين يبدأ صلاة الجمعة. يرفعون أيديهم طلباً للرحمة، ثم يسجدون جميعاً. "لا إله إلا الله". يمسحون أوجههم بالرحمة التي تملأ الآن أيديهم. ثم انتهت الصلاة وباشر أحمد بتفريغ السلال.

قال ثانية: "عليك بتبليغ والديك".

نظرت أسيل إليه عابسة. قالت: "لن يدعها أبي تذهب. لن". في صوتها خوف كما فيه صرامة.

قال أحمد: "ليس بعد. مشيئة الله أفضل. وليس ثمة ما نفعله إزاءها".

❖

"لن تذهب كيميا إلى قونية! لن تذهب!"، يذرع فاروق الغرفة ذهاباً إياباً، وقد احمرّ وجهه غضباً وهو يُطبق قبضتيه.

حول وجبة المساء ظلّت العائلة صامتة، بينما بدأت العتمة تغمر الغرفة في بطء فالشمس تُغطِّسُ وراء الجبال.

حطّمت آفدكيا الصمت "تُكلّم الإمام؛ فهو صديق الأب و–".

قاطع فاروق: "لن أذهب للكلام مع أحد. لن أذهب". وكلّ كيانه يصرخ لا.

نظرت آفدكيا إلى زوجها تتأوّه: "اجلس يا فاروق، أزَغتَ عيني".

كفّ فاروق عن ذرع الغرفة، نظر إلى زوجه وهو يحاول أن يقدّر بباله إن كان الجلوس هو بداية تنازل خَطِر. قرّر أنه لن يكون، فجلس بين ابنه وزوجه.

سأل: "كيف فعلها؟" . على ما يبدو يكلّم نفسه، فلم يغامر أحد بطرح ردّ. استمرّ "هذا غدر"، وهو يخاطب زوجه هذه المرة.

قَسَمَت آفدكيا لقمة بهدوء، طوتها تمسح بها بقايا الفول من قاع الصحن. تومئ نحو الصينية. تأمر "كيميا، أسيل، نظّفا المكان، واذهبا لحلب البقرة. طاهر، وأنتَ اذهب لجمع علف الماعز". وانتظرت حتى غادر ثلاثتهم.

قالت: "والآن، نتكلّم". تريح الوسادة بينهما. تسأله: "ماذا تقصد بكلمة غدر؟"

كان فاروق يشرب شايه والحنق بادٍ على وجهه. "يترك رسالة كهذه! الوصية الأخيرة". كأنه يَحتَقر مشمئزاً. قال غاضباً: "تُوفّي. فكيف نجادله؟ كم يكون غدر المرء؟ وهي تعرف الآن، أدخل في عقلها ...".

قالت آفدكيا "شش، ألم تشعِ الحكاية. منذ بلّغكَ الأب في الصيف، ونحن نفكّر. آه، وقد شاعت الآن، أظنه أفضل هكذا".

حكّ فاروق رأسه. نعم، صارت معلومة عامة. ستكلّم النساء رجالهن فيصبح لدى كلٍ واحد مادّة للكلام مع أو ضدّ رحيل كيميا، ويحسّ كلٌ منهم أنه مخوّلٌ للنصح. تأوّه؛ فوطأة صدره أثقل مما يحتمل.

وضعت آفدكيا يدها على ذراعه. "تقول كيميا: إن الأب كريستوم ترك اسم راهبة مسيحية، الأخت أندريه، لتقوم على رعايتها في قونية".

لم يبدُ على فاروق أنه يسمع، غطّى وجهه فجأة بيديه، وبدأ يهزّ كتفيه بنوبات نشيج غير قابلة للتحكّم. تمتم "لن أدعها تذهب. لا أستطيع. إنها نوري...". ويئنّ جسمه الآن مرتجفاً كمن تكسحه عاصفة.

لم ترَ آفدكيا زوجها هكذا من قبل، ولا حتى حين دمّر المطر المحاصيل. انتظرت. وأعاده نهيق حمار بعيد إلى وعيه. نشيج فاروق قد

تخفّف. كشف وجهه ونظر عاجزاً إلى آفدكيا، والدمع يهطل مدرار على خدّيه. بدأت هي تبكي كذلك. لا يعرف فاروق بعد، فكّرت، لكنّ عليه التوصّل إلى قرار رغم أنفه. ستذهب كيميا للعلم في قونية.

"فاروق"، ربّتت آفدكيا يد زوجها "تعرف أنها ستجيء على الدوام".

هزّ رأسه، يُحدّق بالسجّادة "لن تجيء إن رحلت. فلا انتماء لديها إلى هنا".

هكذا عبّر أخيراً عما يخشيانه ويعرفانه، من دون أن يعترف أحد للآخر! تعتم الغرفة الآن بوهج محمرّ من جمرات الموقد. تقول بنعومة: "ألا نعرف ذلك دائماً؟"

فأومأ يُعجزه الكلام، ووجهه لا يزال ندياً بالدموع. ظلاّ ضائعين في فكريهما حتى سمعت آفدكيا صوت الباب.

"الدنيا برد بالخارج". تحمل أسيل حزمة أغصان جافّة. تضعها بجانب المدفأة وهي تفرك يديها حين انحنت لإذكاء النار.

قالت آفدكيا: "سيهلّ الشتاء"، وبمجيء الشتاء، تفكّر كالمعتاد في ذلك المسافر الذي حلّ منذ ثمانية أعوام. كان على حقّ: فالوليد الذي تحمله كان بنتاً، وكان عليهم أن يمتثلوا لطاعته فيطلقون عليه اسم كيميا. فماذا جرى له؟ ألسنة اللهب في الموقد تلحس الجدران. دارت نحو فاروق. قالت: "ستذهب كيميا بالربيع، فلمَ العجلة؟"

لم يردّ فاروق.

❖

ذاعت الأنباء بالقرية. عند وصول أحمد منذ قرابة ستة أشهر، لم يجرِ ما يثير، لكنّ هلّت الأنباء: ستذهب كيميا للعلم في قونية بسبب ما خربشه الأب كريستوم بورقة. بلّغت أسيل أقرب أصحابها، ميسر، فبلّغت أمها، وهي بلّغت زوجها. ووثقت آفدكيا في ماريه، صاحبتها من الطفولة، وهي الأخرى أم لخمسة أولاد.

سألت آفدكيا: "وماذا نفعل؟". كانت امرأتان تغسلان الملابس قرب الفسقية، ملتفّتين كالعادة بسحب البخار. "تعرفين، لكيميا وسائل خاصة"، واصلت "لكنّ منذ بدأ أحمد يعلّمها، لم تشرُد مرة"، تكلّم آفدكيا نفسها تقريباً "فهي تحبّ التحصيل، لا شكّ. لكنّ فاروق منزعج...".

نهضت ماريه تمسح كفّيها بقفطانها. قالت "الأب كريستوم حكيم"، وتضيف: "ثقي به... وثقي بالله".

دفعت آفدكيا خُصلة شعر عن عينيها، وبدأت تضرب كومة الملابس التي أمامها بغضب. ماريه امرأة طيبة، لكنها لا ترسل أياً من أولادها بعيداً.

❖

لم يتّفق الجميع على ضرورة ذهاب كيميا.

قالت صفية لأمها: "لن أسمح لكيميا بالذهاب إلى قونية، لو كنتُ محلها". تقلّب قدر الحساء المغلي وهي تُقحم ثديها بين شفتَي ابنها الأخير، وهو يرفضه، ثم يصرخ مُحبَطاً. واصلت "فماذا أفعل في عمري حين أكبر؟ إننا نحتاج إلى ما نحصل عليه من عون حين نكبر".

وافقتها أمها عائشة "صحيح. وماذا يفيد تحصيلها؟". وازدرت العجوز معترضة: "لن يرغب أحد في الزواج منها. فعقل المرأة الكبير لا يُجدي لها نفعاً".

دخل زوج صفية تواً الغرفة، فشدّه النقاش "وماذا يقول الإمام؟"

ردّت صفية: "يقول: إن الأب كريستوم على حقّ، ويجب أن يكفّ الناس عن الكلام ويستبدلوه بالصلاة".

"طيب، عليه أن يعرف طالما تهتمّ النساء، فليس الصمت أفضل".

ضحكت صفية وهي تُسلّمه الولد، لا يزال يبكي. "كيميا طفلة غريبة، هذا ما نقوله دائماً. يسعدني أن أولادي كأولاد الآخرين".

جاء الشتاء على حين غرّة. البارحة كانوا جالسين على شرفة السطح يرتشفون الشاي حول النار، وهذا الصباح غطّت طبقة ناعمة من الجليد القرية والسفوح المحيطة.

اشتكت آفدكيا "نحن مازلنا في نوفمبر. فماذا سيجري للفول والقرع؟"

كما قلق فاروق من الجليد: "عليّ أن أستطلع الكروم؛ فلم أنته من تشذيبها بعد". ثم دمدم مع نفسه، عليّ بالبدء مبكّراً. تريّثتُ طويلاً هذا العام. تجرّع شايه مرة واحدة مندفعاً نحو الباب: "طاهر، هيا، لدينا ما نفعله".

صاحت آفدكيا: "لن تذهب هكذا، من دون معطفكَ، هه؟"

كان يرتجف وقد اتّخذ طريقه، حين بلغت الباب بمعطفه الجوخ. وقفت عند المدخل تراقب شكلَي فاروق وطاهر الغامضين يختفيان في الثلج، وقد لطّخهما الضباب.

تمتمت لنفسها وهي تدلف العتبة: "يظنّ نفسه صغيراً". علّقت المعطف وشدّت من شالها حول كتفيها. قالت بصوت عالٍ: "الدنيا برد"، لِمَ لا يصدّق. وبقي بالها في رقعة الخضروات.

"أسيل، كيميا، لنذهب لقطف الفول وجمع القرع قبل التلف".

❖

كان أول الظهيرة حين عاد فاروق وطاهر.

وبّختهما آفدكيا "لم تضعا طعاماً ببطنكما من البارحة. وليس هذا في مصلحتكما". بدا فاروق مُجهَداً. لاحظت منخريه الذاويين وكيف فرغ الدم من وجهه. جلده أشبه بلون العظام.

انهار على الوسائد، وهو يمسح جبهته. قال: "وصلنا في الوقت المناسب".

العنب أحد مصادر دخلهم الشحيحة، ولا يتحمّلون خسارة المحصول. فكلّ عام عند نهاية الصيف يحمل شبان القرية السلال ملأى بالعنب للمدن القريبة، ليرنده وقونية. يخرجون مع الفجر، ماضين من قرية لأخرى يلمّون الشباب مع عنبهم، حتى ينضمّوا في جلبة مغبّرة من البغال والحمير. وكلّ عام يتكرّر الأمر نفسه: تسأله أسيل "طاهر، ماذا ستجلب لي معكَ؟"

وتغرّد كيميا: "وأنا، وأنا؟ أحضر لي أسوارة".

تقول آفدكيا: "لا تنسَ شراء سكّين. فسكيننا انكسرت؛ وإن وجدتَ إبريقاً جيداً، قوياً، هه، -".

فيصيح طاهر: "كفى، كفى. وماذا لو لم أبِعْ عنبي؟"

قال فاروق مبتسماً: "إن لم تَبِع عنبكَ، فالأفضل ألاّ ترينا وجهكَ هنا". يعرفون أنه لا مخاطرة في ألاّ يبيع طاهر عنبه. صحيح، إن معظم أهل المدن يزرعون فاكهتهم وخضرواتهم، لكنّ هناك مسافرون كُثر وقادمون كُثر لا يملكون أرضاً، وعنبهم النامي بالسفوح تحت الطلب دائماً.

لكنّ عنب اليوم وبيعه أبعد ما يكون عن أفكار آفدكيا. فهي تمحّص زوجها، قلقة. كان منبطحاً على الوسائد، يرتجف من البرد والتعب.

قالت: "عجوز أحمق عنيد"، واستحال توتّرها همّاً. فخرجت من الغرفة لتعود محمّلة ببطانية ثقيلة في يد وآنية مرق حارّ في الأخرى. تمتمت: "اقترب من الموقد"، ولفّت حول كتفَيه البطانية. أضافت: "خُذ هذا"، وتُسلمه آنية المرق. "طاهر، اذهب واخدم نفسكَ".

جلست بجانب فاروق، وهو يشرب المرق صامتاً. سألته: "لن تمرض، هه؟"، لتطمئن نفسها غالباً.

سلّمها الآنية فارغة، كان قد شربها دفعة واحدة، وأغمض عينيه. ردّد: "سأكون بخير، فلا تقلقي. سأكون بخير"، ويضيف لا إرادياً: "أنا تعبان جداً". وغطّ، بعد دقائق، في النوم.

استيقظ في الصباح الباكر، كانت حرارته عالية، لبث بالفراش. تناوب آفدكيا وأسيل إلى جانبه لوضع كمادات باردة على جبينه، ومع آخر النهار صار يهذي، يخرخر بكلمات لا تفهمها آفدكيا. فقرّرت الذهاب في الصباح الباكر لطلب العون من سيرينا العجوز.

❖

تعيش سيرينا العجوز وحدها على تخوم القرية، وهي الوحيدة التي نجت من هجمة عصبة جنود مرّت منذ سنين على القرية التي ولدت فيها وتزوّجت، أبادوها بمن فيها زوجها وأربعة أولاد. يوم وصول الجنود، بعد الفجر، كانت تجول في التلال بحثاً كعادتها عن أعشاب طبية. سمعت صراخاً، ورأت دخاناً يَصّاعَدُ من بعيد، لكنّ حين عادت لم تجد غير صمت مريع يحوّم فوق خرابات دخان يبقّعها الدم. لاقت سيرينا الملاذ بقرية آفدكيا، حيث تتفادى، بفضل بُعدها، مرور الغزاة عبر السنين. مُنحت بيتاً، كوخاً بأكثر من مطرح، وشاركت أهل القرية طعامهم، حتى زرعت ما يقوتُها وربّت عدداً من الفراخ. تقضي معظم وقتها في قطاف الفواكه والأعشاب وصنع جرعات لاذعة تُشفي، كما تقول، معظم العلل التي يعاني منها أهل القرية. لا تتكلّم عن ماضيها، وتختلط مشاعر الناس نحوها. كانت رُقاها الغريبة الهامسة بها عند تحضير وتدبير جرعاتها ومراهمها تُرعبهم، فيأتونها فقط للنجاة من اليأس. سُمع الإمام يتمتم بأنه إذا كان عند الناس إيمان، لما ذهبوا وطلبوا من تلك الساحرة العجوز شفاء.

قال: "الله وحده المستعان"، غاضباً من الطريقة التي ينسلّ بها الناس عائدين إلى تلك الممارسات الوثنية القديمة. كما سمعت آفدكيا سُخطاً

من الأب كريستوم أن نداء الأرواح لجلب علاجات وتخصيب نساء ليس أكثر من خرافة. قال: "عقائد أزمان الوثنية القديمة أبواب يسري منها الشيطان". لا تذهب سيرينا إلى مسجد أو كنيسة. وهي بالتحديد دخيلة، على الرغم من كونها تعيش بالقرية منذ سنين. وبغضّ النظر عن المخاوف، فلا تنفكّ آفدكيا ومعظم أصحابها يعتقدن أنه كلّما نال المرء عوناً، كان أفضل. فإذا كان الله مُحباً ورحيماً (كما يقول كلٌّ من الكاهن والإمام)، فلا يضيره قطعاً سعي الناس لنيل معونة إضافية من أرواح طيبة، أياً كانت.

بالخارج رذاذ بارد، جعلها تغذّ السير وهي تشدّ عليها شالها. دفعت باب سيرينا، كانت مائلة على هاون، منهمكة في سَحن بعض البذور. كل ما حولها مملوء بأوانٍ وأباريق من كلّ حجم وشكل. وعلى النار مزيج داكن كثيف يغلي، فيفعم الهواء برائحة حرّيفة.

قالت سيرينا: "أمهليني حتى أنتهي"، من دون أن تنظر إليها.

تلبس قفطاناً من لون حائل، نصفه بنيّ ونصفه رماديّ، مهدّب من أطرافه. شال على رأسها منزلق، فيكشف عن خُصل شَعر رماديّ ملفلف ملبّد. جلست آفدكيا على مقعد عالٍ ترقّب. لا تحسّ بخوف. فليست سيرينا امرأة شريرة، قالت لنفسها. وهي تقدّم عوناً أحياناً.

قالت سيرينا: "خلاص". وضعت الهاون الصغير ومسحت يديها في خرقة، ثم دارت نحو آفدكيا. هتفت "آه أنت! كيف حال العائلة؟ بناتك، وابنك الوسيم؟ كلّي أمل أن لم يلحق بهم أذىً، هه؟". ترحّب على غير العادة.

قالت آفدكيا: "لا. لا، الحمد الله، كلهم بصحة جيدة".

فتجرأت سيرينا "تغيُّر العمر في المرأة؟"

قالت آفدكيا ثانية: "لا، لا. فاروق. قلقة عليه جداً".

ضاقت عينا سيرينا: "ماذا جرى؟ هبوط؟"

قالت آفدكيا: "لا ليس هبوطاً. بل عاد منذ يومين من عمله بالكروم. لم يلبس سترته، وظلّ البارحة طريحاً دائخاً، وهو الآن يهذي في فراشه و...". لم تُكمل جملتها، كانت تعصر يديها.

تمتمت سيرينا لنفسها: "همم، نزلة برد". ونظرت صارمة إلى آفدكيا. "لم تخبريني كلّ شيء؛ فهو قلق من شيء ما. فما هو؟"

"آه، لم تُشذّب الكروم، والبرد أتى باكراً".

نفضت سيرينا كلمات آفدكيا فأشاحت بيدها في توتّر. قالت: "ليس هوا أقصد، قلق من شيء بالعائلة، هه؟"، وانتظرت، عيناها الآن نصف مغمضتَين.

تحسّ آفدكيا بشرٍ وشيك وئيد. قد يكون الأب كريستوم والإمام على حقّ. قد تكون سيرينا ساحرة هرمة، تعقد صفقة مع الشيطان، ولا تُؤتمن. فكّرت، لم يكن عليّ أن آتي.

قالت سيرينا: "آفدكيا، لو أردت مني عوناً، فيجب أن أعلم القصة كاملة. لا فائدة من إبلاغي نصفها".

أحسّت آفدكيا أنها طفل توبّخه أمه. فاعترفت "فاروق قلق على كيميا..."، توقّفت، ثم أضافت: "لكنْ لا علاقة تربطه بنزلة البرد...".

وافقت سيرينا: "تت تت، قد قد، لكنّ له علاقة كبيرة بشفائه منها".

عادت آفدكيا للجلوس، مضطرّة للاعتراف بحقيقة ما تقوله سيرينا. صحيح أنه منذ أن قرّروا إرسال كيميا للعلم في قونية، لا يفيق فاروق بسرعة في الصباح كالمعتاد. خطوته فقدت نبضها، وصار عصيّ المراس، وخاصّة حين تذكُر كيميا دروسها مع أحمد.

انفجر ذات مساء: "كلّه هراء! هل سيعينك في الطبخ أو حلب الماعزة؟"، وليلاً يندفع للخروج فيعود بعد ساعات.

تقول سيرينا: "سمعتُ أن كيميا ستذهب قريباً إلى قونية"، وتضيف: "هذا رائع، كما تعرفين" ما أدهش آفدكيا. واصلت سيرينا: "لكن على

فاروق تقبّل ذهابها من قلبه". وتطلّعت في آفدكيا بنظر ثاقب، قالت: "وإلا فسيقتله هذا".

ارتجفت آفدكيا. فكّرت، كلمات سيرينا باردة حادّة؛ كشفرة مدية. وثقبتا قلب قلقها عن فاروق وكيميا.

أخذت سيرينا بفظاظة إبريقاً من الرفوف المحيطة بها، وصبّت منه سائلاً بنياً في دورق صغير، سلّمته إلى آفدكيا. قالت في بيان واقع: "أعطيه مرتين يومياً، فسيطيّبه". توقّفت ثانية ثم واصلت: "لكنّ عليه أن يدعها تذهب، أتفهمين. ليس الحبّ هو الاحتفاظ بمن نحبّ حولنا". وكانت شفتاها حازمتَين وهي تُحدّق لبعيد.

وقفت آفدكيا، لا تجد ما تقوله.

واصلت سيرينا: "الحبّ رابطة بين الناس تجعلهم يزدهرون. وليتمّ ازدهار كامل، علينا تمتين الرابطة على الدوام"، اتّخذ وجهها تعبيراً وهّاجاً صخرياً "غرض الحبّ أن يأخذنا ما وراء عَالَم الفصل. ولا تُجديه السعادة هنا".

تتكلّم بيقين مفعم بطاقة وعيد. كلّ ما تودّ آفدكيا فعله الآن أن تخرج. فوضعت ما أتت به من تفّاح وعسل على الرفّ. قالت وهي تفتح الباب "أشكرك، ليعيننا الله".

لكنّ سيرينا راحت ما وراء السمع.

ارتاحت للهواء المنعش بعد جوّ مطرح سيرينا الحرّيف الفاسد. سارت لترجع في عجلة، ممسكة بالدورق الصغير في يدها. ماذا قالت سيرينا؟ عن الحبّ والروابط التي يلزم تمتينها. غذّت سيرها، تحاول صرف كلمات سيرينا من بالها. قد يُجدي الدواء، هكذا قالت سيرينا. أما الباقي، فيُستحسن أن تنساه.

- ١١ -

قالت ناعمة، وهي تميل على فراشه: "بابا، هذا شاي لكَ".

الغرفة معتمة، والنافذة مغطّاة بقماشة. فيها رائحة المرض. كان راقداً تحت بطانية بنية ثقيلة، ورأسه مسنود بعدد من الوسائد. بدا فاروق نائماً، مع أن كيميا سمعته يكحّ من دقائق. قالت: "تريد شيئاً؟"، وهي تُدني كوب الشاي من شفتيه.

فتح عينيه ولوهلة لم يبدُ أنه تعرّف إليها. ثم نوّر وجهه. تمتم: "آه، أنت كيميا، لم تذهبي بعد". ونحّى كوبه. بدا مندهشاً ومرتاحاً.

قالت بحزم: "لن أذهب قبل أن تتحسّن".

فبدأ يكحّ ثانية، وهي تنتظر.

قال، بعد أن أفاق: "تعرفين. لن أمنعك من الذهاب".

"أعرف بابا، لكن ليس قبل أن تتحسّنَ".

رفع فاروق رأسه طفيفاً. قال: "سينفطر قلبي بذهابك"، والدمع في عينيه.

وقفت منزعجة: "بابا، لو انفطر قلبكَ فسينفطر قلبي أيضاً؛ ولن أذهب، لكنّ...". تحاول أن تجد كلمات سديدة. تحمّست: "لكنّ لا تفطُر قلبينا. لا يجوز".

خلّى فاروق نفسه يتداعى إلى وسائده. تمتم: "كيميا"، ودموعه تسحّ الآن فوق خدّيه: "كيميا، لماذا؟ لماذا؟"

فمالت عليه ثانية تُدني الكوب الصغير من شفتيه. قالت: "بابا، لا تبكِ"، وهي تمسح وجهه بقماشة: "وأنا حزينة، لكنّ علينا ألا نفطُر قلبينا، حتى لو صعُب الأمر. لا يجوز".

أمسك يدها يُحدّق فيها. جميلة، رابطة الجأش. تشعّ منها قوة شفاء هادئ، وللحظة أحسّ أنها أكبر منه. فأغمض عينيه يردّد كلماتها

الأخيرة. قال "لا يجوز. نعم. أنتِ على حقّ... لكنه صعب". تطفو الذكريات القديمة: تلتفّ عواصف الشتاء في أيام الصيف الذهبية، ووالد آفدكيا يبتسم إليه، نور شمعة على وجه ابنه الوليد. يتمتم "الحياة الحياة". تؤكّد ذلك برودة اليد على جبينه، نعم، فالحياة من عديد ألوان، كلّها تحيا إلى الثمالة. تركت اليد جبينه، فسمع وقع أقدام متبوعة بصرير باب، وصمت تام. في الصمت جاءه، مهما كلّف الأمر من ألم، فسيدع كيميا ترحل عن القرية. قد تخلّى عنه منذ شهور حسّ بالخير كان يطويه، فراح يغرق في سكينة عميقة ليست سعادة ولا حزناً، بل أشبه ببلسم على جرح.

❖

استغرق منه أياماً لتنسحب الحمّى وتكفّ الكحّة. حين خرج من البيت، بعد أسبوع، كانت ساقاه ترتجفان. صار فاروق أنحف، لكنّ لمعة عينيه بقيت، ويسير بعزمه القديم. فكّرت آفدكيا، ليست فكرة سيئة على أيّ حال، أن يطلب عوناً من سيرينا. لم يعد هناك ذكر لكيميا وذهابها إلى قونية، حتى وجدت فاروق صباحاً أمام البيت يفحص حوافر الحمار.

قال، قبل أن تسأل: "أتأكّد أنها تتحمّل رحلة قونية". فحدّقت فيه بغباء. أضاف: "رحلة كيميا".

"تقصد أنها ذاهبة الآن؟"

فمال فاروق على حوافر الحمار، متفادياً عينيها: "ولِمَ الانتظار؟ ما دمنا اتّخذنا القرار، فيجب تنفيذه".

كان الحمار يرفس ملولاً، فخلاّه فاروق يتحرّك نحو حزمة أعشاب على بُعد أقدام. دار نحو زوجه، قال: "سأذهب معها وأتأكّد أنها بين أيدٍ أمينة".

لا يزال تحذير سيرينا يرنُ بأذنيها: "على فاروق تقبّل ذهاب كيميا؛ وإلا فسيقتله هذا". إذن، تقبّل فاروق. عاد للوقوف على قدميه، وستذهب كيميا. فكّرت آفدكيا، هناك ثمن علينا دفعه دائماً. ولم تجد المزيد لقوله.

بعد تجهيز وجبة المساء، ذهبت للكنيسة. كانت مُظلمة ما عدا شمعة وحيدة تحترق على المذبح الذي تعرفه جيداً، المذبح المكرّس للعذراء. من يا تُرى أضاء هذه الشمعة؟ تساءلت. يذهب القليل للكنيسة هذه الأيام! ركعت أمام العذراء، تصلّي: "آه. امنحيني القوّة، أرجوك". وحين نهضت، تستطيع أن تُقسم أن لوحة الجدار كانت تبتسم لها.

❖

ذات صباح بأواخر نوفمبر رحلوا، بعد الفجر بقليل. ركبت كيميا على الحمار، حولها صُرر الطعام والملابس التي جهّزتها آفدكيا الليلة السابقة. وقفت آفدكيا عند الباب، ودمع وجهها منهلّ. ثم دارت فجأة، تبتعد: "انتظري. سأعطيك شيئاً". واختفت داخل المنزل، ثم عادت بعد ثوانٍ تمسك بيدها قطعة خشب محفورة، صغيرة. ناولتها كيميا: "هي لك، تحميك مريم".

كانت لوحات ثلاث خشبية صغيرة موصولة معاً بمفصّلات، تفتح الصغريان على لوحة العذراء وابنها بخلفية من ذهب. على كلّ جانب يقف ملاكان. ونلحظ للعذراء وآفدكيا النظرة نفسها، قوة هادئة مُشبَعة برقّةٍ. لكنّ العذراء لا تبكي؛ بل تبتسم.

قالت كيميا: "سنكون بخير". تعرف آفدكيا أنها تقصد "أنت وأنا سنكون بخير".

فأومأت لتبيّن أنها فهمت، ثم نظرت إلى فاروق، قالت حانقة: "فيمَ تنتظر؟ امضِ".

ريثما بدأ الحمار يتحرك، مع مشية فاروق أمامه يشدّ اللجام، كرّت كيميا بصرها لمرة أخيرة. لم تبدُ آفدكيا غاضبة؛ فقط تمسح الدموع من وجهها.

❖

من بين هذه الرحلة تذكُر كيميا صوت الأحجار المتدحرجة تحت حوافر الحمار، جفول طائر فجأة أزعجه مرورهم، المشهد البادي متحولاً على نفسه، سلسلة جبلية إثر سلسلة جبلية، النور المتلاعب بين الأشجار، يتغيّر كلّما يتلبّسه النهار.

قضّيا أولى لياليهما مع عائلات في قرى مختلفة على الطريق. ذات مكان، تضع امرأة طفلاً صغيراً بين ذراعيها. نظرت إلى الوجه الصغير وهلة، وتساءلت: هل يحلم الصغار بالنجوم أو الملائكة، أم ببساطة بأثداء أمهاتهم؟ اتّسع المدقّ ثاني يوم إلى سبيل أكبر؛ خلّفا وراءهما الجبال مدلفين إلى مشهد منبسط حيث تُفسح صخور وشجيرات المجال لزراعة حقول وبساتين. تخبّ جنبهما حمير أخرى، كما تقعقع عربات تجرّها بغال وجياد. هناك أيضاً ناس على الأقدام. بعدُ، لاحت بيوت خشبية على الطريق.

بدت أخيراً، فيما بعد الظهيرة، تخوم القباب والمآذن على مبعدة. لم تصدّق عينيها: "بابا، انظر. وصلنا". كان المشهد الذي رأته بحلمها. والفرحة التي بلغتها في الحلم تغمر الآن قلبها. هذا بيت، قالت لنفسها. كم هو غريب! مع إنه حقيقة.

على الطريق بساتين تنفسح إلى حدائق. وجدا نفسيهما أمام جدران المدينة بميدان كبير، نصفه مغطّى بخيام ملونة بكلّ درجات اللون البنيّ. داخلها وخارجها، حركة دؤوبة، يخرج نهر من رجال ونساء وأولاد. بالمسافة الخالية من الخيام، يتسابق شبان على خيل في اندفاعات عَدْو مسعور.

دخلا المدينة، مع مئات من البشر الآخرين، عبر بوابة حجرية محفورة ضخمة، يعلوها برج كبير. ضجّة تصم الآذان، والهواء ملبّد

بغمام من غبار يرقى من وطء أقدام كثيرة. في الحشد لمحت كيميا ولداً لا يكبرها كثيراً، يبيع فطائر مربّعة ببذور السمسم.

❖

مرت سنين منذ كان فاروق في قونية، ولم يتغيّر شيء. نما السوق بجانب المدينة الغربيّ، لكنّ الحواري الضيّقة وصفوف المحالّ كما هي، يجلس أصحاب المحال عند أعتابها مستعدين لسحب الزبائن للداخل. سارا عبر الحواري. بإحداها، تشمّ رائحة الجلد، لا شيء إلا أحذية وأكياس من كلّ مقاس ولون معروضة بالجانبين؛ وأخرى تملؤها قعقعة مطارق، بصائغي ذهب وفضة كلّ على سندان. واصل فاروق سيره. عبرا بحارة تصطفّ عليها محالّ جواهر، فتحدّق كيميا في المعروضات البرّاقة. بينما فاروق لا يتوقّف. ثم مرّا بحارة تُعرض فيها المنسوجات والأقمشة بمنظومة ألوان، وبزغا أخيراً في ميدان صغير تتصفّه فسقية. ميدان محوط بمحالّ طافحة بأكياس مساحيق صفراء خضراء حمراء، وبقطع لحم معلّقة بخطاطيف.

قال فاروق: "لنر إن كان حاقان هنا"، وتوجّه نحو أحد المحالّ.

كان حاقان جالساً بالعتبة، تحوطه أكياس حبوب. على رأسه طاقية حمراء صغيرة، وكمعظم أهل قونية، يفرق شَعره من المنتصف. "غريبة!" قال مبتسماً لدى رؤيته صديقه القديم: "ماذا أتى بكَ إلى هنا؟، ومن الصغيرة؟"

قال فاروق "كيميا"، ولكز كيميا فخوراً أمامه.

جلسوا، قدّم لهم أكواب الشاي. تفقّد كلّ منهم أنباء عائلة الآخر، الجوّ وآخر حروب المنطقة. يقترب المغول، والناس خائفة.

قال حاقان: "يصل مئات اللاجئين يومياً. رأيتَهم يخيّمون خارج المدينة؟ يقولون: إن المدن كلّها دُمّرت عن بكرة أبيها، وسقط الآلاف صرعى المذابح". نظر حاقان إلى فاروق بابتسامة مُتعَبة، قال يُطلق آهة: "أوقات عصيبة. لكنّ قل لي، ماذا أتى بكَ إلى هنا، مع ابنتك؟"

فأخذ فاروق رشفة من شايه، ثم صفّى حلقه. بينما كان حاقان يرتقب.

قال فاروق أخيراً: "سآخذ كيميا لدير القديس بطرس. تعرف مكانه؟"

دُهش حاقان من الخبر، لكنه لم يعلّق. أجل، يعرف ديراً قريباً يتعلّم فيه الصغار على يد راهبات مسيحيات. قال: "لستُ على يقين، لكنْ ما اسم الدير؟"

قضّيا الليلة مع حاقان وعائلته، في الصباح التالي تركا الحمار عندهم وذهبا بحثاً عن الدير. في الطريق بُلّغ فاروق أن الدير الذي ذكره حاقان هو دير القديس بطرس. فجأة وجدا نفسيهما عند باب خشبيّ محفور ضخم بمقبض نحاسيّ لامع. تردّد فاروق. هل يترك كيميا هنا حقاً؟ نظر إليها واقفة بجانبه. جدّ هادئة؛ تبدو أيضاً غير مُوقنة. طَرَقَ الباب على مضض، ففُتح شباك صغير وسطه، يؤطّر وجهاً صارماً لامرأة.

سأله الوجه: "ماذا تطلب؟"

"أودّ أن أكلّم الأخت أندريه". بدا اسم الأخت المجهولة غريباً نافراً على شفتيه.

قال الوجه: "لم تعد الأخت أندريه هنا. عادت إلى القسطنطينية. فما تريد؟"

أحسّ فاروق بالراحة. إن لم تكن الأخت أندريه هنا، فلن تدخل كيميا الدير، أليس صحيحاً؟ وكان الوجه لا يزال مرتقباً رداً.

قال أخيراً: "لا شيء. لا شيء". دار مبتعداً، وريثما يتناول يد كيميا، سمع الشباك يُصفق وراءهما. راحا يجولان فترة، وفاروق ضائع. فماذا يفعل الآن؟ هل يعود للدير، على أيّ حال؟ لكنْ فكرة تداول الكلام مع المرأة خلف الباب ثانية جعلته ينكص.

بلغا ميداناً صغيراً تظلّله أشجار دلب. ومن كوّة محفورة بجدار، رحّب بهما صوت فسقية مرح. جلس فاروق على الحافة ثم وضع يده في الماء.

كان منعشاً منشّطاً. نظر إلى كيميا. بدأت تلعب بالماء، تحاول الإمساك بقطراته الوامضة في النور. تُغنّي مع نفسها في رقّة كأن رحلة قونية، البحث عن الدير، طلب الأخت أندريه، لا يتعلّق بها في كثير أو قليل.

(ذلك كلّه خطأ؟) تساءل فاروق. هل يعودان للقرية، وينسيان فكرة دراسة كيميا هنا؟

قطعت أفكاره فوضى بركن الميدان. يدخل الميدان جمع صغير حول رجل يركب بغلة. يلبس الرجل عباءة زرقاء وبرأسه عمامة رمادية. من وجوده بزغ حسّ من الدفء والرقّة، على الرغم من أن عينيه الباديتين حادّتان ومتنبّهتان.

لا مهرب من الرجل، فكّر فاروق. لاحظ أن الجمع كلّه ينظر إليه بتوقير عظيم.

من الشوارع المحيطة يظهر الناس، معظمهم مهرول. يصفّق بعضهم بيديه. بينما يصيح الصغار: "مولانا مولانا".

عندئذ لمح فاروق كيميا. تقف أمام الفسقية، شاحبة ساكنة الحركة، عيناها مثبّتتان على الرجل فوق بغلته.

وما حدث عندها، لن ينساه فاروق أبداً. فقد تحرّك الرجل نحو الفسقية، ثم ترجّل، أمام فاروق وابنته. قابلت عيناه، وكانتا خضراوين مزرقّتين مفعمتين بالوميض، عينَي فاروق.

سأل "ابنتك؟"، وأشار إلى كيميا، تقدمةً أكثر منها سؤالاً.

قال فاروق: "ابنتي. اسمها كيميا".

"وتفتّش عن مكان لتعليمها؟"

لهث فاروق. فأنّى لهذا الرجل أن يعرف؟ أومأ، عاجز النطق.

فسأله الرجل عَرَضاً "ماذا لو جاءت تعيش مع عائلتي؟"، كأنه يقترح شيئاً طبيعياً. "سيُسعد ابناي بأن يجدا لهما أختاً، وتُسرّ زوجي أن تجد لها ابنة كابنتك".

القـوة الرصـينة الناضـحة مـن الرجـل مُعديـة، فـأحسّ فـاروق وقـد تلاشى ألمه، مخاوفه، شكوكه، وغمرته دفقة دفء.

واصل الرجل: "هذه الصغيرة جوهرة ثمينة، وحبكَ لها" (تحفـر عيناه عينَي فاروق الآن عميقاً) "حبكَ مشعٌ أيضاً، بارق كجوهرة".

لم يحسّ فاروق أبداً بخضوعه هكذا. ودّ الركوع أمام الرجل، وتقبيل يده؛ لكنَّ كلّ ما فعله لم يزد على الوقوف، حكّ رأسه وحاول من دون جدوى أن يوقف سيلان الدمع على وجهه. أمامه ظلّ مولانا (اسم الرجل الممنوح أمامه) يعشيه. وحولهم يتداعى الجمع صامتاً.

وضع مولانا يده على قلب فاروق. قال: "بقبولكَ مصير ابنتكَ، تجلب نعمة الله عليكَ وعائلتكَ"، ثم رفع يده، مستديراً نحو كيميا: "تحبين المجيء للعيش معي؟"

لم تُبدِ كيميا دهشة. وعَجِبَ فاروق من سؤالها: "حين سِرنا معاً، أخذتَني لمنزلكَ؟"

فابتسم مولانا وأومأ: "أنت على حقّ. سرنا معاً درباً طويلاً قبل هذا". قال، يخاطب فاروق: "تعالَ معي. ارتح معنا قدر ما تتمنّى، ثم عُد بعدها إلى قريتكَ".

كأن الأمر استقرّ، فاعتلى بغلته. وأضاف، كمن يكلّم نفسه: "ستسعد كيميا هنا".

ريثما انضمّ للجمع الصغير من مريدي مولانا، سمع فاروق من أحدهم يتمتم: "المجد لله". فأحسّ بنور غريب وبهجة. ردّد "المجد لله"، وبجانبه كيميا تضحك.

- ١٢ -

تقف بالمدخل، تراقب فاروق والحمار الهَرِم يبتعدان. كان صبحاً رمادياً غارقاً في رذاذ ناعم، ما أحال كلّ شيء لانعكاس غامض. انقضى آخر يومين بسرعة. أول أمسية، أعدّت كيره، زوج مولانا، وجبة خاصة للاحتفال بوصول كيميا، وجلسوا جميعاً حول النار بمطبخ واسع، يأكلون حَمَلاً وخضاراً. هناك وليد يغفو بمهد ثابت في ركن الغرفة.

وضّح مولانا: "آخر أبنائي، عليم". فيما بعد دخل رجل قُدِّم بأنه سلطان ولد، أكبر أبناء مولانا. قال سلطان ولد: "يقيم علاء الدين مع رفيقيه حسن وأكبر. سيأتي بعد".

"ومَن علاء الدين؟" تساءلت كيميا. تذكُر مولانا في غموض وهو يتمتم متأوّهاً إنه لا رفقة أفضل من حسن وأكبر، ثم بدأ يحكي حكاية. حين دخلت في النوم، فقد وجدت نفسها في الصباح التالي راقدة بغرفة صغيرة على كومة وسائد، فوقها فروة خروف، ولا تذكر الحكاية. كان وليد يبكي في مكان. أفاقت فاستعادت خطواتها نحو المطبخ حيث وجدت كيره أمام المدفأة، تهزهز عليم بين ذراعيها.

رحّبت بها كيره وهي تعلّق "عليم عمره ستة أشهر، لكنه قويّ العزم". فابتسم الوليد ما جعلها تحسّ نوعاً ما بألفة البيت في منزلها الجديد.

ثم عادت مع فاروق إلى السوق حيث ابتاع شالاً صوفياً لآفدكيا. وقاموا بزيارات لأصدقاء وشربوا عدداً لا بأس به من أكواب الشاي. وجدت المدينة وتجارتها عامرة. مبانٍ عديدة ومنازل وناس! بدت كبيرة ومزدحمة.

في الليلة الماضية، على حين غرّة، وهم يتحلّقون حول النار بمنزل مولانا، أعلن فاروق أنه راحلٌ صباحاً.

يشحب ظلّه الآن شارداً مع غيم الخريف. ودّت الصراخ: "بابا، لا ترحل، بابا"، لكنَّ غصّة حلقها خنقتها فلم تتبس ببنت شفة، أحسّت بالضياع فجأة. كانت تُحدّق في ورقتَي الشجر البُنّيتَين المنديّتَين من المطر عند قدميها، ثم سمعت أحدهم ينطق اسمها. انتبهت لتجد كيره مع عليم بين ذراعيها، ونظرة اطمئنان هادئ بوجهها.

"ستكونين بخير، أكيد. دعيني أريك المنزل". تناولت يدَها، وراحتا من غرفة إلى أخرى، فنال قلبها الراحة. تُشرف إحدى الغرف على فناء صغير. قالت كيره: "هذا مكانك الآن". لا تعرف كيميا أن المنازل تضمّ غرفاً كثيرة، ولكلّ منهم غرفة. مرّا بباب مغلق، فخفضت كيره صوتها. قالت: "هنا يعمل مولانا".

(ماذا يعمل مولانا؟) لم تجرؤ كيميا على السؤال، لكنَّ كيره وضّحت فوراً أن مولانا يعلّم في المعهد يومياً، صباحاً في العادة، قالت: "ومساءً، أحياناً. ويأتي بعضهم طلباً للنصح من متاعبهم مع عائلاتهم وشؤونهم..."، وتشوّش صوت كيره، بدت مُتعَبة فجأة. أضافت، وهي تدخل المطبخ: "مولانا لديه وقت قليل لنفسه"، وتساءلت كيميا كيف سيتوفّر لدى مولانا وقت لتحصيلها، ما دام مشغولاً.

شيء مُطمئن أن تعود أمام مدفأة كبيرة بقدور داكنة معلّقة في خطاطيف. تطلّعت حولها. كومة من أُصص الطمي مكدّسة في ركن، كتلك الوسائد المزيّنة بفجوة النافذة. هرول ساعتها ولد في عمر الثالثة عشرة. شَعره بُنيّ معقوص، وعيناه سوداوان. طَلَبَ ماءً، ثم حدّق في كيميا بفضول غير مُحتشم.

قالت كيره: "علاء الدين. علاء الدين، كيميا. ستعيش معنا".

(إذن هذا ابن مولانا الأوسط). تساءلت كيميا عمّا يشغله فلا يمرّ بالبيت إلا لماماً.

فتح علاء الدين فمه ليقول شيئاً، ثم بدّل رأيه فأومأ صامتاً ثم فرّ.

قالت كيره: "لا تلتفتي كثيراً لعلاء الدين. فهو أهوج، لكنَّ مسلكه طيب".

بعده ظهر سلطان ولد. كانت كيميا مُتعَبة من البارحة فلم تنتبه. في السابعة عشرة، كأخيها بالضبط، لكنّ يبدو أكبر. وراحت تتأمّل. جلده شاحب وقسماته هادئة، مثل كيره، مع أنها زوج أبيه. لكنَّ عينَي سلطان غير عينيها المخمليتَين الداكنتَين، له عينا أبيه الخضراوان المزرقّتان الثاقبتان. وجوده كوجود كيره، مريح. بلّغتها كيره بعد أيام أن مولانا أخذه مرة، وهو بالخامسة فقط، للمدرسة. وأمام الحشد كلّه سُئل الصغير كثيراً؛ ودَمَغَت إجاباته بحكمتها الجميع. قالت كيره: "ومنذئذٍ، يحضر معظم دروس أبيه".

❖

وكلّما تمرّ الأيام تشحُب ذكرى القرية، كصور حلم تتمحي مع واقع حياتها الجديدة. قونية مدينة ثرية نشطة، يأتيها الخلق من كل أنحاء العالم بحثاً عن الثروة والمعرفة، والحكمة أحياناً، وقد بدأت تقدّر ذيوعها. يستقرّ اللاجئون بداية في ساحة الميدان (محيط أخضر كبير حول المدينة، يلعب فيه الشبان بالمضارب، ويركبون الخيل)، ثم يشقّون طريقهم داخل السور، بنّائين نجّارين كَسّائي ملاط، وبوجودهم تكتسي المدينة نكهة جديدة. حين تذهب للسوق، ترى كيميا جمع رجالٍ، غير بعيد من بيت مولانا، يزيّنون بوابة مدرسة جديدة بالحفر الرائع وبلاط الخزف الفيروزيّ البراق بأشكاله الهندسية، بينما ترتفع، بجانب قصر السلطان، جدران المسجد الكبير لأعلى كلّ يوم.

يُمتعها السوق بوفرة الفاكهة والخضار، وهياج الخلق بعباءاتهم العربية السابغة، قفاطينهم الملونة، أو بأسمالهم أحياناً. رأت مرةً رجلاً برداء غريب (كُمّاه منفوخان وبنطال مخمليّ لامع)، أخبروها إنه تاجر فينيسيّ ترسو سفنه في أطاليا، المدينة التي يقضي بها السلطان أشهر

الشتاء. ثم فقدت متاهة السوق، برائحة أصباغها الحرّيفة ودخانها وتوابلها، بعضاً من سحرها لكن لم تفقد أياً من عجائبها. كسماع حكايات مولانا، تجدها مثيرة؛ السير بالحواري الضيّقة مع نداءات التجّار، الصبيان بأكواب الشاي، أكوام الحرير الوامض، السجّاد بألوانه الخفيفة. كما تعشق دقدقة المطارق في حواري الصائغين. تجلس أحياناً على عتبة محل قريب تنتظر كيره، كانت تنسى نفسها في إيقاع الطرق. كانت هناك أيضاً حارة لصانعي العطور. تُثير عجبها قناني العطر الصغيرة، وترتجُف من فكرة الجنيّ المحبوس، كما قال مولانا، بإحدى هذه القناني. في أيّ منها؟ تتساءل. وأسعدها يوماً أن تاجراً مسح رسغها بقطرة زيت عطريّ بلون العنبر، ولبث معها حتى الصبح شذا المسك. لكنّ أحسن ساعات النهار، حين تُبلّغ مولانا عما تكتشفه، وقت لمّ شمل العائلة بعد العشاء.

يسأل: "ماذا فعلت اليوم؟"، وتروي ألف شيء وشيء شغل يومها. وينصت مولانا مبتسماً، ثم يحكي حكاية، فينهض من العتمة وزراء وقوافل وأميرات، فتراها أشدّ حيوية من عَالَم السوق كلّه. أميرة راقدة بسريرها، فريسة حزن لا يُسبَر غوره؛ هي بنت حطّاب ضاع في الغاب بحثاً عن نفسه؛ بنت ملك عُوقبَت في البريّة لتمرّدها وعدم إذعانها للأوامر.

وفي الظهيرة يأتي لمولانا زوّار، فتجلب لهم الشاي أو الماء البارد المعطّر بقطرة من ماء الورد. يطلب منها مولانا البقاء، فتجلس عند قدميه ساكنة. يتحدّث زوّاره الفارسية غالباً، اللغة التي كلّمها عنها أحمد. تفهم الآن قليلاً من كلماتها، وأحياناً جملة كاملة. ذات يوم عند الظهيرة دخلت غرفة تأمّله بصينية مرطّبات، فوجدت مولانا جالساً مع صديق قديم صامتَين مغمضَي العيون. رنّ صمت الغرفة في أذنيها، فأحسّت برأسها يدور، فوضعت الصينية بأكواب الشاي على مُسند القدمين، ثم انسلّت من الغرفة في عجَلٍ.

قالت كيره بهدوء، بعد دقائق، حين رأت كيميا ساكنة بجانب الباب، تسأل عما حدث: "على المرء أن يتحمّل". ولأول مرة لاحظت كيميا خطّين ناعمين حول فم كيره، مثل دمغة ابتسامة.

❖

بوصول الشتاء، بدأ البرد يقرص، فغدت العائلة تقضي أغلب الوقت حول الموقد. وعلاء الدين هَجَرَ أصحابه، فهو بالبيت غالباً. أخذ يضايق كيميا، هازئاً من طريقة بحثها عن كلمة أو خطأ هجائها. وتعلّمت إسكاته بالتحديق مباشرة في عينيه بأقصى جدّية مُمكنة. وعندئذ يحمرّ خجلاً فيترك الغرفة بدمدمة عن غباء النساء.

شهد سلطان ولد ذات يوم حرج علاء الدين، فضحك. قال: "لسنَ بهذا الغباء! لسنَ بهذا الغباء!"، فجاء دور كيميا أن أحسّت هي بالحرج.

يسألها مولانا أحياناً: "يضايقك الأولاد؟"، فتومئ كيميا ثم تبتسم؛ لا يهمّها، وكلاهما يعرف أنه لا يهمّها.

في صلاتها تحمد الله: "وهبتني الكثير! وهبتني عائلتين، ويأخذ مولانا بيدي إليكَ". وضح الآن أكثر معنى الكلمة التي علّمها إياها أحمد، تهلّ على شفتيها: "دوست!"، الرفيق، محطّ شوقنا! ثار ببالها السؤال. إلى أين تأخذني؟ هناك حلاوة في الصمت لم أتثبّت منها: الحلاوة جوابه.

❖

بشّرت نفحة فجائية بغمام ورديّ، في البساتين، بآخر الشتاء. فانزعجت كيميا.

لا أُحصّل شيئاً قطّ. كانت حياتها في قونية مُفعَمة ثرية، لكنها لم تعد تصرف وقتاً يُذكر في الكتابة كما اعتادت مع أحمد. طبعاً، تفهم الآن معظم الكلمات التي يقولها مولانا وصحبه، وتحسّ بنفسها ضليعة أكثر بوسائل لم تعرفها بالضبط، لكنه ليس التحصيل الذي كانت تأمله.

في ذلك المساء، سألت مولانا: "متى أدرس؟"

نظـر إليهـا مدهوشـاً، وبـدأ يـضحك. سـأل: "ومـا ظنّـك بطبيعـة الدراسة، يا صغيرتي؟"

حدجته في عجب.

قـال: "أنـت تدرسـين يـا كيميـا. أسـتطيع القـول: إنـك مـن أفـضل تلاميذي". ظلّ سـاكناً فترة فأحسّت كيميا بعجب أكثر. واصل: "هنـاك طرق كثيرة للمعرفة. بعض دروبها غير مرئيـة". وبرقّة عينيـه كالعسل. قال، وهو يهزّ رأسه: "لا تقلقـي. فعدم رؤيتك الدرب لا يعني أنك لست عليه".

❖

انقضت ثلاث شتويات. جاء طاهر ثلاث مرات للزيارة، بأنباء عن أبويها والقرية. الجميع بخير. ولدت صفية ولداً آخر، ذكراً. عنب العام واعد بوفرة. تلك حياتها، فكّرت كيميا. وهـي بعيدة عن ذلك كلّه الآن. في آخر مرة جاء طاهر، وجدته مُختلفاً. صار رجلاً.

قال: "سأتزوّج ميسر، صاحبة أسيل".

سيزوّجهما الإمام؛ ويكون ثمة احتفال ويُذبح غنم. أحسّت كيميا بهبّة حنين. ترى أختها أسيل وهـي تتذمّر من أحرفها المسطّرة بالتراب، وأمها آفدكيا وهـي تعلّق الملابس بحبل الغسيل في الشرفة، وأباها وهـو ينهرها بإصبعه ويناديها: "شيطانة". صرفت عنها ذكرياتها. سألت: "كيف حال بابا؟"

"بخير؛ يشغل نفسه دائماً. نبني منزلاً، سنعيش فيه أنا وميسر".

بدا طاهر فخوراً وسعيداً. لم يسألها عن حياتها وإن كانت مرتاحة. حياتها مختلفة هنا عما كانت تقضيه في القرية! فكيف تخبره؟

وقفا كلّ أمام الآخر مرتبكاً، حتى قال طاهر: "تغيّرت يا كيميا". ما يعني: "لم أعد أعرف من أنت".

بعـد أن رحـل، اسـتلهمت رؤيـا مفاجئـة عـن درب ينـشقّ ممـرين منفصلين، كان طاهر يبعد في أحدهما، وهي تمضي بطيئاً بالممرّ الآخر.

"دربك مختلف؛ لكنْ ليس لأيّ منا أن يقرّر".

يقف مولانا بالمدخل بجانبها، ونظرة حزن في ابتسامته. لم تسمعه وهو قادم. ظلاّ معاً يشهدان طاهر حتى اختفى بالطرف البعيد من الشارع، ثم أمسك مولانا يدها، وإلى داخل البيت عادا.

❖

بعد أسابيع ذاعت الشائعة. حصلت معركة رهيبة بمكان في الشرق، يُدعى كوسيه داف. قابلت قواتُ السلطان المغولَ وهُزِمَت شرّ هزيمة.

ضَرَبَ الخوف المدينة. فماذا سيحدث تالياً؟ هل يحاصر المغول قريباً قونية؟ ينهبون المدينة ويُعملون بسكّانها ذبحاً كما فعلوا بكلّ مكان؟ موجة لاجئين جدد تتّخذ دربها إلى الميدان. لم يشهد أيّهم الحدث، لكن مجرّد ذكر كوسيه داف يجلب في عيونهم الفزع. قال مولانا، ليس هناك ما نخشاه على أيّ حال. قونية يحميها الله، وسينقذها - وأضاف: "القوة تُبدِّل الأيدي". ثم أسقط الموضوع. عموماً، كوسيه داف بعيدة. حطّ اللاجئون الجدد خيامهم خارج السور، وأمامهم لاجئون آخرون يتقاطرون إلى المدينة. وعاد أهل قونية لنشاطهم. كان العام ١٢٤٣ وفقاً للتقويم المسيحيّ؛ ما يعني ٦٤١ بالتقويم الهجريّ. وقد جاوزت كيميا الحادية عشرة.

- ١٣ -

"هل تعرف حكاية الفراشة وعشقها النار؟"

الوقت آخر الظهيرة، وذرات من ذهب تتذبذب على حوائط الغرفة الصغيرة تتلوها حركات شجرة الكستناء العجوز في النسيم بالخارج. وكيميا تقرأ نصاً لفريد الدين العطار، الشاعر الذي صادفه مولانا من سنين وهو صغير، قاطعها مولانا.

قال: "تتشدّ الفراشة للنار فتطير أقرب أقرب، حتى تتبدّد الفراشة".

لا تعرف الحكاية، ولم تفكّر أنها هي الفراشة. هي النار، نار تحت رحمة ريح، في بيت مولانا، تهبّ باتّساق.

قرأ مولانا أفكارها، فقال: "ستشتدّ الريح والنار تكبر، إلى أن تصبح النار في النهاية والريح والفراشة واحداً".

وكردٍ لحظيٍ سرت رجفة في شجرة الكستناء فنثرت على الجدران شذرات الذهب. وكان الحب في عينَي مولانا لا يُحتمل، فصرفت بصرها بعيداً.

❖

بعد أيام، في صباح ربيعيّ حيث يستحمّ كلّ شيء بنور جديد منعش، صاح مولانا: "سأذهب لزيارة صديق، رئيس رهبان دير القديس كريتون. أتحبين أن تأتي معي؟"

لم تستغرق زمناً في ربط شال رأسها ولبس حذائها. تعرف الدير وصداقة مولانا لرئيس الرهبان، لكنها لم تصحبه قبلاً في زيارته هناك.

كان الهواء بارداً حين شرعا في الرحيل بعد دقائق، تحمل كيميا مرطبان عسل إلى رئيس الرهبان. مسافة ساعة بالسير حتى الدير. مشيا على مهَلٍ عابرَين الحدائق والبساتين، حيث تتهمر لأسفل تويجات وردية وبيضاء كعبّاد شمس منسيّ، ثم تتبّعا سبيلاً تظلّله صفوف

السرو. حين وصولهما، كانت الشمس أعلى رؤوس الشجر، والجوّ حارّ. فتح البوابة الخشبية كاهنٌ هَرِمٌ بعباءة بنيّة، قادهما عبر ممر مُعتم إلى حديقة داخلية، يحيط بها رواق تصطفّ عليه أعمدة محفورة بنعومة. يمكن للمرء أن يتبيّن، خلف الحديقة، لكنّ في فناء الدير، قبّة مسجد صغير، تتبارى مئذنته مع شكلين مدبّبين لشجرتَي حور تنموان جواره.

للتوّ بزغ رئيس الرهبان من غرفة قريبة. كان يكتسي أيضاً عباءة بنية مع صليب خشبيّ معلّق بصدره. قال وعيناه تبرقان: "ياه مفاجأة لطيفة. ومَنْ الآنسة الصغيرة؟" أما وجهه فذكّر كيميا بالأب كريستوم.

قال مولانا: "كيميا. تعيش معنا منذ فترة".

سلّمت رئيس الرهبان مرطبان العسل فابتسم لها ابتسامة دافئة في حبُور.

اقترح عليها: "هل تحبّين الجلوس بالحديقة ونحن نتكلّم؟"، وأضاف: "تنزع الصغيرات نحو أذية أنفسهن أقلّ من الصغار"، واتّسعت ابتسامته، فضحك مولانا من ذكرى حدثت من سنين، حين سقط علاء الدين بواد ضيّق قريب فأنقذه الكهنة، برضوض حادّة.

قال: "حما ابني وقتئذٍ القديس كريتون. وأوقن أنه سيحمي كيميا أيضاً، لكنكَ محقٌ، فالصغيرات يراعين أنفسهن أكثر من الصغار"، وأضاف ضاحكاً: "مسجد واحد في ديركم يكفي".

بدأ رئيس الرهبان يضحك أيضاً. فقد أُنشئ المسجد الصغير شكراناً لنجدة القديس كريتون حياة علاء الدين، وهو قرار استفزّ تعليقات غاضبة بين كلّ من المسيحيين والمسلمين. لكنّ بكرههما المشترك للتعصّب الدينيّ، تجاهل مولانا ورئيس الرهبان التعليقات مستمتعَين بجريرتهما.

اختفى الرجلان تاركين كيميا مع نفسها. جلست على مقعد تحت ظلّ صفصافة وليدة. السكينة تغمر الحديقة، يحطّم صمتها أحياناً

هديل يمام أو رفيف جناح عابر. فجرَفَتها هدأة اللحظة، وأغمضت عينيها. دوست. ارتقت فيها الكلمة، ناعمة كسجع طيور.

"تفضّلي ماءً".

فتحت عينيها مجفلة. إزاءها راهب شاب، يحمل صينية عليها قدح ماء. شكرَته وأخذت القدح. ماء بارد منعش. لم تدرك أنها جدّ عطشى. انتظر الراهب حتى انتهت، لكنه بدلاً من تركها، راح يُحدّق فيها مرتبكاً.

سأل، يغلبه الخجل: "أنت، بنت مولانا؟"

بنتُ مولانا! لم تفكّر في علاقتها بمولانا. فكّرت لحظة. فمولانا أكثر من أب. كان مثل أحمد، صديقها الناسك؛ وأيضاً مثل الأب كريستوم. لم تكد تبدأ: "مولانا ليس مجرَّد أب، فهو -" حتى قاطعها وقع أقدام من الرواق. أدارت رأسها فرأت رئيس الرهبان ومولانا سائرَين نحوها. حين استدارت، كان الراهب الشاب قد اختفى، مع سؤاله الحائم في الهواء.

حينما عادت مع مولانا سيراً إلى قونية، ظلاّ صامتين، كلاهما ضائع بأفكاره. شيء لافت. أحسّت أنها كَبُرَت بما لم تفهم طبيعته.

❖

ردّ الصيف من جديد، شمسه الحارقة حيث ينسحب الجميع إلى البيوت أو في الظلّ بحثاً عن رطوبة. بالميادين، تحت شجر الدلب، يهجع العجائز، يهشّون من وقت لآخر ذبابة داخت من الحرّ. وفي المساء تعود الحياة نابضة، بعد أن أرغمها النهار على الانسحاب. يُؤتى بالوسائد والفُرش للشرفات، تظهر أكواب الشاي وأطباق الحلوى، وتحت قنطرة السماء المرصّعة بالنجوم، يُفسَح المجال لحوارات حيوية، حتى الفجر أحياناً.

على سطح مولانا، كأيّ مكان آخر، ينضمّ الضيوف والزوار للعائلة، ويدوم الكلام والجدل حتى ينعس الصغار، ويختفي الزوار واحداً بعد الآخر.

ذات ليلة، انكفأ سلطان ولد وعلاء الدين، وراح آخر الضيوف منذ زمن، عندها تفرّد مولانا مع كيره، وبينما تغطّ كيميا على حجرها في نوم

عميق، ربما كانا على ما يبدو الوحيدَين المتنبّهَين بالمدينة كلّها، تفصلهما سكينة الليل، حيث، وفقاً لمولانا "الله أقرب والصلاة إليه أيسر".

في الصمت برزَ صوت مولانا، يخاطب شخصاً غير مرئيّ. يقول: "لو أخلص قلبكَ، يدانيكَ المدد، أينما أنتَ". وارتاعت كيره حين طار زوجها من السطح في الهواء الرطب ثم تلاشى.

بعد ساعات بدأ المؤذّن ينادي للصلاة، فعاد مولانا إلى الشرفة. ومن دون أن ينبس ببنت شفة وقف تجاه الشرق ثم سجد.

همسَ: "الله أكبر". فتنبّهت كيميا وانضمّت مع كيره للصلاة.

وهم ينزلون على السلّم الضيّق المفضي للفناء، لاحظت كيره نثار رمال بيضاء ناعمة تتسلّ من كعب مولانا.

قال: "رمال الحجاز. فقد ضلّ طريقَه هناك مسافرٌ، وكان عليّ قياده للعودة".

❖

تطلّعت كيميا من النافذة فرأت سماء رمادية. ما يعني أن الليل حان. بدا الخريف كأنه سيدوم. تأوّهت، تفكّر أنه سيمرّ قمر آخر قبل أن يطول النهار. لكنَّ الله يدبّر الأشياء على ما يشاء. إن النور شحيح في أشهر الشتاء، لكنَّ الثلج يهطل فيلفّ كلّ شيء بسكينة بيضاء. أنعشتها الفكرة فبدأت بتقطيع العجين أمامها مربّعات صغيرة، تضع قطعة لحم في كلّ منها ثم تطويها بحرص مثلثات. تحبُ هذا العمل لتطلّبه انتباهاً ودقّة. كانت تركّز في مَهمّتها فلم تسمع كيره وهي قادمة.

"لمَ لم يعد مولانا من المعهد؟"، أسف طفيف في صوت كيره: "إنه يعود في مثل هذا الوقت". جلست، تضيف بعد تفكير: "صاحبه سَريّ الدين ينتظره بغرفة تأمّله".

عندئذ، دخل المطبخَ سلطان ولد، لا يزال بسترته لاهث الأنفاس "بلّغتُ سريّ الدين ألاّ ينتظره. فلا أظنّه سيعود فوراً ربما سيتأخر؟!".

نظرت إليه كيره، منزعجة: "ماذا دفعكَ لتقول هذا؟"

أسقط سلطان ولد سترته من دون ردّ، ثم جلس بجانب كيره وبدأت كيميا تحضّر شاياً.

بدأ سلطان ولد: "حدث شيء غريب هذا الصباح، وأبي في طريقه للحمام العموميّ. كان أبي محوطاً كعادته بجمع من الدارسين والمريدين، وبينما يمرّون قرب خان السكّر، قفز أمامه رجل ملتفٌ بعباءة سوداء، فأمسك لجامه". سكت سلطان ولد في رجفة من وقع الذكرى. ارتقبت كيره حتى بدأ ثانية: "تبادل الرجل ومولانا كلمات، غاض عندها مولانا فسقط عن بغلته".

وضعت كيره يدها على فمها: "هل تأذّى؟ ألهذا لم يَعُد؟"

هزّ سلطان ولد رأسه نافياً: "لا، ليس هذا. أبي بخير. شُفي ساعتها تقريباً. لكنّ ما وراء ذلك أثار قلقي".

انتظرته كيره لكي يفسّر.

"آه، لا أفهم. مجرّد أن شُفي أبي، أخذ الرجل من يده ومضيا إلى بيت صلاح الدين زرقوب"، هنا عبس سلطان ولد: "وهناك لبثا. أمر غريب، فيُفترَض أنه موعد درس أبي في المعهد. ذهبتُ هناك قبل مجيئي هنا. سبقني جمع غفير. مصادفة اللقاء قد شاعت وكان الجمع يناقشه؛ يظنّون أن أبي سيأتيهم على الرغم من أيّ شيء. لكنه لم يأتِ!"، وبانت نبرة شكّ في صوت سلطان ولد: "بدأ الناس التذمّر ثم انفضّوا أخيراً. كان مريدو أبي في حيص بيص"، ومسح جبينه بيده: "لا أعرف فيمَ ظنّوا أيضاً".

ظلّت كيره على صمتها. ثم قالت أخيراً: "سيعود الليلة. قد يحمل الرجل نبأ مهماً".

هزّ سلطان ولد رأسه، وهو غير مقتنع: "الإدلاء بنبأ لا يستغرق يوماً. شيء آخر، أعرف. شيء...".

ولم ينه جُملته. وهو يفتّش عن كلمات، برق علاء الدين. صاح كالظافر بلُقية: "هذا الرجل هو شمس الدين، وقد جاء من تبريز". وقف منفرج الساقين، وخُصلة شَعر تهيم على حاجبه.

سألته كيره: "وكيف عرفت؟"، يثيرها تباهي الولد. يعلمون جميعاً أن قونية مُغرَمة بالنميمة؛ لكنَّ كيره تعرف أن النميمة لا تَحرف الحقيقة فقط، بل تطعن مَن ينشرها أيضاً. فلم تدعه يُجيب سُؤلَها: "كفى! أبوكَ يعرف ما يصنع". ثم نهضت إلى المدفأة حيث بدأت تُضرم النار في غضب، بينما دفع سلطان ولد علاء الدين نحو الباب.

عادت كيميا لمهمّتها في طيّ العجين، تردّد الاسم الذي سمعَتْه "شمس الدين". يشير إلى الشمس. فلمَ الخوف من سماع الكلمة؟ بالخارج هبّة ريح بدت رداً عليها. فكان أن ارتجفت. قالت: "هلْ الشتاء علينا".

تنحني كيره على النار، ولا تردّ.

تسحّب النهار حتى هبط الليل. ولم يعد مولانا. نهضت فضّة ضئيلة من القمر على المنزل، وضجّة المدينة خمدت. وهم جالسون بالمطبخ، اقترحت كيره على كيميا وسلطان ولد الذهاب لبيت صلاح الدين زرقوب ببعض الطعام إليهم.

صلاح الدين صائغ، وصديق مولانا. يعيش وحده في منزل يبعُد دقائق عن منزل مولانا، ومنذ وفاة زوجه، صار مهماً إليه. وهو يعمل طوال النهار بالسوق، حيث لديه ورشة صغيرة.

❖

يتقدّمها سلطان ولد، ممسكاً بمصباح زيت. الشوارع مُقفرة، عدا قطة ولّت فراراً من اقترابهما. طرقا الباب ففتح على التوّ صلاح الدين. قال "ها، أنتما"، لم تبدُ عليه الدهشة لرؤيتهما. كان قصيراً بجسم ربْعة متين. وقد رأته كيميا مرات بين زوّار مولانا. صلاح الدين هادئ دوماً،

يصمت أثناء الجدل حين ينشب حول مولانا أحياناً واسع المعرفة. يعرفه قلّة، غير أنه رجل طيب يُوثَق به.

قال: "هما ـ في تلك الغرفة" وأومأ نحو ممرّ يفضي لثلاثة أبواب، كلّها مغلقة. وتردّد: "لا يجب أن نزعجهما".

قال سلطان ولد: "كنا نتساءل إن كانا ـ في حاجة لطعام. مرّ زمان منذ الصباح".

فأذعن صلاح الدين صامتاً، غير مقتنع.

سار سلطان ولد وكيميا نحو الباب البعيد. كان شعاع نور يتذبذب من تحته. وضع سلطان ولد المصباح خلفهما، فألقَى بظلّيهما على الباب كمن يحاول المرور. لا تُسمع نأمة صوت. وقفا هناك دقائق، ثم طرق سلطان ولد الباب متردّداً. يبدو أن فكرة جلب الطعام هنا غير لائقة. تعمّق الصمت. تطلّعت كيميا ـ في سلطان ولد. وجهه ساكن. وضع يده على قلبه، ثم مال عميقاً إلى الباب. باغتَت كيميا فجأة ريح صَرصَر عاتية هبّت عليها، فأغمضت عينيها. ثم توقّف كلّ شيء، وعندما فتحت عينيها رأت سلطان ولد شاحباً مُستَنزَفاً، يتناول مصباح الزيت متأهّباً للرواح. تحت الباب نور يتذبذب. مضيا من دون أن ينبسا بأدنى كلمة. وهما يغادران المنزل، تذكّرت كيميا مرة حين أبدى مولانا إليها مغناطيساً بنُثارات معدن. فكّرت، إن المغناطيس هذه الليلة وراء هذا الباب، وأنا نَثرة من نُثار المعدن.

❖

مرّ أكثر من أسبوع منذ ظهور الغريب. ظلّ منزل مولانا وصلاح الدين يفرزان الصمت، والحياة تقريباً على حالها عدا الأمسيات التي تمضي فيها كيميا إلى الباب بصينية طعام تجهّزها مع كيره. استحال الوضع طقساً تقريباً. فهي تضع الصينية قرب الباب حيث النور ساهر، ثم تجلس تتنفّس ـ في صمت. ينضمّ إليها سلطان ولد أحياناً، وكيره

أحياناً. والطعام لا يُمسّ. كان الاتّفاق ضمنياً أن لا كلام عن مولانا و"رفيقه الجديد".

علّقت كيره: "وماذا يُقال هناك؟ لا يتكلمنّ أحد عنه". والتصميم الحانق في صوتها يستدعي التوقير.

لكنّ علاء الدين لم يستطع كبح نفسه. قال ذات يوم: "مريدو أبي غاضبون"، وقد عاد من ركوب الخيل مع أصحابه، مفعماً بكلام المدينة.

بدا سلطان ولد حزيناً، لكنه لم يعلّق.

واصل علاء الدين: "يقولون، هذا الرجل، شمس الدين، مجرد واحد آخر من أولئك المشعوذين القادمين من الشرق لإثارة القلاقل. يقولون أبي هجرهم". سكت، أضاف بصوت مرتجف: "وأظنه اعتزلنا أيضاً".

"علاء الدين، أمسك عليكَ لسانكَ" وكان صوت كيره قاطعاً: "يجب ألا تتكلّم عن أبيكَ هكذا".

طأطأ الشاب رأسه ثم خرج، تاركاً خلفه ذيلاً من غضب.

مرت الأيام، متطاولة حدّ السأم. صار الانتظار متوتّراً كوتر قوس مشدود لأقصاه. ذات صباح، أسقطت كيميا الوعاء الذي تحمله، فسقط على الأرض وتحطّم شذراً.

جاء صوت كيره غاضباً: "أليس الأجدى أن تحرصي؟". لم تَرها كيميا من قبل تفقد أعصابها. وأردفت كيره تواً بابتسامة حزينة "لا عليك. فهو وعاء لا يستأهل أن أحزن عليه".

جمّعا الشذرات المبعثرة بالأرض. تأمّلت كيميا، هي شذرات شبيهة بشظايا قلوبنا. نستطيع لمّ شملها وجَبرِها سويّة، مع أن الوعاء لن يعود كما كان.

صعد القمر الجديد، شمعياً مَحَاقاً. بدا البرد قارصاً ويكفّن نثيث الثلج المدينة، فيلفّع هرجها نحو همس. وظلّ مولانا ورفيقه معتزلَين.

ﾌ البدء كان غياب مولانا محسوساً كأنه راح ﾌ سفر. ضحكته، قَصّه الحكايات، غدوٌ ورواحُ أصحابه ومريديه، أين؟ أمر لا يُحتمل تقريباً؛ لكنه سيعود يوماً. لكنّ مع مرور الأيام والأسابيع، على بُعاد مولانا، أصبحوا يحسّون وجوده أقرب. يبدو أحياناً كأنه وراء الباب؛ يتأهّب للدخول، كما تتشقّق ﾌ الخريف حوافر الخيل، أو تتبدّى الأزهار ﾌ الربيع عياناً من براعمها. كيره أشدّ شحوباً، لكنّ بعينيها سعادة مكبوحة. بالنظر إليها، يفكّر المرء ﾌ النسوة الحبالى، وهن متمهّلات، يدعن العَالَم يندفع جنبهن، حيث يشغلهنّ مَهمّتهن الثمينة داخلهنّ فيتعذّر عليهن الكدر بأيّ شيء خارج ما بأنفسهن. ففي هدوء تعدّ الطعام الذي تعرف أن المحبوسَين ﾌ غرفتهما على بُعد عدّة منازل لن يمسّاه، كما توقن أن هناك طقمَي ملابس نظيفة عند الباب. وتنتظر.

أما كيميا، فقد قرّ محلّ الرَوع والحزن نوعٌ من السكينة، سكينة راحت تتعمّق كلّ ليلة من العجب الصامت بسهرها عند باب صلاح الدين. تُقوّتها هذه الأمسيات. فهي نور أيامها الطوال، تمنحها حسّاً بالأمل. لكنها لا تعرف كُنْه هذا الأمل. ذات مساء، وهي تجلس بمكانها المعهود، بزغ امرؤ من الغرفة فجأةً (هو شمس الدين قطعاً)، ومن دون إرادة منها رفعت بصرها. فاخترقتها عيناه الداكنتان الوهّاجتان، لم تدع شيئاً إلا ومسّته، فأطلقت صرخة. هاجت عاصفة ﾌ لمحة، ثم تبعها سكون لم تحسّ بمثله قبلاً. وحين فتحت عينيها، كأن شيئاً لم يكن. كان الباب مغلقاً، كالعادة، بشعاع النور ذاته المتذبذب من تحته. كان المنزل مُحصّناً بالصمت، يتنفّس بهدوء.

تلك الليلة، جاءها ملاك من النار بأحلامها. قال الملاك: "شمس الدين هنا من أجلك أنت أيضاً. رُفع اليوم حجابٌ، ورحلة العَود قد بدأت".

فاستيقظت مرتاعة، تتساءل: ماذا يعني؟ لكنها كتمت الحلم.

❖

قالت صديقتها خديجة: "كيميا، لا تحزني"، وهما تسيران في حديقة قمر الدين، التي غمرها الثلج. خديجة بالثانية عشرة، مثل كيميا. أول صديقة مقرّبة صادفتها كيميا؛ حتى نوران، التي تلعب معها أحياناً، لا تحسّ بها حميمة مثلها. وجه خديجة مدوّر وعيناها سوداوان، ورَبلة قليلاً (من عشق الحلويات، كما تُقرّعها كيميا دائماً). أما أبوها فقصّاب، من أشدّ مريدي مولانا غَيرة.

قالت كيميا: "لا، لستُ حزينة".

"إذن لمَ قلّ كلامك؛ ولماذا تتوحّدين بنفسك غالباً؟"

فقالت كيميا: "أحاول اللحاق بشيء"، وهلّت ببالها صورة "كمن يحاول شدّ خيط من عين مخرَز. عليك بالانتباه، عليك بالثبات، عليك بالتركيز". وانفعلت. قالت: "نعم، كمن يحاول سَلّ مَخيط عَبْرَه؛ فلا ينشغلنّ بالكِ، يجب ألا ينشغل بالك".

تنصت خديجة باهتمام، ثم تقول "أتفهمين"، وهي تضحك، ضحكتها الجَزلة الواسعة: "لكني أحبّ أن ينشغل بالي".

لم تضحك كيميا. خديجة صادقة مع نفسها دائماً، لا تدّعي أبداً! فلفّت كيميا ذراعها حول كتفَي صديقتها: "أحبّكِ، يا خديجة". واصلتا السير في بطء، صامتتَين. ثم بدأت كيميا: "لكنكِ تعرفين أني لا أتحمّل أن ينشغل بالي، فـ..." وسكتت: "إنه أمر جلل، أتوق إليه كثيراً".

"ما الجلَل فيه، الذي تتوقين إليه كثيراً؟"

توقّفت كيميا عن السير: "إنه داخلي. لا أعرف كيف أفسّره. كأن شيئاً يدعوني ويستجيب لي في الوقت نفسه"، وهزّت رأسها: "لا أفهمه". صرفت عنها الفكرة كمن يُطيّر ذبابة ملّحة، قالت: "الدنيا برد؛ لندخل". تابعت البنتان سيرهما، تلعبان بوضع قدمَي كلٍ منهما محلّ قدمَي الأخرى بالثلج. تتقدّمان بطيئاً، لكنّ خديجة انزلقت، ثم لحقت بها

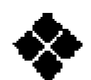
كيميا، وهي تمسك بمعطفها، فسقطتا كلتاهما بالثلج، راقدتَين تضحكان، يُعجزهما الوقوف على قدميهما.

بصعوبة تمتمت كيميا: "أرأيتِ ما أقصد؟ يحتاج المرء أن يتنبّه، لو زلّت إحدانا، فإن الأخرى ستزلّ حتماً".

ترنّحتا على القدمين، تنفضان البَرَد الأبيض العالق بقفطانيهما وكلٌّ منهما تنظر إلى الأخرى، فانفجرتا في موجة ضحك أخرى. وعلى حين غرّة بدأ طنين في أذنَي كيميا، فصار ما حولها حاداً دقيقاً واضح المعالم. ظلّت ساكنة، وضحكها مُرجَأ. كان الأمر واضحاً فوق العادة: فهي لحظة ثرية تامّة، كاللحظات التي تصرفها بمنزل علاء الدين كلّ مساء. الحياة وحدة كاملة، وكلّ شيء مترابط، ملايين من كِسف الثلج في عباءة مجيدة شاسعة. وتركت نفسها، من غمر ذلك، تسقط بطولها كلّه في الثلج المترامي. فكفّت خديجة عن الضحك. متورّطة، جثمت بجانب صاحبتها تُحدّق فيها. وفي نزوة، زرعت كيميا قبلة على خدّها. فلا شيء يبعث على القلق. نظرت كلٌّ إلى الأخرى، فبدأتا القهقهة ثانية.

❖

"تبدوان في فوضى بديعة، كلتاكما، لكنها فوضى جميلة!"، هتفت كيره حين دخلت البنتان المطبخ وهما تضحكان. "فلم أر مثل هذه الخدود الحُمر من أمد. ما رأيكما في حليب دافئ؟"



وفي اليوم التالي خرج مولانا وصاحبه من مُعتَزَلهما.

- ١٤ -

في الصباح الباكر، تستحيل السماء إلى رماديّ مبيضّ يستعجل عودة النور. كانت كيره وحدها بالمطبخ تُضرم النار، حين سمعت وَقْعَ قدمين خلفها. نظرت من على كتفها فرأت زوجها واقفاً بالمدخل. كان شاحباً بالغ النحول كأنه يطفو في عباءته، لكنَّ بعينيه وهجاً من نور، آه والسعادة المشعّة في هدوء لا تُخطئه عين. في لحظة، خفض زوجها، جلال الدين، مَن يدعوه الجميع مولانا، نظرته خَجلاً أن تراه عاجزاً عن استعادة بسمة زائلة؛ مثل نسيم ربيعيّ يهدهد شفتيه، فكّرت. لم تلحظ الهالات السود تحت عينيه. ردّت نظرته من دون تعمّد، ثم خفضت بصرها. قالت بسمتها: "أنتَ سعيد، إذن، قلبي فرحان من فرحتكَ". ثم انتبهت للشكل الطويل الضخم الذي يظلّل زوجها.

دار جلال الدين، فقال هادئاً: "شمس الدين، صنو روحي".

ظلّت ساكنة. فلم ترَ زوجها من قبل سريع التأثّر. فهو طفل صغير، مهجور، يمتلئ عجباً. سكت لحظة ثم أضاف: "عامليه على أنه الجزء الأعزّ من كياني".

همس تقريباً بالكلمات الأخيرة، كأنهما لا يستطيعان أن يوفياه حُرمة مشاعره. سار الرجل أماماً وجلال الدين يتكلّم. ظنّته شجرة ضخمة، مهيبة، حامية. عيناه داكنتان جادّتان مفعمتان بنار عالية الوطيس، فكان أن لهثت وتقافز قلبها بصدرها كمن يحاول الفرار. تفادى الرجل عينيها وانحنى عميقاً إليها. إذن هو شمس الدين. لكنْ مَن هو؟ ثار السؤال حارقاً في بالها، من دون جواب. وهي تُحدّق في الرَجلَين أمامها، لتفكّر ماذا تقوله، استدار شمس الدين وابتعد، وجلال الدين في عقبيه. دام المشهد دقائق، فتساءلت، وحدها من جديد، إن كانت تحلم، حين دخلت كيميا لاهثة الأنفاس.

"خـرج مولانـا ورفيقـه مـن مُعتَزَلهمـا. هنـا؛ رأيتـهما يـدخلان غرفـة مولانا".

إذن، لم يكن حلماً. أومأت: "أعرف. خرجا أخيراً، وأنا سعيدة، لكنّ يا كيميا..."، ثم تردّدت: "أنا مرتعبة أيضاً"، وهي ترتجف.

خلعت كيميا شالها، منزعجة، وطوته حول كتفَي كيره: "هـذا هـو، شمس الدين؟"

استجمعت كيره نفسها، وهـزّت رأسـها: "لا أعـرف مـاذا غلـب علـيّ؛ لا تنصتي إليّ، يا كيميا. فقد أقلقني أن الاثنين لا يلقيان بالاً لمنظرهما"، وتأوّهت: "يمضي الرجال إلى بعيد، يفقدون أثر العَالَم، ثم تقع جريرة ذلك علينا نحن النساء". أحسّت بتوتّرها حاضناً، يستبدل الخوف المريع الذي خَبرَته تواً، وفي ذلك راحة نوعاً ما. لكنها تعي بكونها تسقط في أفكار بسيطة، بعيدة عن حقيقتها.

شغلتا نفسيهما في صمت بمهام الصباح العديدة، جَلْب مزيد من الأخشاب للمدفأة، غلي ماء، تقشير خُضار...

قالت كيره: "قد يستأنفان الطعام الآن"، وصوتها يرنّ بالغيظ من الطعام الذي وهبته، نعم (فكّرت مع نفسها) طوال الأسابيع الستة الماضية. ثم ضحكت. فلماذا تغضب؟ الطعام لا يضيع؛ فقد أطعم شحّاذين، ومع أن زوجها نحيل إلا أنه سعيد.

قالت ثانية: "كيميا، لا تنصتي إليّ. فعطايا الله عصيّة على التقدير؛ بغضّ النظر عن كونها عطايا".

كانت الشمس تغمر الغرفة وقتها، وتعلم أن الغضب أو الخوف مجرّد غمام يُخفي مجد الشمس. تقابلت عيناهما بتورّط صامت. هناك شيء جديد، مجهول لكنه مُفعم، قد دخل المنزل. من شفتَي كيميا نبعت أغنية، الأغنية التي كان يردّدها أبوها فاروق ذلك المساء، بجانب المدفأة، حين زار الأب كريستوم القرية في آخر مرة؛ كان إيقاعها يهب الحياة،

برياً مهيباً، أغنية كانت تجهلها حتى هذا الصباح، ظلّت معها، وقد ضاعت أصولها من سهوب آسيا الوسطى. مرتاعة، أوقعت كيره ثمرة القرع التي تنظّفها . أعاد رَجعُ الأغنية نوعاً ما عينَي شمس الدين الداكنتين الحادّتين. فرجفت من جديد .

❖

لانت قبضة الشتاء، وبدأ شجر اللوز ينفجر عن غمام ورديّ، ومن صمت الأسابيع الماضية بزغ همس حياة جديدة. كان مولانا وشمس الدين، وقد أنهيا صيامهما وعزلتهما، لا ينفصلان؛ فإما يجلسان ساعات بغرفة مولانا أو يخرجان في رحلات منوّعة. وينضمّ للرجلين أحياناً سلطان ولد أو حفنة من مريدي مولانا، وما بعث الراحة في كيره أن صواني الطعام التي تُحضّرها لا تعود كما هي. وحده، علاء الدين، ظلّ على مَبعدة. كان غاضباً من أبيه لأنه "هجرهم" كما قال، مُوقناً من أن الجميع يعلم بالأمر. وهو بالبيت، يصفع الأبواب حانقاً، ويأبى الردّ على أيّ سؤال، تثيره أدنى ذريعة لينفجر في غضب أعمى، أما باقي الوقت فيركب فيه الخيل مع رفاقه بالميدان.

لم يكن فضول قونية باطلاً. فالناس يرون مولانا وشمس الدين ذاهبين إلى المسجد، إلى السوق أو الحمامات العامة، يتكلّمان بحيوية أحياناً، ويغرقان في الصمت أحياناً، ويتساءلون: ما العائق غير المرئيّ الذي لا يشجّع على الاقتراب من الرجلين؟ كان هذا العائق يسيّجهما بإحكام من وهج شمس الدين، بينما ينصبّ اهتمام مولانا على شمس الدين، فيبدو غير واعٍ بالعالم من حوله. ينظر الناس للمعلّم الكبير، الذي وقّروه ذات يوم، ولا يصدّقون أعينهم. كان نحيلاً كالأطفال، مجرّد ظلّ لنفسه.

أما مريدو مولانا فتعصّبوا أكثر. يتوقّعون من أستاذهم الشروع في دروسه بالمعهد من جديد، مع إدراكهم أنه لا يبالي الآن. لم يعد مولانا معلّمهم الدينيّ الذي عهدوه. ضاعت رباطة جأشه، ضاعت نظرته

بتقشّفها المهيب. يرونه يضحك أحياناً من دون كابح، كما يبكي أحياناً من دون كابح. سمعت كيميا الناس يتهامسون: "هل جُنَّ مولانا؟ وماذا يفعل به هذا الرجل، شمس الدين؟" رأوا مولانا مرة يهرول للمنزل، والأسوأ هي تلك المرة حين راح مولانا يلتفُّ حول نفسه في زاوية السبيل، ومعه طفلان يصفّقان، وشمس الدين واقف بجانبهم مغمض العينين غائباً في أحلامه. فيما بعد، سألت كيميا مولانا: "لمَ تقلّبت هكذا؟ وفيمَ يفيدكَ هذا؟"

ردّ مولانا: "يقرّب قلبي من الله. فهي عادة غابرة. تعود إلى علم الإنسان، العلم الذي يسمح للمرء بسلوك دربه عائداً لله. عادة عُرِفَت في بلاد فارس قبل ظهور النبيّ بزمن طويل"، لان وجهه ثم أردف: "هداني إليها شمس الدين".

سألتْ: "وهل لي أن أتقلّب أيضاً؟"

"ليس بعد يا كيميا، ليس بعد"، هزّ رأسه وبانت الرقّة في عينيه: "يضرّ التقلّب من لا يتأهّبون له".

بدت أشدّ حيرة.

فقال: "أمر بالغ البساطة. فالتقلّب يلمس شغاف القلب؛ يجلب مشاعر فياضة ويحيّر غالباً بأحوال روحانية عالية؛ فيصبح إغواء التقلّب عظيماً. وهو ما يعيق النشوء الروحيّ لمن ينغمس فيه لمجرّد إشباع عواطفه. لذلك نحفظه سراً زمناً طويلاً". ثم توقّف وبدا منغمراً بأفكاره. قال بعد لأي: "قبل التقلّب، يجب على القلب أن يتخلّص من متعلّقاته"، وأضاف هامساً: "ليس لأيّ امرئ أن يحترق إلى أبعد مدى".

حارت فيما بعد. فماذا يقصد؟ هل مشاعرها نحو مولانا وكيره، هي المتعلّقات؟ ألم تكنْ هي الحبّ؟

مع مرور الزمن، اقترب بعض مريدي مولانا من سلطان ولد: "بلّغ أباكَ أنه من دون نورانية تعاليمه، لا تُحتمل الحياة. بلّغه أنه من دون بلسم حكمته، قد عمينا، وفي الظلمة نتخبّط".

أنصت سلطان ولد لشكواهم. لكن ماذا بمقدوره أن يفعل؟ أخبرهم: "لا أكاد أراه حالياً، وحين أراه فإني أراه فقط مع شمس الدين". كيف يعلّل توتّر الصمت الذي يشارك فيه أبوه مع شمس الدين أحياناً؟ كيف يبلّغهم أنه، في طويّة جدران الغرفة الصغيرة حيث يقضي الرجلان معظم وقتهما، هناك حياة أكثر مما هي في مدينة مثل قونية وما وراءها؟ سينظرون إليه في تشكّك. هل يُغرّر بهم سلطان ولد مثل أبيه؟ وهذا كلّه بسبب درويش مشعوذ، مثل غيره من المهرطقين الهائمين الذين ينشرون الفوضى والتجديف حيث يروحون، وقد سلب مولانا عقله!

وتصاعد هذا المقت لشخص شمس الدين، حين بلغهم ذات يوم أن مولانا زار الحيّ اليهوديّ وابتاع منه زقّ نبيذ.

هتف مريد: "هذه قطعاً نميمة حاقدة. ليس لها أن تكون حقيقة!".

وبعد التحقّق بان أن مولانا مرّ صباحاً بصديقه اليهوديّ القديم تاجر النبيذ جوشوه، وطلب منه زقّ نبيذ. فكّر جوشوه في البداية أنها مزحة. فأنّى لمسلم، ومعلّم دينيّ مثله، طلبُ النبيذ؟ لكنَّ مولانا كان جاداً.

قال: "هذا طلب حبيبي شمس الدين؛ ولا أستفسر عما يطلب"، فمنحه جوشوه زقاً من أفضل نبيذ عنده، وأبى أن يتلقّى المقابل.

قال جوشوه: "يحميكَ ربّ الكون"، وردّ مولانا بابتسامة. فأردف جوشوه: "سترِدّ هذه الابتسامة الشمس إلى دكّان الفقير البائس".

صاح مريد: "وماذا أخبركَ؟". كان حسن صبياً قرابة السادسة عشرة، صديق علاء الدين ويركب معه الخيل بالميدان. قال: "أستاذنا ممسوس. وشمس الدين شيطان".

عبّرت كلمات حسن عما يتشكّك فيه المريدون جميعاً: شمس الدين شرّ؛ ليس لأنه يحرمهم من وجود معلّمهم وتعاليمه، بل الأسوأ أنه يوقع مولانا في الشرك ويبعده عن الله. كانوا ساخطين.

❖

كانت كيميا تكنس الفناء، حين عاد مولانا يحمل الزقّ. كان يوماً مشمساً، لا يزال برداً مقبولاً لكنه مملوء بوعد الربيع. مسّد رأسها وهو يسير بجانبها، ثم دخل غرفته مسرعاً. حين فتح الباب سمعت صوت شمس الدين: "عظيم يا صديقي. فهذا النبيذ يُبلغنا مجد الله، بأكثر من طريقة".

بعد لحظات خرج الرجلان، جلسا في الشمس على المقعد الحجريّ القديم اللصيق بالجدار الشرقيّ، وعلى مبعدة تكنس كيميا. لاحظت الزقّ يرتاح فوق حجر شمس الدين، وما أن شرعت في الرحيل حتى أوقفها. قال: "لا حاجة بكِ أن تذهبي". فكان أن تردّدت، هل طلب منها المكوث؟ فجلست متشكّكة بالمدخل تنظر للرجلين. من دون أن يلقي كثير بالٍ إليها، تناول شمس الدين الزقّ فنزع السدادة، ثم صبّ النبيذ ببطء ورويّة في الميزاب الضيّق الذي يجري حول الفناء. صبّ حتى كاد الزقّ يفرُغ، ثم أخرج من عباءته كوباً من الصفيح، ملأه بالنبيذ لمنتصفه.

قال وهو يُدني الكوب من شفتيه: "علينا أن نحطّم الأوثان"، واحتسى رشفة، ثم قدّم الكوب لمولانا الذي أدناه بدوره من شفتيه.

واصل شمس الدين: "الأوثان دعامة يتّخذها البشر لبلوغ الحقيقة ثم يستندون إليها". بدا صوته الخفيض العميق كأنه منبعث من بطنه لا حلقه. "والصيت أحد الأوثان، كذلك القوانين والعادات". بدا غاضباً، ثم (لدهشة كيميا) ضحك وهو يصيح: "اليوم، يا صديقي، حطّمتَ عدّة أوثان".

وابتسم مولانا، قال: "نيل الشراب من كوب لمسته شفتا صديق أحلى من نبيذ الدنيا".

طار فوقهم بغتة عصفور، جثم بشجرة الكستناء قرب الجدار الجنوبيّ. كان رمادياً مطعّماً بأزرق ناعم مع علامات بيض في جناحيه. ظلّ يدرّب حلقه ثم شرع في زقزقة متصاعدة بكلّ ما أُوتي من قوة. انفعلت كيميا في فضول. كلّ هذه الكثافة في هذا المخلوق الصغير!

دار نحوها شمس الدين: "في الكائنات كلّها، عرفتِ أم لم تعرفي، رغبة في الحمد". ثم وقف وهو يتكلّم، عيناه مغمضتان، وبدأ الدوران بطيئاً وذراعاه مطويتان على صدره.

❖

سمعت كيميا، وهي في السوق ثاني يومٍ، أن شمس الدين شيطان و"كم هو فظيع أن تعيش معه في منزل واحد!"، فابتعدت، تضرب صفحاً عن هذه التعليقات، لكنْ في قلبها تحسُ ثقلاً. ودّت الصراخ: "ليس هكذا قطّ. شمس الدين ليس شيطاناً، إنه جناح كبير، يشعل كلّ ما يلمسه؛ فهو حامل أنباء غير منطوق بها، و...". أحسّت بتمزّق داخلها فوقفت بمشيتها، لاهثةً تطلب الهواء. بدت المحالّ حولها تتمايل وقلبها يخفق بوجيب متسارع.

أحسّت بمن يأخذ بيدها، سمعت صوت كيره ناعماً هادئاً: "لنرجع، فالوقت تأخّر".

سألت كيميا فيما بعد: "ماذا حدث؟" وهي تجلس في المطبخ مع كيره، وبيدها كوب شاي.

قالت كيره: "جسمكِ يكبر، وروحكِ. يبدو الأمر غامراً أحياناً. لكنها عطيّة عظيمة، مع أنها عصيّة على التحمّل أحياناً". سكتت، ثم أردفت كمن يخاطب نفسه: "تتقلّب الأشياء سريعاً هذه الآونة".

❖

بعد أيام، وهي تجلس بالفناء تجهّز الخضار لوجبة العشاء، عبّرت أفكار كيميا أن هذه هي الحقيقة: الأشياء تتقلّب. لقد تقلّبت الأشياء. هناك قوة لا مرئية، شذا خفيٌ غمر منزل مولانا، مبدلاً كلّ خيط من حياته اليومية. وهي تلقط كُرّاثاً من السلّة، عند قدميها، سمعت وقع أقدام. رفعت بصرها، فدُهشت أن ترى شمس الدين يدخل الفناء.

سار نحوها فسأل: "هل لي أن أجلس معك؟" . كان صوته ليناً، من دون أثر من المهابة التي عهدتها؛ مع أن عينيه، كانت ثاقبتين كالسابق، بعثت فيها دَفقاً أليفاً من مشاعر متضاربة.

أومأت، في عجب من سؤاله. جلس على مبعدة ساكتاً، ورأسه محنيّ على حجره. تعي الآن أصوات المدينة، تكبتها الجدران حولهما. هدوء الفناء تغمره هذه القوة. فسألت، عاجزة عن وصال مهمتها: "هل تبريز مثل قونية؟"

رفع رأسه. قال كمن يكلّم نفسه، مستغرقاً: "تبريز، تبريز مدينة المساجد الزرقاء والسموات اللامعة. أما قونية فمدينة النور".

فانتظرت توضيحاً، لكنه واصل: "ورد تبريز صغير، أصفر شاحب، وقلبه دامٍ. ليس هناك مثل ورد قونية. لكنه سيُوجد يوماً".

شعرت بقلبها يتقافز في صدرها، ومن رجفتها جعلت السكين التي تمسكها تنسلّ من بين يديها. كلماته تحمل رسالة لم تفكّ شفرتها بعد.

واصل، مجافياً ردّ فعلها: "هناك أحياء بتبريز تنهض فيها أرواح القدّيسين ليلاً. ثم تروح زُرافات، كيمام أخضر وأحمر، في طيران إلى مكة، فتهيم حول الكعبة".

حدّقت فيه. يقول كلاماً عجيباً! تعرف بوجود يمام رماديّ متلألئ، لكنها لم تسمع عن يمام أخضر وأحمر. تحوم على شفتيه ابتسامة ماكرة، كسحابة عابرة. يبدو كالناظر فيما وراءها. فكّرت هل شمس يمامة خضراء أم حمراء؟

ردّ على سؤالها غير المنطوق: "إنني لا شيء، بالمقارنة مع ناس في تبريز". توقّف ثم قال: "تذكّري ورد تبريز. فهو قريب من الله، وحده القلب الدامي مَن يُلاقي الله". بدا كأنه يتذكّر ثم أردف: "لا يودّ الناس أن يعرفوا، وينسون سريعاً. أما حين تنتبه قلوبهم وتدمَى، فيسدون الشكوى لا الشكر". شطّت عيناه تحفران فيها. "لكنْ كيميا لا تَنسَي".

وقبل أن تعرف ماذا تنسى، دار مبتعداً فاختفى بالمنزل، وخلّفَها ترتجف في حيرة أكثر من ذي قبل.

❖

في الأيام والأسابيع التي تلت، وجدت أنه مهما كانت تنخرط في مَهمّة وضيعة، فلا تكفّ عينا شمس الدين عن ملاحقتها، مع ذلك كان يطوّقها سكون غريب طوال الوقت. اكتسبت مهامها نوعية مختلفة، أصبحت فعالاً للحمد والإخلاص. واكتشفت أنه لا يمكن أن تُعوّل على الزمن بأيّ حال. يبدو أبسط فعل أحياناً كأنه يدوم للأبد، وحين تنظر على ظلال الجدران ترى أنه مرّت دقائق. ويبدو أحياناً كأنها دقيقة أو نحوها، بينما هي في الحقيقة ساعات. لم تكن الحياة تعاقب لحظات غير مرتبطة، بل معزوفة جليّة واثقة، كلّ لحن متّصل مع الآخر بانسجام حاذق. بالمعزوفة جمال وبساطة لا ينبئ عنها شيء، مع أن كلّ لحن لا يتقدّم أو يتأخّر أبداً، والمدهش أكثر أنه اللحن الصحيح دائماً. على أنه ينبغي أن تمسك بكلّ لحن كما تمسك بعصفور في طيرانه الكامل. وتركها ذلك كلّه منتعشة لاهثة، من دون يقين مما قد يجيء.

صارت الحياة موسيقا، ثم (طبعاً) دخل العازفون. ذات مساء، دُعي رجل لمنزل مولانا مع نايه. بزغ من منزل مولانا تلك الليلة صوت بالغ الحنين مُنعش كالنسيم، كان يدعو، يترجّى، حزيناً أحياناً، مُبهجاً أحياناً. وفي الشارع، وقف العابرون.

يسألون "من أين هذه الموسيقا؟"، يهمس كلّ مع الآخر، آه، من منزل مولانا.

يتمتمون: "موسيقا! بمنزل مولانا! الذي لا يفتأ يبلغنا إن الموسيقا إلهاء عن الله!"، ومن جديد، يهزّ مواطنو قونية رؤوسهم مُنكرين.

❖

في غرفة مولانا، تندسُّ كيميا في عَالَم مجهول مع أُلفته. الوسادة التي تُريح عليها رأسها (والآن خدّها) خشنة مُفعمة برائحة دخان. من مكان بعيد يأتي صوت مولانا واهناً. تسمع رنين الأكواب على صينية النحاس، سعال شمس الدين الثقيل أحياناً، وزِد على ذلك كلّه الآن، أنين الناي المتصاعد، يتمدّد ثم يلبث كالمتوقّع حتى يدور على نفسه ليصبح لحناً طويلاً ثاقباً. من آنٍ لآخر تفتح عينيها، فتلمح نيراناً تتقافز لتغور بالمدفأة كأنها تتبع الموسيقا. يفرش الليل ساحته، والقمر رحّالة في السماء، بينما الحدود بين النوم واليقظة، هي نفسها وقد ضيّعت نفسها، صارت أشدّ نحولاً من حجاب.

قبل نداء الصلاة بالضبط، تقف الموسيقا. وتُبلغها أصوات مكبوتة برحيل العازفين والضيوف. آخر ما تسمعه صوت طيور مُبعثَرة مع أول تباشير الفجر.

❖

بعد أيام، بينما كانت تستعدّ للخروج، وتسترق السمع إلى شمس الدين يكلّم سلطان ولد. كانا خارجَين من غرفة مولانا ولم تُلْحَظ.

قال شمس الدين: "لا يعنيني كلامهم وشكواهم. فالمسألة غير ذلك". كان صوته قوياً، لكنه ليس غاضباً: "لا يعنيني بغضهم لي، وأنتَ تعرف. لكنّ إن كان وجودي يسبّب نزاعاً بالمدينة، فعليّ أن أرحل".

وقفتْ منزعجة. شمس الدين يرحل! إن وجوده حقاً يسبّب خصومة وغضباً، لكنّ ليس إلى درجة الرحيل! لا يتكلّم شمس الدين قطّ لمجرّد الكلام. فما يقوله، يعنيه. ابتعدت، تحسّ بالحزن فجأة، بوطأة ثقيلة في قلبها. فكّرت، مندهشة من نفسها، لا أريده أن يرحل.

- ١٥ -

بلغ (أكبر) السابعة عشرة وتحيّر. كان طويلاً بعينين سوداوين وشعر أسود مع جوّ من الثقة يجعل أصحابه يصدّقون أنه يعرف أكثر مما يفعل. سمع منذ سنين، وهو صغير، عن جلال الدين، المعلّم الكبير الذي يخصّص دروسه في المعهد عن الله وطرق الوصول إليه. كان يراه أحياناً يمخُر شوارع قونية مع مريديه، وكان بين من يتبعه من الصغار، على أمل أن يصبح ذات يوم بين مريديه أيضاً. هو الآن هكذا. كان يَفِد طوال العامين السابقين إلى دروس مولانا، وهو يبدأ بالقانون؛ ممعناً بوسائط البشر، قياساتهم وصراعاتهم عبر كلمات الله وتأويلات الحكماء والقدّيسين. كان عَالَم (أكبر) منظّماً، حيث الحياة بسيطة صافية. وحينما علم بوجود إله واحد ومحمد نبيّه، وأن يصلّي المرء خمس مرّات يومياً، ويزكّي، ويصوم رمضان الكريم، ويذهب إن شاء الله يوماً لقضاء فريضة الحجّ في مكة.

لكنه الآن أين يقف؟ الحدود الواضحة التي عيّنت حياته أصبحت شديدة الغموض. فمولانا، المعلّم الدينيّ الموقّر، مثاله الرائد، لم يعد يُعتَمد عليه - أو هكذا بدا. كان المريدون ملازمو (أكبر) يتّهمون مولانا بنسيان واجبه، بل الأسوأ، الهزء بالدين. أما (أكبر) فيقضي لياليه في بكاء وعذاب لا يُغني شيئاً، في سعي للإحساس بما لا يُحسّ. أحسّ بأنه مهجور، ضائع، مخدوع. فإلى مَن يتّجه؟ لم يعد مجدياً مشاركته هذه المشاعر مع رفاقه. فهم مثله حائرون غاضبون متبرمون. سأل بعضهم الإمام النصيحة، فأخبرهم أن ينسوا كلّ شيء عن مولانا ويعودوا إلى الله. لكن ذلك لم يجلب لهم الراحة. كأن الله نفسه هجرهم؛ وهي فكرة مُرعبة، تقارب التجديف، ما جعل (أكبر) يسقط في يأس أوعر قعراً.

ذات صباح، بعد ليلة أخرى مؤرّقة، فكّر (أكبر) فيمن قد يمدّ له يد العون: صدر الدين قنفاه. رجل موقّر، وسمعته لا يطاولها الخزي. قابل

منذ سنين الشيخ الأكبر، محيي الدين ابن عربي، وتزوّج ابنته فيما بعد. كما عُرف بأنه، بعد جدال عاصف نوعاً ما مع مولانا، توصّلا لإدراك أنهما يتشاركان في فهم مشترك لله وإبداعه، وقد صارا مقرّبين. يعيش صدر الدين في ضواحي قونية. منزله صغير مموّه، مختفٍ بين بساتين، وهو ما أخذ من (أكبر) وقتاً ليجده. فتح الباب بنفسه صدر الدين. بدا مندهشاً لرؤية (أكبر).

"ماذا أفعل من أجلكَ، يا بُنيّ؟"

تقدّم العمر بصدر الدين أكثر مما توقّع (أكبر). كان ظهره محنيّاً، وخطوط وجهه محدّدة، مع أن لحية مشذّبة أنيقة تُخفيه جزئياً.

دعاه صدر الدين: "تفضّل، تفضّل".

فدخل (أكبر) غير موقن من سبب وجوده عنده. يصدر عن المنزل رائحة شموع وعطر. أشار له صدر الدين إلى غرفة مفروشة بوسائد وسجّادتين باليتَين.

قال صدر الدين: "اجلس"، منتظراً أن يقول ضيفه شيئاً. جلس صدر الدين وأغمض عينيه، فتساءل (أكبر) إن كان غطّ في النوم.

قال (أكبر) أخيراً: "جئتُ طالباً نصحكَ".

فتح صدر الدين عينيه، نظر إلى (أكبر) نظرة عميقة، لكنه لم ينبس.

تمتم (أكبر): "لا أعرف ماذا أفعل". دارت الأفكار في رأسه، وقلبه ينتفض بين أضلاعه. توصّل أن يتلفّظ: "إنه مولانا"، ثم توقّف عاجزاً أن يستمرّ.

تسحّب صوت صدر الدين متأوّهاً.

اتّخذ الصمت هوية مختلفة. كأن الغرفة تنبض.

مال صدر الدين للحائط، شدّ سترته أكثر حول صدره. قال: "العَالَم، يا بُنيّ، ليس أبيضَ وأسودَ. ألم تكتشف أنه درجات من الرماديّ، ثم ضحك وأشرق وجهه: "ومن ألوان أخرى كثيرة؟"

عبس (أكبر). فماذا يقصد؟ أيّ أحجية يعرضها عليه صدر الدين؟

قال صدر الدين "أنتَ تفكّر في تعابير عن الخير والشرّ، الصواب والخطأ، الثواب والعقاب"، ثم واصل: "لكنه عَالَم الطفولة!". نَشُطَ وجهه، وبدا أصغر. أردف: "يلعب الصغار الاستغماء. يركبون جياداً خشبية ويستخدمون سيوفاً خشبية. ألا تزال على هذا؟". نبرة صوته صارمة، مع أنها مفعمة بالظُرف.

أحسّ (أكبر) بالدم يَتصاعَدُ إلى وجنتيه.

تظاهر صدر الدين بأنه لم يلاحظ: "سيحين وقت على القلب، بمواجهة ما لا يُتقَبّل، أن يتقبّل". سكت لحظة ثم أردف فكرته التالية: "هو امتحان، غذاء القلب لا اختيار فيه. قدر القلب أن يعانق كلّ شيء. فهل تفهم؟"

أحسّ (أكبر) بالمحنة. لقد طلب النصيحة، لكنَّ ما تلقّاه كان مُبهَمَاً. فظلّ ساكتاً.

كرّر صدر الدين: "قدر القلب أن يعانق كلّ شيء"، ويداه تمسكان كوناً غير مرئيّ "فهو لا يكتفي بجانب واحد من الكعكة". ضحك صدر الدين، ضحكة شابة. "يعانق كلّ شيء، الخير والشرّ، الفرَح والتَرَح، ولا علم له بالثواب والعقاب. هل تفهم؟"

كان (أكبر) ضائعاً، عالمه منقلب رأساً على عقب.

رثى صدر الدين لحاله. لانت عيناه "لا تحاول الفهم. الفهم سيأتي لاحقاً. جئتَ طلباً للنصح وهاهو: ارجع وتقبّل". واتّخذ صوت صدر الدين ضراوة غريبة: "تقبّل أنكَ لا تفهم شيئاً مما يدور حولكَ". وطرق الكلمات بيديه: "تقبّل أنه لا طريق لديكَ لتخيّل ما يجري. وعليكَ أن تتقبّل ألمكَ". سكت ثانية: "واحمد الله". ثم سكت ليدع (أكبر) يستوعب ما قال.

سأل صدر الدين فجأة: "تعرف أن التعلّم يأخذ أشكالاً عديدة، بما فيه شكل الجهل؟"

فدقّق (أكبر) في مُضيفه مرتعباً. فكلّ سؤال يطرحه عليه صدر الدين يمزّق جذور ما يعرفه، وما يؤمن به.

واصل صدر الدين: "دخل سيدنا عَالَماً من دون أبعاد. وكلّ من يحبّه سيُدخله هذا العَالَم، بمشيئة الله". وضع صدر الدين يده على ذراع (أكبر): "أنتَ لا تعلم يا بُنيّ إن الكنز في طريقه، سيبلغ مرساه بمشيئة الله. لكنّ تذكّر أن الألم ينسج نفسه بخيوط الحبّ والصبر. لا تدع الألم يسمِّمُكَ. فالسجّادة البديعة لا تُنسج في يوم واحد. لقد بدأتَ تواً".

ارتجف (أكبر). فقد أضرم الشررُ بعينَي صدر الدين النارَ التي أشعلها مولانا ذات يوم. فأحسّ كأنه يبكي. قال: "قلبي عطشان"، وهو يعزل كلّ ذريعة.

فأومأ صدر الدين: "هل فكّرتَ يوماً أن هذا العطش سبيلكَ إلى الله؟"

أغمض (أكبر) عينيه. كلمات صادمة غير متوقَّعة، مع أنه أحسّ بها بلسم قلبه.

أضاف: "إرواء عطشكَ من عمل الله؛ وليس مولانا، ولا من مداخلتي. وهذا العمل"، ثم أضاف: "سيستغرق مهما استغرق؛ وهذا كلّ شيء".

وقاطعت دقّة الباب صدر الدين.

فوضع يده على كتف (أكبر): "احفظ حبكَ لمولانا، لا تلوّثه، وسترى كلّ شيء على ما يرام في الوقت المناسب. لكنّ تذكّر، الصبر". نَطَقَ الكلمة الأخيرة على مهَلٍ، كما يفعل مَن يعلّم طفلاً كلمة جديدة. ثم ضحك ثانية، ووقف: "أعرف أن هذه الكلمة لا تسلب لبّ الشباب".

انتهى اللقاء، فراح للباب وخلفه (أكبر).

كانت بالمدخل فتاة، وشيء ملفوف في يديها بقماشة زرقاء.

هتف صدر الدين: "آه، أنت كيميا".

قالت كيميا "هذه حلوى ستسُرّكَ"، وقدّمت له لفّة من حلوى تركية.

استدار صدر الدين نحو (أكبر)، سأله: "صادفت كيميا مرة؟"

تـردّد (أكبر). فهـو يـرى كيميـا هنـا وهنـاك، لكنـه لم يكلّمهـا قـطّ. فالشبان لا يخالطون الفتيات. هـزَّ رأسـه نافياً، لا. لكنه يعلم أن كيميا أخت علاء الدين، فردٌ من عائلة مولانا. تطلّع فيها بفضول جديد. نور عينيها يذكّره بعينَي مولانا. تحملان النور نفسه.

سأل صدر الدين: "كيف حال مولانا؟"

فاستضاء وجه كيميا، قالت: "مولانـا بخـير"، وتطلّعت في قدميها لتُردف بنعومة: "إنه سعيد".

لاحظ (أكبر) أهدابها هذه المرة، كانت طويلة مقوّسة. أمر غريب! يبدو أن كثافة جداله مع صدر الدين قد تجلّت في هيئة هذه الفتاة.

قال فظاً: "سأذهب". انحنى إلى صدر الدين، وسار مبتعداً.

❖

لم يتأكّد إن كان يفرُّ أم يرقصُ. لقد جاء طلباً للنصح واليقين، لكنّ زال عنه القليل الذي عرفه (أو ظنّ أنه عرفه). رحل خاليَ الوفاض، على الرغم من أنه أضحى سعيداً. آه، لا يزال في العتمة، أكثر من ذي قبل، لكنّ في نهاية النفق، على مبعدة، هناك بصيص نور. هو النور الذي خَبِرَهُ ذات يوم حول مولانا، رآه من جديد اليوم، يطلّ من عينَي صدر الدين وعينَي كيميا.

حين اقترب من الميدان بفسقيته وأشجاره الدلب في خُضرتها الوليدة، رأى بعضاً من أصحابه يجلسون على عتبات المسجد. يتناقشون بحيوية. دفعه حافز ما فاستدار مبتعداً، دلف إلى أول حارة ضيّقة على يساره. لا تزال كلمات صدر الدين ترنّ بأذنيه: "لا تدع الألم يسمّمك".

فهمس لنفسه: "لن أفعل. لن أفعل".

- ١٦ -

أكثر من عام مضى. كأنه مرّ وقت طويل منذ أن كان يتعثّر بمشيته، فعليم فخور بإظهار قدرته الجديدة على السير. يركض بجانب كيره وكيميا حيثما تذهبان. وثانية يستحيل الربيع إلى صيف. ستعود أيام الحرّ اللافحة، ومعها تمتدّ الأمسيات الطويلة طلباً للبرودة. تتفجّر الحدائق في رُقَعٍ من الألوان، وكالعادة، تتقابل كيميا وخديجة آخر الظهيرة تحت ظلال الحور في حديقة قمر الدين. تسيران صامتتَين على طول سبيل تصطفّ عليه الورود بشذا روائحها. الوقت قبل الغروب وقبل الصلاة، حين يرتاح نشاط النهار بطيئاً، ريثما يلين النور والطير يحتشد لموسيقا المساء.

فَرَدَت كيميا ذراعيها، تتمتّع باللحظة. كان اليوم طويلاً ممتلئاً. الدورة على السوق كالمعتاد، ثم إطعام عليم وأخذه إلى الجيران، وقد ذهبت مع كيره لعيادة امرأة عليلة طريحة الفراش في جانب المدينة الآخر. تنظفّان لها المنزل، تعدّان بعض الحساء، ثم تجلسان جانب فراش العليلة. كانت عجوزاً، قُتل زوجها في حادث من زمان، ثم مات أولادها قبل أوانهم، ولم يعد لها مَن يقوم على رعايتها، عدا كيره وجاراتها المتعطّفات. تقول: "لقد تعبتُ من الحياة". ثم تفتّش عيناها في قلق عن عينَي كيره، تسألها: "متى أنضمّ إلى زوجي وأولادي؟ أخبريني، ماذا يقول مولانا؟"

فتضغط كيره يد المرأة. تقول: "ستنضمّين إليهم طبعاً". يجزم مولانا بأن الحبّ هو نهر الحياة الخالدة. وتردف: "إن حبك لزوجك وأولادك وحبهم لك، نهر. وهذا النهر سيحملكم جميعاً إلى البحرِ المحيطِ".

أغمضت المرأة عينيها؛ سالت على خدّيها دمعتان كبيرتان. فهامت سكينة غامرة على الغرفة، كجناحَي طائر كبير، أو طيّات عباءة شمس

الدين (لمَ عبرت خيال كيميا هذه الصورة؟). ثم بدت المرأة نائمة. حولهن صمت رنّان بشرر غير مرئيّ. تركن الصمت الذي ينبسط بالمكان، ثم سحبت كيره يدها، وبهدوء غادرتا المنزل. سارتا عائدتَين في صمت، مفعمتَين بسكينة الغرفة.

قالت كيميا حين بلغتا المنزل: "كان أمراً بديعاً".

بينما كيره تدفع الباب وتفتحه للدخول، دارت نحو كيميا: "الحبّ يأخذك على غفلة".

الحبّ! هل كان حبّاً، تلك السكينة التي عرفتها بجانب فراش العليلة؟ ظلّ السؤال يدور في بال كيميا وهي تؤدّي مَهامّها اليومية، جلب ماء، تجهيز الزلابية[1] للعشاء، جمع الملابس التي جفّت بالشمس طوال النهار. كان إحساس السكينة غامراً؛ جعلها تحسّ بالانتعاش والامتنان الهائل. يشبه ما أحسّت به تلك الليالي التي قضّتها بباب غرفة مُعتزَل مولانا وشمس الدين. الإحساس ذاته الذي يدفعها فَرِحة للغناء أحياناً، وباكية معولة حزينة أحياناً أخرى. الحبّ! أهوَ هو؟

ظلّت تفكّر فيه وهي مع خديجة تتبعان مدقّات حديقة قمر الدين. تهيمان فترة، من ثم تجلسان على حرف بركة بمنتصف الحديقة. فوقهما أوراق الحور وامضة في النسيم، بينما تتصيّد الشمس في الماء سمكاً يبثّ رسائل مُبهَمة بومض أحمر ذهبيّ. تفرد كيميا نفسها، تتمتّع باللحظة، وتسحب يدها لتداعب سطح الماء.

تنظر خديجة بفضول إلى صديقتها. تقول: "صحيح أن مولانا يخطِّط لحفلة طرب في حديقة آنا خاتون؟ سمعت أمي به في السوق".

أردفت نصف ضاحكة: "والمرء يسمع في السوق أشياء كثيرة".

---

1 – حلواء تُصنع من عجين رقيق تُصبُّ في الزيت وتقلى، ثم تعقد بالدبس.

رفعت كيميا يدها فنزّت قطرات الماء اللامعة إلى البركة: "سمعتُ آنا بعشق مولانا المستجدّ للطرب، فعرضت حديقتها لإقامة الحفلة. وتعرفين إن طاووس، صديقتها، ستعزف الهارْبَ وتغنّي".

فهتفت خديجة: "طاووس! هذه مُومس!"، وانزعجت: "أعرف أنها رمت بنفسها العام الفائت على قدمَي مولانا، وقال الناس: إنها عَدَلَت عن سبيلها، لكنها لا تزال!".

استهجنت كيميا: "يقول الناس! يقول الناس! ويقولون أيضاً: إن غناءها يجعلهم يبكون، ويطيّر النوم ليلاً. الحقيقة إن طاووس وآنا امرأتان مباركتان، وأخبرنا مولانا: إنها ستكون ليلة بديعة. فهل تأتين؟"

لم تردّ خديجة. أصبحت جادّة فجأة، قالت: "صحيح أن الناس يتكلّمون. لكنّ، تلك الهرطقة التي يسلكها مولانا تصدمهم. يقولون: إن شمس الدين يبعده عن اللّه"، ثم تردّدت: "والآن حفلة طرب، بنساء، ومع طاووس! فماذا يقولون هذه المرة؟"

أغمضت كيميا عينيها. فمن جديد: الشائعات، شحّ الإدراك، العداء. أحسّت بغضب دافق، فارتجفت كلّها. قالت كأمر بُتّ فيه: "يواصل الناس الشكوى والتذمّر، طبعاً. فلا حبَّ في قلوبهم؛ وهذا سبب شكواهم".

تتطفّل خديجة فتقول: "هل هذا ما ترين؟ أنت تعيشين مع مولانا، فردٌ من عائلته. فقولي لي، كيف حاله الآن، وشمس الدين يسكن بين ظهرانيكم؟ أمر عصيب".

نظرت كيميا إلى صديقتها، ممتنّة للسؤال. اعترفت: "أجل، عصيب. أفتقد مولانا. كان معنا وقتاً أطول؛ يقصّ علينا حكايات، يَسمعُني وأنا أقرأ القرآن؛ ويقوّم بياني الفارسيّ. أما الآن فلا نكاد نراه؛ حيث يقضي معظم وقته مع شمس الدين. ثم إنك تعلمين، هناك شائعات وشكاوى!"، وندّت عنها آهة: "لا يفهمون. وأنّى لهم الفهم!". وطار عصفور على البركة، فصرف انتباههما فجأة.

واصلت كيميا: "شمس الدين ليس وحشاً كما يتخيّل الناس. صحيح أننا كنا مرتاحين دافئين مع مولانا، وصحيح أن الوضع ليس مريحاً الآن، لكنّ، هناك شيء جديد، شيء...". وتردّدت، أغمضت عينيها، تحاول التشبّث بجوهر هذا الشيء. قالت في النهاية: "شيء يتغيّر. شمس الدين يُغيّرنا. لا أعرف كيف...".

وهي تتكلّم، ثقَبَ أذنيها صوت واضح. هلَّ بداخلها الشيء الغريب، يقصدها وحدها عمداً، بتحذير صارم. أعلن الصوت: "كُفّي. فهي أشياء يجب ألا تُلطّخها كلمات".

صمتا لوهلة. تسمعان من بعيد ضجّة أولاد يلعبون ووَقْع جواد يرهو[1] على الطريق. بدأ كلبٌ ينبح. فنظرت إلى خديجة التي تجلس جنبها غير واعية بما يدور، مع أنها مفعمة بالوداد ومخلصة على الدوام. ضغطت يدها فابتسمت خديجة سعيدة، واثقة من ردّ الابتسامة. مالت الشمس خلف الشجر، تطلي الحديقة بالذهب. وقفت كيميا، وقد توقّف الصوت في أذنيها مُسرعاً كما هلّ. سألتها ثانية: "ستأتين حفلة الطرب؟ سيأتي أبواك؟"

نظرت خديجة متشكّكة: "لا أعرف. لستُ متأكّدة".

خرجتا بطيئتَين من الحديقة. وبهرة مصابيح الزيت بالمحال تمنح الشوارع جواً من الاحتفال. غطّى نداء الصلاة المدينة. كان جمع من الفتيان، نادى أحدهم.

"كيميا، خديجة، انتظراني، سآتي معكما".

كان علاء الدين. فوقفت البنتان تنتظرانه. لاحظت كيميا أن (أكبر) الذي صادفته عند باب صدر الدين، بين الفتية. بدا غير مرتاح بالمرة. وهما تقفان هناك، سمعتا أحدهم يهتف غاضباً: "أخبرتكَ يجب أن

---

1 - يسير سيراً سهلاً.

يرحل شمس الدين، وإلا فلن يعود معلّمنا". كان حسن، أقرب أصحاب علاء الدين. نظرت البنتان كلّ للأخرى. كانت الكلمات صدًى لحوارهما.

قالت كيميا بجفاء: "لنمضِ"، وابتعدتا، فلمحهما تواً علاء الدين.

سأل: "لمَ لم تنتظراني؟"

قالت كيميا: "الوقت تأخّر، ولا يعجبني بعض أصحابكَ".

"تقصدين لا يعجبك كلامهم. لكنهم على حقّ -".

فقاطعته: "علاء الدين، أعرف ما تفكّر فيه، أنتَ وأصحابكَ، ولا أريد سماعه". دُهشَت من نفسها. فلم تكلّم علاء الدين هكذا من قبل.

وهو أيضاً أُخذَ بالمفاجأة. فوقف بمنتصف الحارة يتطلّع مصدوماً. كيميا وخديجة على بعد خطوات للأمام.

صرخ: "ومن تظنّين نفسك؟". بدأ يعوي ككلب، منزعجاً من منامه. ثم هتف: "بنات غبيات!"، وهو يقذف حجراً راح يتدحرج في الحارة.

❖

لم يكن تخطيط حفلة حديقة آنا سهلاً. في البداية استفهم سلطان ولد عن فكرة الحفل: "ألا تعرف، يا أبي، أنه سيشحذ ضغائن أعدائكَ؟"

فردّ مولانا: "طبعاً. لكنّ أيّ شيء سيشحذ غضبهم. فالمسألة، إحساسهم بالصواب. أما الموسيقا، فأنا نفسي كنتُ أصمّ عنها، حتى تنبّهت روحي بنور حبيبي شمس الدين، فسمعتُ ما لم أسمعه. ربما تُخرج الموسيقا القطن من آذانهم، أو من آذان بعضهم على الأقلّ".

رفضت طاووس الغناء وعزف الهارّب علناً. قالت: "غنائي لله، لا لأحد غيره".

لكنّ مولانا ردّ: إن حبّ الله معد، وناهيك عن الكلمات، فالموسيقا وأنشادُ مديح الله هي الشرر الذي قد يشعل القلوب. لانت طاووس، لكنّ بشرط: ألاّ يضع أحد عينيه عليها وهي تغنّي. فوافق مولانا.

وهكذا زالت العقبات، وتجهّزت الليلة لحفلة الطرب.

❖

كانت الليلة دافئة شذيّة بعطور الياسمين. سماء من حرير أسود، وظلّ قمر شمعيّ يراقب. رُفعت منصّة وعليها فُرشت سجّادة للعازفين. رُتبت وسائد في كلّ ناحية لجلوس الجمهور، بينما نُشرت مصابيح زيت بأرجاء الحديقة، فتلمح هنا وجهاً، هنا لمعة قفطان، هنا خُضرة شجيرة.

تقاطر ببطء جمع صغير: أصحاب مولانا؛ صدر الدين كنفاه، نامج الرازي، صلاح الدين زرقوب، الصائغ، وثلّة فتيان رفاق سلطان ولد، وقليل من مريدي مولانا – وامتنّت كيميا لمن دانوه لأنه لم يعد يعلّمهم. كان ضمنهم (أكبر)، الذي حوّل بصره حين لاحظها تتطلّع فيه. فكّرت، غريبة ضجّة المكان، لكن ليس كثيراً مع ثرثرة الناس (فأصواتهم مكبوتة كمن يخشى الحديث بصوت عالٍ) وهو متوقّع. أحسّت بتوتّر الجوّ، بمزيج من الحدس والإدراك. لمحت خديجة تجلس في الصفّ الأول مع أمها. كانت هادئة. المهمّ أنهما جاءتا على أيّ حال! كيميا سعيدة. أما آنا خاتون، صاحبة الحديقة، فلم تكن بعيدة عنهما، عيناها مُغمضتان، منسحبة إلى عَالَم يخصها وحدها. قُرب كيره مساحة خالية بجانبها، وهي تلوّح. فشقّت كيميا طريقها خلال الجمع للجلوس بين كيره وفسقية صغيرة ترسل رشاشاً من برودة على ذراعها.

لم تكد تجلس حتى دخل مولانا الحديقة مصحوباً بشمس الدين. أمام المنصّة، اتّخذ الرجلان مقعديهما، فصمت الجمع كلّه. ثم وقع أقدام، ويدا العازفون من وراء الشجر: رجل مع نايات بمقاسات مختلفة، وآخر بطنبورين، وثالث بربابة، يرتدي كلّ منهم قفطاناً فوق بنطال أسود وسيع. جلسوا على المنصّة، ولم يبدُ عليهم أنهم لاحظوا الجمهور، وبدأ ضبط الآلات.

لكنّ أين طاووس؟ بدأ الناس الهمس. هل أبَت المجيء؟ نبذت فكرة أن تعزف امرأة أمام جمع مُختَلط؟ بدأ العازفون فخمدت على مهَلٍ جرجرة الأقدام والهمسات. حين راحت الموسيقا تملأ الليل، لاحظت كيميا أن مولانا أغمض عينيه. وقد أحسّت بالحديقة تتفسح والليل ضيّع سطوته. تداعت لتغرق في الموسيقا، وكانت تُجفل حين تتوقّف ويبدأ الهمس ثانية. سمعت امرأة تسأل: "ألن تظهر طاووس قطّ؟". نحّى العازفون آلاتهم في استراحة. تطلّع الناس في مولانا؛ كان ساكناً بجلسته، عيناه لا تزالان مُغمضتَين. بجانبه، شمس الدين يحكّ ذقنه، شارد الفكر على ما يبدو.

ثم بانت نغمات، من مكان مجهول، كنقاط الماء تَترَى لتتساقط في الليل. الصوت من وراء العازفين، منعش بلّوريّ، ثم انبعث صوت مع اللحن، نقياً كماء الجبل. كان أكثر من صوت: ذبذبة نور تثقب الليل؛ شذا يمكن للمرء تنشّقه. غمرَ كيميا، فكأنه بَخّر جسمها. ثم أضحى شَفرة حادّة فغاضت أنفاسُها. كانت هي الصوت؛ كلّ نغمة ترقَى مع الليل. فسمت ثم مالت، ترجّت فانتحبت، ثم سمت ثانية، فانغمرت فرحة لا تُحتمل، وتحطّمت ألماً لا يُحتمل. صارت تيار ماء رائقاً، أوتارَ الهارِّب، وقد مُزِّقت أشلاء وجُمّعت أشلاء، كلّ ذلك معاً. ثم اختفى كلّ شيء.

ردّها برد جبينها للوراء. بمكان فوقها، يبدو صوت كيره قلقاً: "كيميا، أنت بخير؟". ففتحت عينيها. ضاع وميض الليل، وكانت كيره تضغط قماشة مبلّلة على حاجبها. تصرّح عيناها: "أعرف، أعرف. التحمّل صعب أحياناً".

تذكّرت كيميا حين صرخت يوماً في تجويف شجرة، وعجزت أن تفسّر ما خبرته. هذه المرة، لا حاجة للتفسير. فقد عرفت كيره. سمعت قُربها من يتمتم: "إنه صوت طاووس. ما من أحد غيرها يغنّي هكذا!".

وقف مولانا، قال: "المجد لله. حبّ الله يتجلّى في الأصوات الفائقة. ونسمع الليلة واحداً منها".

بجانبه شمس الدين، جبل منيع من الصمت، جالس ورأسه مائل على ركبتيه. يتطلّع الناس كلّ في الآخر متوفّزين، لكنّ وجوههم لانت، غسّلتها الموسيقا، كما فكّرت كيميا.

❖

قال ساخط: "نساء وموسيقا! أضاع مولانا حسّه! وكلّ هذا بسبب شحّاذ تبريز!".

كانت كيميا عند فاكهانيّ بأول السوق. الوقت مبكّر، والقليل من الناس. أدارت رأسها فرأت رجلين يجلسان على عربة على بُعد خطوات منها، منهمكَين في حوار.

ردّ أحدهما، ونبرة صوته مكبوحة نوعاً ما: "قد تكون على حقّ. حتى الآن كنتُ واثقاً من ثوبة مولانا إلى رشده، لكن يبدو أنه شذّ كثيراً عن سبيل الله"، وكان يهزّ رأسه معترضاً: "للشحّاذ سطوة بالغة على سيّدنا".

لم يَعيَا وجود كيميا، فواصل أحدهما: "تعرف ما قاله مولانا الليلة الماضية في حفلة الطرب؟ قال: أصوات النساء هي صوت الله. فأيّ هراء؟"

وصُدم الآخر: "حقاً قال؟ لكنه تجديف!".

دارت كيميا مبتعدة. تحسُ بالأسى. الأمر هكذا دائماً. فالناس يتكلّمون ويصدرون حكمهم عمّا لا علم لهم به. فلم يشهد أيّ من الرجلين، طبعاً، حفلة الطرب. وكانت ضائعة الفكر حين رأت أمّ خديجة قادمة نحوها. أم خديجة امرأة قزمة ذات عينين دافئتين سوداوين، سريعة إبداء الرأي، طُلب منها أم لا.

سألت: "كيف حالك اليوم؟ كنت دائخة البارحة!". من صوتها، تتبدّى لمحة شكّ أو حنق طفيف "اهتمّي بنفسك".

لم تستطع كيميا كتم الضحك. فقالت: "أهتمُ بنفسي. أظنّ كنتُ ساخنة قليلاً البارحة، وهذا كلّ شيء".

حدّقت فيها أمّ خديجة، تزن ردّ كيميا. فلم تقتنع. واصلت: "ستبلُغين قريباً. فجسمك يكبر ويتغيّر. أنت في حاجة للأكل والنوم". بيديها على مؤخّرتها، تبدو ربّةً غابرة، متوعّدة حامية معاً: "تعرفين يا كيميا، كنتُ أفكّر مؤخراً إن الله أبسط ممّا يصنعه الناس. فكلّ بُغية الله أن نعيش حياتنا من دون أن يؤذي أحدنا الآخر، وهذا كلّ شيء". وتبرق عيناها بيقين لا تهزّه ريح.

لم تعرف كيميا بمَ تردّ، فأومأت فيما أمّلت أن يبدو موافقة. قالت "عن إذنك. لم أبدأ تسوّقي بعد".

وافقت أمّ خديجة: "طبعاً، طبعاً"، لكنْ لم تُمهلها لحظة. قالت: "الموسيقا شيء عظيم، لكنَّ الحياة تمضي، وواجبنا نحن النساء أن نسهر على راحة رجالنا، سواء كانوا قدّيسين أم غير ذلك".

في عينيها مناخ استفزاز، فتساءلت كيميا عمّا تقصده، هل تُلمّح أنها مثل الكثيرين لديها تحفّظات على سُمعة شمس الدين وقداسته المزعومة؟

ابتعدت كيميا متبرّمة، تُعوزها القوة. تمضي من محلّ لآخر، تشتري من هنا كيس برقوق، ومن هناك كُرّاثاً وقَرعاً، لكنَّ قلبها تُثقله الخَشية وحضورها للتسوّق مُجهد. فوق مولانا وشمس الدين تتكاثف سحب، وهذه السحب تسودّ يوماً بعد آخر. فإلامَ يؤول الأمر؟

شقشق الفجر، فأعاد الحياة ببطء إلى كل أركان الغرفة: وردة المزهرية الوحيدة في عتبة النافذة، قطعة الحرير المطرَّزة على الجدار، وفوق مقعد بجانب فراشها أيقونة مريم العذراء التي وهبتها إياها أمها آفدكيا منذ نحو ست سنوات. لا تزال الطيور بشجرة السنط تعقد منتداها الصباحيّ في هياج من الزقزقة، ما جعل الصمت في المنزل محسوساً. حين أخذت نَفَساً عميقاً وهي توشك أن تنهض، سمعت عند بابها وقع أقدام تبعه صوت سلطان ولد.

"لا يا أبي، لم أرَه". هناك شارة قلق غير معهودة في صوته.

تبيّنت صوت كيره: "ربما خرج في نزهة قصيرة".

"محتمل، طبعاً...". وبدا صوت مولانا متعباً مرتاباً.

لبست كيميا، ثم راحت للمطبخ حيث لقيت كيره تنحني على المدفأة، لإذكاء النار.

قالت كيره: "سمعت"، وهي تدير رأسها نحو كيميا. ولم تُضف.

قالت كيميا: "راح شمس الدين". من دون أدنى شكّ في بالها؛ فلم ترَه. سألت: "كيف حال مولانا؟"

بدلاً من الردّ، قالت كيره: "خرج مع سلطان ولد بحثاً عن خبرٍ ما عنه".

بجانبها يلعب عليم بريش جناح دجاجة تناولوها بعشاء البارحة. يقول: "أنا عصفور، أستطيع الطيران"، ويفرد ذراعيه بالريش في كلّ يد.

ضحكت كيميا: "متأكّد، يا عليم؟ تعرف، لا يطير الدجاج عالياً".

"لستُ دجاجة!"، وكان عليم ساخطاً: "أنا نسر، والنسور تطير عالياً".

قالت: "هكذا"، ومرّت ببالها لحظة صورة شمس الدين وهي تطير عالياً فوق قونية، وتذكُّر حوارهما من أسابيع، حين تكلّم عن يمام أخضر

وأحمر. كانت تتساءل: هل طار شمس الدين عائداً إلى تبريز؟ لم يكن شمس الدين يمامة؛ فله جناحان ضخمان ينبسطان فوقكَ ويسهران على حمايتكَ، جناحان قد يأخذانكَ أيضاً، لو أرادا، تجاه طرف العَالَم الآخر. كانت ذكرى الحوار حيوية، حتى تخيّلت شمس الدين، لوهلة، يجلس بجانبها.

ثم جاء عليم راكضاً نحوها، ممسكاً ريش الدجاجة في يديه. قال: "هاه، أنا أطير".

وساعتها دخل مولانا، خلفه سلطان ولد.

استفهمت كيره: "سمعتَ بشيء؟"

هزّ زوجها رأسه بالنفي. كان ينظر مصدوماً، شاحباً.

قال سلطان ولد: "ليس كثيراً. فلم يرَه أحد. أخبرنا قسٌ أنه رأى رجلاً طويلاً يخرج من البوابة الكبيرة قبل الفجر. لكنْ لم يرَ وجهه. كانت الظلمة حالكة".

جلس مولانا متثاقلاً، تسيل دمعتان على خدّيه. دمدم: "غاب. والشمس غابت". وكان صحيحاً. راح المنزل في عتمة، غائماً تحت حجاب من الحزن.

مرت أيام. عرف كلّ من في قونية أن شمس الدين رحل عن المدينة.

سَعد مريدو مولانا: "غاب، أخيراً. سيعود كلّ شيء إلى أصله. ويعود مولانا ليعلّم من جديد. سينسى شمس الدين وكلّ هذا الجنون".

أنصتت كيميا، فأحسّت ما يشبه البكاء: "ليس الأمر هكذا. فمولانا يتألّم؛ ولن يعود إلى معهده. لن يعود ليعلّمكم. ألا ترون، ألا تحسّون أحزانه؟"

يصرف مولانا الآن معظم وقته في غرفته، يسطّر رسائل وقصائد لشمس الدين. يخرج أحياناً ليستفسر عمّا إن سمع أحد عن صديقه. يسأل المسافرين: "هل سمعتم عن رجل يُدعى شمس الدين، من تبريز؟ رأيتموه؟"

ولا يجيبه أحد. يرجوهم، وبعضهم كان أبعد من الشفقة، يقولون: إنهم رأوا من يشبه شمس الدين. فينتعش أمل مولانا ساعات، ثم يغمره الألم من جديد. وعندئذ، تخرج كيميا فتجلس بجانبه. تأخذ بيده أحياناً، وتدفن خدّها في راحته. يبتسم ويقول: "كيميا، آه يا كيميا، لمَ رحل؟"، وهي تفكّر في ورد تبريز وقلبه الدامي.

جاء البعض من المريدين القدامى للجلوس عند قدمَي مولاهم. نظر إليهم غائباً. بدت الحياة وقد خلت منه.

فأبلغوا: "استحال منزل مولانا إلى مقبرة. وضاع البريق من عينَي مولانا".

صحيح. فالسعادة هجرت المنزل. حتى عليم الصغير كتم صوته، وأبطل ركضه في المنزل، كأنه يخشى الثقل الذي طحن الجدران، بينما كيره قلقة على مولانا، فقد عاد يأبى الطعام.

مرّت أسابيع وأشهر. تعطّلت الحياة مؤقتاً. هلّ الخريف، ثم الشتاء، حتى استيقظت كيميا على طائر لحوح ذات صباح يبثّ رسالة فرح عارمة عند شبّاكها. فكان أن غمرها يقينٌ مفاجئ: سيرجع شمس الدين قريباً.

فيما بعد كلّمت كيره: "شمس الدين يستعدّ. فقد مرّ وقت طويل".

لم تستفهم كيره عن يقينها. قالت ببساطة: "سيسعد مولانا" ونظرت كلٌّ إلى الأخرى، سعيدتَين من حدس النساء بالأحوال.

في اليوم نفسه طرق الباب أحد القادمين من سوريا محمّلاً بأخبار، أن شمس شُوهد في دمشق منذ أسابيع "يلعب شطرنجاً مع كاهن من الفرنجة قرب الجامع الكبير". فبُعثت تواً رسالة ومن دمشق وصل الردّ. قال: "أشعة الشمس قد يُغيّبها الغمام، لكنّ نور الشمس يبثّ نوره على الأرض. قد يختفي الورد عن العيون، لكنّ الريح تحمل شذاه. ألا تعرف أن القلب قد يحسّ، لكنّ الأرواح لا تكفّ عن التخاطر؟"

❖

بعد أسبوع، أول الصباح، غادر سلطان ولد إلى سوريا، يصحبه جمع صغير. في قبضة الشتاء، تصحو المدينة. تجمّع حشد قليل. كان بخار محدود يرتفع من مناخر الخيل وهي تصهل وترفس، متبرّمة للرحيل. عند عتبة المنزل، وهو يضع يدي كيميا في يديه، ترجّى مولانا ابنه: "بلّغه أن الأرض في حاجة للدفء كحاجتها لنور الشمس".

أومأ سلطان ولد، مؤمّناً. قَبَّلَ كفّ والده، ويده عند قلبه، ثم قفز على جواده. لم يعد الجمع الصغير، متبوعاً بحشد من المتطفّلين، غير سحابة غبار خلّفها خلفه.

صاح مولانا: "هل سيعود؟"

تطلّعت إليه كيميا، قالت: "آه، سيعود"، وهمّا للدخول إلى المنزل. كيف يشكّ مولانا؟

نظر كأنه يكتشفها بعد أشهر الغياب. قال، مندهشاً: "كبرتِ كثيراً".

عاد إلى غرفته، تاركاً إياها وحيدة في عتمة الممرّ. نعم، كانت على يقين من عودة شمس، لكن، لو سُئلت، فلن تقدر على القول ما إذا كان هذا سيجعلها سعيدة أم لا. فكلّ ما أحسّت به كان اضطراباً عظيماً. فركضت إلى حجرتها، تلقي بنفسها على الفراش وتتفجر في الدموع. كان ذلك راحة؟ كان خوفاً؟ لم تستطع القول.

❖

عاد للربيع ازدهاره. طال النهار وقصُر الليل. دنا قطاف المشمش، والخوخ صار أحمرَ مخملياً. ذات صباح، وصلت الأنباء: سلطان ولد قادمٌ، ومعه شمس الدين. يصلان في غضون ساعات. أكثر من ثلاثة أشهر خلت، بعد رحيل الجمع الصغير على رأسه سلطان ولد.

❖

في الصباح نفسه، بدأ عليم الركض بالمنزل من جديد. في الخارج، الحشود قرب بوابة المدينة ويتحولون إلى متاريس بشرية. تأخذ كيره

وكيميا مرطبانَي العسل واللوز من رفوف المطبخ لتجهيز قدر الحلوى في احتفال كبير. ثم تركضان لتلحقا بالحشد الذي يترقّب المسافرين. تنظر كيميا في عجب من تقلّب الناس. أليس غريباً؟ ليس هنا من ظلّ على وفائه لمولانا، بل كلّ مَن اشتكى من شمس الدين وأثره الشرير في مولانا، كلّ من أدان شمس الدين وأرغمه على الرحيل. يعربدون، الآن، لعودته! فهل نَسَوا؟

تتأمّل حين اختفى شمس الدين منذ عامٍ تقريباً، كانت طفلة. والآن هي امرأة. فقد خبرت أول آلام حيضها منذ أشهر، وسعدت كيره لبلوغها نضج المرأة. فكّرت كيميا، تغيّرتُ. ربما تغيّر هؤلاء، أيضاً. نظرت حولها. أصحاب المحالّ، الكتَبَة والقضاة، الحرفيّون والمريدون. بعضهم نادم، يَعِدُ بأنه لن يدفع شمس الدين إلى الرحيل ثانية، لن يجرّ مولانا إلى اليأس ثانية. قالوا، آسفين: "لم نكن نعرف".

تجمّع حشد العازفين، منشغلين بتجهيز آلاتهم. بينما يقف بمقدمة الحشد مولانا، عند طرف جرف صغير مطلّ على الطريق، يرقُب سلطان ولد ورفاقه. ومعه أقرب أصحابه، صلاح الدين زرقوب الصائغ، صدر الدين قانفاه المشهور بمعرفة تضاهي تقريباً مولانا، وخلفهما مريده الأمين حسام الدين. دمدم الحشد فجأة، ثم تفرّق مع ظهور السلطان علاء الدين قيقباد وحاشيته يعتلون الخيل، وراءهم محفّة بزوج السلطان مخفيّة وراء السُتُر. حمل المحفّة أربعة شداد فأناخوا بها بجانب النساء، وكن ينتحين جانباً في نظام من الألوان. على التلال المحيطة بالحشد، ماج العشب الجديد بنسيم الصباح، بينما طفت قطع من غمام أبيض على المشهد كأنها تراقبه. ثم انبعثت صرخة وسط الحشد علت نحو هدير: "شمس الدين عاد. والشمس عادت!".

ثار عند حنية الطريق سحاب غبار وظهر الخيل، مع جمع خلفه على الأقدام. كيميا تحسّ بقلبها يطفر، مفعماً بالبهجة المحتارة الممزوجة بالخوف، كما كانت لدى أول وصول لشمس الدين إلى قونية.

السائر بالمقدمة، سلطان ولد، يتشبّث بلجام جواد شمس الدين. وقف، فترجّل شمس الدين. صمد شمس الدين بشمس الظهيرة وهو يحدّق في مولانا الذي بدا مصعوقاً بنور خفيّ. وراح الحشد في صمت. تطلّع الجميع في مولانا وشمس الدين، وهما ينتضيان كلٌّ نحو الآخر، ثم يقع كلٌّ في حضن الآخر. برزت فجأة صرخة عظيمة من الحشد، وبدأ العازفون على آلاتهم.

قالت كيره: "حان وقت الذهاب"، ولاحظت كيميا عينيها مبلّلتين: "هيا إلى المنزل".

عند وصولهم، كان علاء الدين بالمدخل.

قال مبتسماً "إذن عاد. قد لا ينسانا أبي هذه المرة".

قالت كيره بحزم: "أبوكم لم ينسكم. أعرف ذلك. لكنْ ربما تفهمه هذه المرة".

فلم يردّ علاء الدين؛ بل دار نحو كيميا، قال: "وأنتِ، أختي الصغيرة، ماذا تفعلين؟ أراك لا تعبّرين عن سعادتك".

فتأوّهت كيره: "علاء الدين، ليس لكَ إلا أن تتبرّم دائماً، تجادل أو تشكو؟"

بدت مُتعَبة، وخجل علاء الدين؛ ثم قفز فتناول يد كيره وقبّلها. قال: "أنت على حقّ. فلا راحة لي مع نفسي". وفرّ هارباً.

هزّت كيره رأسها "ولد تعيس، لا نملك حياله شيئاً".

- ١٨ -

غاض الانتظار، وحلّت القداسة بالمنزل مُذْ رُفِعَ عنه رحيل شمس الدين. بعودته، عادت الفرحة. وعاد طبعاً مولانا وشمس الدين لقضاء وقتهما معاً من جديد. ومع افتقاد كيميا لليالي التي كان مولانا يقصّ فيها حكاية، أو يعينها على قراءة سطر من قصيدة، إلا أنها تعلّمت الركون إلى نفسها، ومثلما كان حزنه طوال الأشهر القليلة الماضية، بسطت سعادة مولانا ظلّها.

كانت بالمطبخ تقلّب مزيج الخضار على النار، وتفكّر في شمس الدين. إنه باب، فكّرت فجأة، باب كبير يفضي إلى "شيء" ليس لي أن أعرّفه حين أحسّ به. كلّ مرة تلمح هذا "الشيء"، يجلب وضوحاً جَموحاً إلى حياتها، يُقوّتها فتحسّ بالكمال؛ يفعمها بحسّ من العزم علاوة على الفرح والامتنان. وجدها بالقرية، تذكُر، وكان ينتظرها هنا في قونية، كما حدث في ظهيرة الثلج مع خديجة، أو عندما تنصت إلى طاووس في حديقة آنا. في القرية غمرتها التجربة، وقد أرعبها، حين نظر يومها شمس الدين في عمق عينيها للمرة الأولى، فأرداها في حيرة.

أدركت أن هذا "الشيء" دوماً هبة. فهو يبدو أحياناً كزلزال داخليّ صغير، يخلّفها تلهث. أو كثغرة إلى عَالَم مرتجّ وصامت، لكنه حتى الآن يهلّ دائماً من دون أن تتوقّع وكأنه مصادفة. مع رجعة شمس الدين، تعود هذه اللحظات حجاباً، ووجوده يسمح بالقُرب متى شاء المرء أن يدخل المكان فيبلغ قلبها الرضا. لكنّ شيئاً قد تغيّر: لا يزال مشتبكاً في تعب مع الفرحة التي تحسّ بها عطش للمزيد، أشدّ ألماً وأكثر حدّة مما كان قبلاً. هل أنا جاحدة؟ رأت مولانا لوهلة هارية يبتسم إليها في ثقة مؤكّدة، كمن يقول: (لا، أنت مخطئة). رأت الملعقة الخشبية التي تقلّب بها الخضار. ألم يكن شمس الدين يقلّب قونية وكلّ ما بالمنزل في صحن شذيّ الرائحة؟ ضحكت للفكرة.

"كيميا، تحلمين؟"

دُهشت من رؤية كيره تقف أمامها وعليم بين ذراعيها مع بصيص من السرور في عينيها. تلوّى عليم بحضنها وهو يتملّص منها ليهبط الأرض، وذهبت كيره لتجلس في تجويف النافذة.

دعتها كيره: "تعالَي إلى جانبي"، كأن وجبة العائلة فقدت أولويتها. وضعت كيميا ملعقتها بغتة. وهي تمسح يديها بمنشفة، وراحت تجلس بجانب كيره.

بدأت كيره: "طلب مني مولانا أن أتكلّم معك".

فعَقَلتها هبّة رعب. ولمَ الخوف؟ تساءلت. ألأنَّ كيره رزينة على غير العادة؟ وقد دار فكرها، يجب ألا أخاف، فليس ثمة ما أخاف منه.

قالت كيره: "منذ عودة شمس الدين، يفكّر مولانا أن رفيقه جزء من حياتهم، ويودّ أن يغلّف هذا الشعور برابطة يعرفها الجميع". سمعت الكلمات من دون أن تفهمها. فماذا تقصد كيره؟ وعَلقت كلمة "زواج" في الهواء.

"ما رأيك، يا كيميا؟"

فتُحدّق في كيره، مُحيّرة. فماذا يُفترض أن تفكّر؟ زواج؟ سألت: "زواج ممّن؟"

أخذت يدها كيره. قالت: "يفكّر مولانا أن يزوّجك أنتِ وشمس الدين. فهل يعجبك؟"

أحسّت كيميا بجسدها يرتجف. ولم تستطع التفكير.

قالت كيره: "إنه لشرف عظيم، لكنه ليس هيناً". صمتت فترة، وأردفت بفكرة أخرى: "الزواج عمل شاقّ أحياناً، وكلّما عَظُمَ قدر الرجل زاد المطلوب منك".

فغطّت كيميا وجهها بين يديها، يغلبها فيض انفعالات: فزعٌ في البداية، ثم إثارة، ثم شكّ. فكيف تتزوّج رجلاً بهذه الطاقة، مثل شمس الدين! وماذا يعني أن تتزوّجه؟ نزعت يديها عن وجهها، تتطلّع في كيره، تنشد منها العون في صمت.

قالت كيره: "كيميا، لقد كبرت هنا معنا و–".

قاطعها صخب. كان عليم، بالملعقة الخشبية في يده، يطرق بعنف على مرجل نحاسيّ بطرف الغرفة البعيدة: "ماما، أنا أول العسكر".

رحّبت كيميا، وقلبها يدقّ في صدرها، بمقاطعته. فتنفّسها لهاث.

فتردّ كيره: "عليم، ممتاز، لكنّ العسكر وصلوا ويرغبون في الراحة".

حنق عليم وزمّ شفتيه. لم يكن واثقاً أنه موافق. فضرب بالملعقة مرات قليلة على المرجل، ومع آهة، أومأ أخيراً موافقاً: "العسكر تعبان. سيرتاحون".

قالت كيره: "آه، سيفكّون الأمتعة وينصبون الخيام". وكرّت نحو كيميا، تواصل: "هل تعرفين يا كيميا، لا أطلب ردّك الآن"، ثم ضحكت: "أرخي العنان لنفسك فترة. مثل العسكر".

ضحكت كيميا، خالية البال. فكّرت، للحياة دروب في بثّ خيوط بأشكال مختلفة في آنٍ واحد، تُحيّركَ، لكنها تمهلكَ أيضاً وقت الحاجة.

أضافت كيره: "لا يلزم أن تقرّري. ستعرفين حين ينضج الأمر". وكانت عينا كيره مفعمتَين بشررٍ صغير، لكنّ نورهما دافئ مُطمئن.

نكصت موجة الانفعالات، فتنفّست كيميا بحريّة أكثر. انقضى الخوف، والشكوك، حتى الانفعال. أحسّت بكثير من الهدوء. فأغمضت عينيها. كيره على حقّ. لا يلزم أن تقرّر، ولا شيء تقلق بشأنه. عليها أن تنصت لداخلها، فهي تنسى ذلك غالباً.

جلستا صامتتَين، ثم وقفت كيره تتطلّع في عليم على الأرض بركن الغرفة: "مؤكّد، هذا الطفل جائع؛ سأُطعمه".

عادت كيميا إلى الطبخ، فالتقطت الجزر من الوعاء. طعمه حلو. وأدركت أنها هي الأخرى جائعة. فقالت: "الطعام جاهز"، وهي تلفظ الكلمات صادفت عينَي كيره، فبدأ الضحك يغمرهما، فالفكرة دارت بخلدهما معاً. مرّ على الطبخ وقت طويل، والآن "الطعام جاهز".

قالت كيميا: "كيره، سأتزوّج شمس الدين". ودُهشت من حسّها بالسكينة.

ردّت كيره بهدوء: "أعرف. لن يكون غير ذلك". ولم تُضِف بمزيد، كأن شيئاً لم يكن، وواصلت كلّ مَهمّتها.

أعلن عليم: "يريد العسكر الأكل"، وكانت كيميا تغمر المغرَفة بالوعاء. وبدافع مجهول تركت المغرفة، ثم رفعت الطفل بين ذراعيها تقبّله، وهو يصرخ من الانفعال. قالت: "آه، العسكر جائعون، وسيأكلون".

ضحكت كيره مثل بنت صغيرة، سألت: "أخبر مولانا؟"

فتوقّفت كيميا وهي تذرع المكان، أنزلت عليماً.

اشتكى الطفل: "جوعان، أنا جوعان".

وكيره تنتظر.

تتردّد كيميا، ثانية. تدّعي أن شيئاً لم يكن. لا تزال حرّة، طفلة إلا قليلاً. انقبض تنفّسها، كأنها توشك على الغطس في جدول جبليّ بارد.

توصّلت أن تقول: "طيب. أخبريه". فكّرت، هناك صفحة وانطوت. غريب! كتاب حياتها مقروء ومكتوب، في الوقت نفسه. أليس ذلك قصد كيره وهي تقول: "لا يلزم أن تقرّري". هناك لحظات كهذه، يكون القارئ والكاتب واحداً. قرأت سطوراً من كتاب حياتها، وقراءتها هي كتابتها ذاتها.

حين لمّت شملها الغرفة، فيما بعد، أدركت أنها لم تتكلّم هي أو كيره قطّ عن شمس الدين. مثل التواطؤ مع شائعات قونية. تقبّلتا الأمر كتقبّل الطقس. كان شمس الدين ريحاً عاصفة تكسح العَالَم. هبّت الريح، فانقشعت، ثم هبّت من جديد. تُحيل نفسها بعزم إلى نسيم رَخيّ أو عصف أهوج. ولا تُسأل الريح عن أسبابها أو مسوّغاتها. فهي تحمل المرء أو تكسحه. فإلى أين يحملها هو؟ راحت في النوم وهي تتساءل.

في ساعات الظهيرة المتأخّرة، يهدهد النور العَالَم برقّة متجدّدة. وقت كيميا المفضّل، حين يتوقّف كلّ شيء ويسترسل المرء في أحداث النهار.

تجلس في الفناء مع خديجة تحت ظلّ شجرة السنط، يراقبان عليماً، وهو يرشّ شجرة ورد بجدّية بستانيّ مبتدئ.

منذ الإعلان عن زواجها، كرّ الصيف. الليالي الطوال على شرفة السطح، قطاف الفاكهة أول الصبح قبل أن يُجبر الحَرُّ الجميع على اللجوء للداخل، التنزّه البطيء بحديقة قمر الدين بعد صلاة العشاء؛ كلّه كاد ينتهي. حمل الهواء برودة جديدة، فبانت لأوراق الشجر نظرة مُنهَكة تُعلن وصول الخريف. في حياتها، فكّرت، كلّ شيء يُغيّر لونه في حذق، يجهّز نفسه لدورة الحوادث المتوالية.

شحبت بطيئاً أول التعليقات عن زواجها المزمع. قال البعض: إن مثل هذه الزيجة شيء طيب، ستُقرّب من شمس الدين، مثله مثل أيّ امرئ غيره. لكنّ النسوة تساءلن، أيّ نوع من الأزواج سيكون شمس الدين؟ علّقن: "مثله من الرجال لا يُروّضون"، يهززن رؤوسهن عارفات. ثم دارت النساء بعد فترة لشؤون أخرى. ماذا ستلبس كيميا للعُرس؟ هل سيُدعى كثيرون؟ من سيُجهّز الطعام؟

ظلّت خديجة هادئة، سألت مرة: "ألست خائفة؟"، وحاولت كيميا أن تفسّر (لنفسها، أكثر منها لخديجة) خوفها، مع أنها كانت مُوقنة من قرارها.

"فقط أساير المطلوب".

حدّقت فيها خديجة ببلهٍ معتاد. علّقت: "إذن فليس قرارك".

ردّت كيميا، على العكس، فموافقتها على الزواج من شمس الدين قرارها المؤكَّد. "كما ترين، نحن النساء إما نرفض أو نقبل ما يُعرض علينا، لكنّ الشيء الوحيد المهمّ أن نعرف إن كان مكتوباً علينا أم لا. وحين نعرف، يُفضّل أن نتقبّل وندع الحياة تأخذ مجراها. يبدو كلّ شيء كغيره، مع أننا نحسّه مختلفاً".

سألت خديجة: "إذن أنت سعيدة؟"

فاجأ كيميا السؤالُ. فلم تسأله لنفسها ذات مرة: "لا أعرف". فهل السعادة المعيار الذي قد نقيس به حياة المرء؟ ولم تُوقن من شيء. اعترفت كيميا: "هناك لحظات أحسّ فيها بالحزن. الحياة تتغيّر، وليس للمرء أن يعود كما كان".

تذكّرت تحذير مولانا من سنين خلت. كانا جالسَين بغرفته، يميل إلى ديوان شعر، والقصيدة التي يقرأانها عن جدول يسيل من الجبل. أنعشت ذكريات حياتها بالقرية، ومعها جاش حزن وشوق لما مرّ. فأخذ مولانا ذقنها بيده وتطلّع في عينيها.

"أعرف يا كيميا. الحنين ساحرة قوية ماكرة. إن لم تحرصي، فستغويك بالعودة إلى الماضي وتمصّ الدم من حياتك. فتجدين نفسك صفَر اليدين بأحلام مبهمة لا تجلب الراحة".

ارتجفت من رؤية ساحرة تسعى للقبض عليها بين مخالبها.

واصل مولانا: "كيميا، الله العزيز هنا أمامك، بهذه اللحظة الآنية. لو انشغلت بالنظر إلى الماضي أو المستقبل فلن تريه سبحانه؛ ستنسينه. وإن نسيته" (ثم هزّ مولانا رأسه) "فلن تستحقّ الحياة عندئذ أن تُعاش".

أمر بسيط، مع أنه عصيب، أن يُلمح المرء برغبة أن يوقف الحياة بمجراها. هيّأت نفسها للخروج من الحالة، وخديجة تراقبها، يمتزج فضولها بالاهتمام.

قفزت كيميا على قدميها: "خديجة، لا تقلقي. سألتني ما إن كنتُ خائفة، وكيف يكون المرء خائفاً أو حزيناً، لا يعني أنه ارتكب خطأ. يعني فقط أنه لا ينصت بعناية".

صاحت خديجة: "كيميا، جُننتُ منك. فلا أفهم ما تقولين. أظنّ أحياناً أنك لا تعرفين شيئاً عن الحياة"، وتهزّ قبضتيها إيماء على الإحباط: "ثم أظنّ أني مَن لا يعرف شيئاً عن الحياة".

ضحكت كيميا: "كلانا لا يعرف. هناك الكثير لنتعلّمه! لكني أعرف أنك تجعلينني أضحك وأني أحبك". ثم أخذت عليماً بين ذراعيها ودارت على كعبيها، والطفل يصرخ سعيداً.

- ٢٠ -

وقف إزاءها صدر الدين قانفاه. كما يفعل غالباً بأوقات أخرى، كان صديق مولانا القديم إمام الصلاة، واليوم إمام عُرسها. يقف بجانبها جبل عالٍ صموت، مَن أرجفت عيناه روحها، مَن منحه مولانا قلبه، شمس الدين، زوجها المُزمَع.

تلبس قفطاناً برتقالياً، تزيّنه عند الرقبة والرسغين خيوط ذهبية. شَعرها، المفروق من منتصفه، يغطّيه حجاب قطنيّ أبيض مثبّت بتاج صغير من فضة ولؤلؤ (أهدتها إياه كيره). يُخفي وجهها الحجاب، المنسوج بخيوط تقليدية من سبعة ألوان، حيث تَرى ولا تُرى أمام الحاضرين. يفغمُ[1] وعيَها غامضاً عطرُ المسك الذي دعكته كيره في رقبتها ورُسغيها. غريب أن تحسّ بهدوء الآن، بعد هياج الأسابيع الماضية، حين كانت كفيرها مشغولة بتحضيرات العرس: الطعام، رداؤها، قائمة الضيوف. لكنهم دعوا قليلاً: أقرب أصحاب مولانا، صديقاتها المقربات مثل خديجة ونوران، مع عائلتيهما.

كانت الغرفة متوهّجة بالشموع، شذيّة من عطر الورد والياسمين بزينة الجدران. فوق اللهب المتراقص، يرتجف الهواء كأنه استحال سائلاً، ومن حجابها ترى المشهد كلّه نوعية خيالية. تحسّ أنها ضيف ينظر من بعيد على عُرسها أكثر منها العروس الحاضرة.

يجلس مولانا على بُعد خطوات من صدر الدين. يشعّ أخضر عينيه المزرقّ بنور غير معهود. خلف مولانا وصدر الدين يقف سلطان ولد وعلاء الدين، مع ثلّة من أصحابهما، كلّهم رزين، ومجموعة عجائز تراهم

---

1 - يملأ.

كيميا أحياناً بغرفة مولانا. بجانب الغرفة الأخرى، على بُعد طفيف، تجلس الزوجات والشابات على وسائد وضعت هناك للمناسبة. على النقيض من أوجه النساء المرحة حول كيره، تجلس كيميا منتصبة، صارم وجهها. فيمَ تفكّر؟ فزع كثير من أهل قونية، فقد كان طبعاً أغرب عرس، تتزاحم فيه التقاليد المسيحية مع الإسلامية. ألأنَّ كيره تستتكف تلك العادة الصارمة في الفصل الكليّ بين العروس والعريس؟ هل تأسف لكون العروس لن تذهب لتعيش مع عائلة زوجها الجديدة؟ ألأنَّ شمس الدين ليس له بيت أو عائلة؟ ثم تصرف كيميا عنها الأفكار السخيفة. تسمع صدر الدين يخاطب شمس الدين.

"هل تقبل كيميا، بنت مولانا، جلال الدين الروميّ، زوجاً مخلصة؟"

صمت، ثم يرتفع صوت شمس الدين أجشّ في الصمت: "أقبل كيميا، بنت مولانا، جلال الدين الروميّ، زوجاً مخلصة".

ثم يلتفت نحوها صدر الدين: "هل تقبلين شمس الدين التبريزيّ زوجاً مخلصاً؟"

يسكن الزمن لحظة. يتطلّع الإمام.

"أقبل شمس الدين التبريزيّ زوجاً مخلصاً". كان صوتها حازماً، على الرغم من أن قلبها كاد يفرُّ من صدرها.

فيعلن صدر الدين "أنتما الآن زوجاً وزوجة".

ترفع شالها، فيدهشها أن يأخذ يدها شمس الدين. صمت الغرفة ملموس. ألا يعرف أنه لا يجوز تلامُس الزوجين علانيةً؟ تتقابل عيونهما. لكنها لم تتوقّع ذلك الذي قد رأته، حتى انشَدَهَ بالها. فأمامها رجل قويّ طويل، ينظر خَجِلاً مرتبكاً؛ ولم تتوقّع شيئاً يشبه الإعجاب في عينيه. يرفع الآن يديها، مائلاً نحوها، يمسّهما بشفتيه. لهاث صامت بالغرفة. تحسّ بنفسها خجلة، ليس من أجلها هي بل من أجله،

كانت منكشفة معطوبة. وهكذا أحسّت بنفسها امرأة! تبتسم في خفّة ليراها الحضور. ولا تعرف أنها تبتسم.

❖

يبدو اليوم ممتداً من دون نهاية. غادر الرجال الغرفة إلى غرفة مولانا، مع العازفين المُستأجرين للمناسبة. يسمعهم المرء يتكلّمون ويضحكون عبر حنين الربابة والناي مع دقّة الطبل بالخلفية. تجلس كيميا مع أصحاب كيره وأصحابها، بجانب خديجة. الغرفة هنا أيضاً يملؤها الضحك والكلام. تجلس كيميا على كومة وسائد، أعلى بقليل من باقي النسوة، لأنها العروس وعليها أن تصمد اليوم. أمامها على قماشة بيضاء قد فُرشت بوجهة مكّة، ترتاح مرآة السعادة التي وهبها إياها شمس الدين، مع الشمعتين الذائبتَين على الجانبين: واحدة لشمس الدين، وأخرى لها.

تمتم صدر الدين قانفاه: "نار، صنوها نارا"، حين رأى مولانا يشعلهما أول الحفلة.

هتفت امرأة: "كيف يترقرق اللهيب؟ ولا ريح هنا!".

علّقت أخرى، تُلمّح: "آه، هذه مرآة شمس الدين! وهل تتوقّعين غير المتوقّع؟". تنظر المرأتان إلى كيميا بحسٍّ من الرثاء.

ألا لهذا اليوم من نهاية؟ جاء مزيد من الصحون، والشمعتان تتقطّان.

"لا تأكلين يا كيميا. جرّبي هذا، لذيذ". تعرض امرأة حلوى على كيميا، تقول: "أنت الآن امرأة متزوّجة، وقريباً تُرزقين بأولاد".

فتأخذ كيميا الحلوى، ولا تعرف بمَ تردّ. ترى أم خديجة قادمة نحوها.

تقول أم خديجة وهي تجلس فتُريح نفسها: "يبدو الزواج غريباً في أوّله، ثم تعتادين عليه. يصعُب إرضاء الرجال أحياناً...".

"ماما، اليوم فرح واحتفال!".

"أعرف أعرف، يا خديجة، لكن لا ضير من قول الأشياء كما هي".

تسمع كيميا كلمات، قد تفهمها وبعضها لا، مع أنها لا تعني شيئاً إليها. تنظر إلى أم خديجة، بوجنتيها الحمراوين، في ثباتها، تود أن تقول: "لا يهمّ ما عليه الرجال، وما ليسوا عليه. فقد تزوّجتُ اليوم الريح العاتية مع النسيم العليل. تزوّجتُ اليوم زئير الليث مع المهر الغضّ". وقع صمت مفاجئ على الغرفة، يغمر ترداد أصوات النساء. كفّ أمامها لهب الشمعتين عن الرقرقة. تودّ أن تصرخ: "دخلتُ النار اليوم، فكانت هي الثلج الجَمَد". لكنّ الكلمات احتبست في حلقها، كعهد سريّ قطعته على نفسها. أغمضت عينيها، فارتاعت حين تلاشى الصوت فجأة، ثم عاد هدير أصوات النساء، وفي الخلفية أصوات الرجال على وهَن وأنين الناي فوق الطبل. يترقرق من جديد لهب الشمعتين أمامها، وطعم غريب من الملح في فمها. ضغطت منديلها بشفتيها فرأت بقعة دم صغيرة. عضّت شفتيها.

"ترجفين يا كيميا؟ ضعي حولكِ هذا الشال، وسآتيك بشاي".

إزاءها كيره، تقول عيناها: "اثبتي، أنا هنا، سيمضي كلّ شيء بخير".

ترشف قليلاً، ثم تغمض عينيها. تغمرها موجة عرفان: "يا ربي، وهبتني الكثير من جديد!". برؤيتها أريحية كيره، تبدأ الضحك، فهي لا تعرف ما كانت شاكرة له ولا شعور العرفان الذي جعل قلبها يغنّي. تدرك أن العرفان هبة، أيضاً! فهو يُضاعف مئة مرة رغبة الشكر. مثلكَ حين تعي برد النسيم بمنتصف الصيف، أو دفء زند محترق بمنتصف الشتاء. يجعل كلّ خليّة تشتاق للغناء.

❖

سارا بطيئاً إلى الجناح الشرقيّ الجنوبيّ من المنزل، حتى وصلا أخيراً سكن شمس الدين. يضمّ ثلاث غرف تتّصل مع باقي المنزل بباب

يفضي إلى فناء صغير. إزاء الباب، باب آخر إلى الشارع. استحال المكان، طوال الأسابيع الماضية، إلى سكن جديد لهما. حين غادر الضيوف ووصل العزف نقطته الأخيرة، قبّلها مولانا على الجبين قبل أن يمضي. كما قبّلت كيره مقدم رأسها وهي تربّت على خدّها.

الصمت بينها وشمس الدين كالحجاب الذي تلبسه على رأسها منذ ساعات. لم يكن يحميها فقط؛ بل يحميهما كليهما. يقول حجاب الصمت: "انتظروا قليلاً، أبطئوا، دعوا اللحظة تستطيل إلى الأبد".

أمام الباب عشرات من ورود صغيرة صفراء تتبسط بالأرض كعلامات ترحاب. حين دلفا أحاط بهما الشذا. يخطر ببالها أنها تعبُرُ عتبة جديدة، تدخل في منطقة مجهولة من حياتها. يقفان الآن بالمدخل، وجهاً لوجه. حان دورها لتحسّ بالخجل. يأخذ يديها من جديد، يقرّبهما من شفتيه. تبدو هذه المرة مثل دمغة لحياتهما الجديدة معاً. خُطّط ذلك كلّه في مكان آخر ليس مثله مكان، مكان يقف به الزمان، ولا تعود هي نفسها قطّ. ينظر إليها كمن يرقب أن تقول شيئاً. لكن ماذا تقول؟ يومئ كأنه يتفهّم ويشير إلى باب يسارها: "أنت متعبة؛ وهاهي غرفتك. فنامي بسلام وتذكّري: إن الله معك، دائماً". يُسلمها الشمعة التي يحملها، ثم يدور فيختفي في غرفته.

وحدها بالمدخل، ظلّها يمتدّ على الجدار. تمضي على مهَلٍ إلى الغرفة التي أشار إليها، تدفع الباب. غرفة صغيرة، تشبه الغرفة التي كانت تشغلها في آخر المنزل. تترقرق بالعتمة، شعلة مصباح الزيت على مقعد عال بجانب الفراش، تبثّ مُويجات نور على الأشكال الهندسية للسجّادة المنسوجة بلونَي زعفران وأحمر داكن. رأت على الفراش وردة صفراء صغيرة كالتي تزين المدخل. تأخذها بين يديها. هناك لمسة أحمر بتيجانها الصفر، مثل منديلها المبقّع بالدم. وردة مبقّعة بالدم! مثل ورد

تبريز، كما ذكر شمس الدين مرة! ترتجف، تتضو[1] ملابسها بسرعة. ترقد مستيقظة فترة، ثم وهي تنجرف إلى النوم، تتشكّل الكلمات على شفتيها : "أنا معك، دائماً". مَن قال هذه الكلمات؟ لا تتأكّد.

❖

تصحو مع نداء صلاة الفجر. بجانبها جدار لا تذكُره. أين كانت؟ ثم استرجعت كلّ شيء: العرس، عرسها، شمس الدين يقبّل يديها، وهي وحدها بالمدخل مع الشمعة تترقرق بين يديها. تقول لنفسها : (أنا متزوّجة، ولا تعرف ما تتطلّبه الحالة الجديدة). تسمع وَقع قدمَي شمس الدين ثقيلاً بالخارج يتبعه أزيز الباب الأمامي. تتصوّر الفناء بفسقيته الصغيرة، أصبح الآن في مربّعهم الخاص. كانت تأتي هنا أحياناً في باكورة الصبح، وأحياناً بالظهيرة، لتجهّز صينية المرطبات، تستعمل منطقة الطبخ فتبدأ عمل شاي الفطور. هناك امرؤ (شمس الدين؟) يضع جمراً بالمدفأة. تذكّرت أن الحياة لم تتغيّر كثيراً منذ البارحة. فهل ارتاح بالها أم خاب أملها؟ بدأت تغنّي ناعمة مع نفسها، كما تفعل غالباً، حين تتشكّك من مشاعرها.

"أنت ذكية في توقّع أسئلتك، يا كيميا".

أجفلها الصوت. كان يقف بالمدخل، نصف جادّ، نصف منبسط. تحسُ بتبرّم طفيف، فكيف تعيش مع أحد يقرأ أفكارها دائماً؟

تجاهل فكرتها ظاهرياً : "التغيّر يأتي من الداخل، لا الخارج. ألا تعرفين؟"

تومئ سعيدة، فلا وجود لملام في صوته. نظرت إليه لكنها لم تقرأ شيئاً بوجهه.

سألته: "آتي لكَ بالشاي إلى غرفتكَ؟"

---

1 - تنزع وتلقي.

ردّ: "شيء بديع"، ثم أردف: "لا تَدّعي التوقّع يفسد عليك الواقع. فإنك ستُضيّعين وقتاً ثميناً".

بانت على شفتيه ابتسامة واهنة، لكنّ عينيه ظلّتا حادّتين. لكلماته دقّة سهم مصوّب بعناية إلى هدفه. توصّلت أن تُلمّ بتأثيرها، من دون أن تعرف أثرها.

قال: "في غنائك الجواب"، كأنه يردّ على سؤالها الصامت: "الغناء سبيل الروح أن تُسمَع".

دار مبتعداً كأنه قال الكثير، وقفل عائداً لغرفته.

أنهت إعداد الصينية: وعاء الزيتون الأسود، قطع الجُبن، ثم إبريق الشاي الساخن. وانتابها حافز لتأخذ الوردة الصغيرة من غرفتها فتضعها بجانب الإبريق. قلبها يدقّ. فتضحك من نفسها. تفكّر، الفرح سبيل آخر للروح تتكلّم به معنا.

غـارَ الـشتاء، وهـلَّ الربيـع أو كـاد. قـرّرت كيميـا أن تجلـس بالفنـاء لتستمتع بشمس أول الظهيرة مع أنها لم تكن دافئـة للبقـاء طـويلاً. تفكّـر، مرّت ثلاثة أقمار على عرسها. وكما تفعل كلّ صباح بعد الصلاة، تجهّـز أول وجبات شمـس الـدين: وعـاء الزيتـون الأسـود، مربّعـات جـبن المـاعز البيضاء، إبريق الشاي الساخن. وكعادته كلّ صباح، يمضي شمس الدين قبل أن تنهض؛ تسمع وَقـع قدميه باكراً. يعود أحياناً، ويطلب الطعام. غير مَهمّة الصباح، تظنّ حياتها لم تتغيّر كثيراً. تذهب للسوق مع كيره. لا تـزال تمدّ يدها في أشغال المنـزل. ترعـى عليماً من وقت لآخـر. تأخذ صينية الطعام والمرطّبات إلى غرفة مولانا التي تُغلق عليه وشمس الدين معظم النهار.

لكنَّ المرتبطين بها يجعلونها تحسّ بتغيّـر مـاكر قد حدث، علـى الأقلّ في عيونهم. كأنها لم تنزع عن رأسها حجاب العُرس. فهي لم تعد كيميـا، بل امرأة متزوّجة؛ وهـو تجريد غامض يتطلّب نوعاً آخـر من السلوك. تذكُر أم خديجـة "يبدو غريباً في أوّله، ثم تعتـادين عليـه". لكنـه تعوّد لم يعد فيه متعة! تعوّد لـيس فيـه الـضحك علانيـة! قلن: "علـى المتزوّجـات إبـداء التُّـؤدَة والعقـل. عليهن إسـعاد أزواجهـن". لكـنَّ أنّـى لهـا أن تـسعد زوجها وهـي لا تكاد تراه؟ وهل يسعد شمس الدين ألاّ تكون هـي نفسها؟ مـن ثـمّ تـساءلت: ومـا البهجـة الـتي تحـسّ بهـا كـلّ صـباح حـين تعـدّ لـه الفطـور؟ تأوّهـت. هنـاك أسـئلة عديدة لم تـستطع جوابهـا! كانـت سـالفاً تناقش ذلك كلّه مع خديجة أو مـع نـوران الـتي تحمـل آراء متـشدّدة تجـاه العَالَم وكيف يكون. لكنَّ هناك الآن حدّاً غير مرئيّ بينها وبين صواحبها. فكيـف تحكـي لهـنّ الألفـة الغريبـة الـتي تُشارك بهـا شمـس الـدين؟ كيـف

تتكلّم عن حياة زوجية غير قائمة، لكنْ كلّها فَرْحةٌ، مهما كانت تحسّ بالوحدة أحياناً؟ لكنها فرحة هشّة. لو انكشفت، لتلاشت كآثار عصفت بها الريح.

بدا المقعد الذي تجلس عليه بارداً على الرغم من أشعة الشمس. فوق الجدار شجرة كرز، لا تزال أفرعها عارية، كأنها تشحذ من السماء مزيداً من الدفء. انجرف بالها فيما خلا من الأشهر الماضية. ترى خديجة شبه باكية، تشتكي: "لم يعد أحدنا يكلّم الآخر كثيراً". فتومئ بوعي حزين أن الحوار بينهما فقد عفويته السابقة، صار سطحياً. ومنذئذ قلّت زيارات خديجة، ثم ندُرت.

كما تغيّرت علاقتها مع كيره، وإن بشكل مختلف. لم تعد كيره تطرح أسئلة. لم تكن في حاجة أكثر من توضيح نفسها. تشير كيره في حذق من دون أن تتكلّم أن كيميا الآن تعتمد على نفسها، إن الطمأنينة والرعاية اللتين كانت تقدّمهما كيره طوال سنين لم تعد متوفّرة. على كيميا أن تجد بنفسها الطمأنينة والحماية التي تحتاج إليها. لا تتدخّل كيره في حياة كيميا الجديدة، كما لا تتدخّل في حياة مولانا بشأن علاقته مع شمس الدين. تذكّرت كيميا ليل عُرسها حين خَطَت مع شمس الدين إلى سكنهما. دخلت منطقة جديدة، وفي هذه المنطقة ليس غيرها وشمس الدين.

شتّتها لحظة، قعقعة عربة وتبختر جواد وراء الجدار. غريب أن العَالَم الخارجيّ يتباعد أكثر فأكثر! هناك أيام، كاليوم، تحسّ فيها بالعزلة. مع ذلك، هناك فرحة! كيف تحسّ بالفرحة وفي الوقت نفسه تقريباً تحسّ بالضياع كلياً، ألا تنتمي لمكان؟ هل يستلزم النضج لمواجهة المزيد من التناقضات؟ كانت وهي تعيش بالقرية، لا تجد أحداً تثق به، مع ذلك عاشت لحظات تلاشت فيها من الفرحة، تفقد أيّ حسّ بالزمان والمكان، ثم تتفجر بالدموع لأن الفرحة قد تلاشت. وفي بيت

مولانـا، تقهقـرت العزلـة. وجـدت نفـسها أكثـر بهـذا البيت مـع عائلتـها المتبنّاة أكثر مما كانت مع والديها، مُطمئنـة بـشكل لا يُفسّر، لكنَّ العزلـة عاودتهـا الآن. هـل تتركهـا يومـاً هـذه العزلـة مـع شـوقها الملازم؟ حاولـت شغل نفسها، طوال الأسابيع الماضية، بزيارات أكثر إلى السوق، لكنَّ حين تقف أمام المحالّ لا تتذكر ما تريده. ذهبت إلى كنيسة صغيرة بضواحي السوق وركعت على قدمَي العذراء، فلم تجد سنداً، ورحلت وهـي تحسّ فراغاً وحزناً. جرّبت ثانية أن تكلّم خديجة، لكنها انتهت مرة أخرى إلى خيبة رجاء. أنا كرة تنطّ عائدة من جدار أبيض، فكّرت، فتُحدّق أمامها في الجدار حيث تسعى نبتة صغيرة للنماء بتربة غير كافية لمدّ جذورها.

ارتجفت فشدّت شالها حول كتفيها. فكّرت، تقضي الزوجات وقتهن مع أزواجهن. لكنَّ شمس الدين لا يكاد يُرى. في أوقات كالصباح، قبل الفجر وأذان الصلاة، فكلّ ما تسمعه وَقع قدمَيه يتبعه صرير الرِتاج وأنين الباب. ثم يتسحّب اليوم إلى ما لا نهاية، حتى تسمع خطواته من جديد آخر الليل. أول مرة، جاءت إلى الباب لتحيّته، لكنه تجاهلها، ومضى لغرفته متذمّراً: "لا تنزعجي. اذهبي للنوم. تأخّر الوقت".

شهدته، مرتبكة، يختفي بغرفته. فماذا تفعل؟ ماذا يُفترض بامرأة زوجة أن تفعل؟ وأعجزها النوم تلك الليلة، سمعته يسير في غرفته، يدمدم بكلمات لم تتبيّنها. فيما بعد، حين استيقظت أول الصباح، كان قد خرج.

نظرت حولها. شجرة الكرز قد تبرعمت. تعجّبت في مرح كيف فاتها المنظر! (هل براعمها بيضاء أم وردية؟) تساءلت، ثم توجه خيالها نحو شمس الدين. سيعود مبكراً، كما يفعل أحياناً؟ لا تعرف. هناك أيام يعود فيها على غير المتوقّع منتصف النهار أو الظهيرة، يطلب قطعة جبن أو كوب شاي ثم يَقيل في غرفته.

ساعتها تسمع باب المنزل يُفتح. يتطلّع فيها. تقف، كمن يُلمح في خطأ. كان اليوم لا يزال في أوّله، وشمس الدين لم يعد مبكّراً هكذا. يرفُّ على شفتيه ظلّ ابتسامة. سار بطيئاً نحو المقعد، فجلس متجاهلاً ارتباكها.

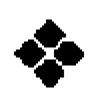
قال: "لمَ لا تُحضّرين لنا شاياً؟"

لم تسمعه قطّ يقول "لنا". أمر جديد لطيف، بلسم على جرح عزلتها. ذهبت لتحضّر الشاي، ثم عادت للفناء بالصينية. ما إن بدأت ملء كوبه حتى راح يتطلّع في عمق عينيها. لكنَّ وجهه، كالمعهود، صارم متجرِّد. يمكن أن تقول: إن نظرته ليست كما ينظر رجل إلى امرأة، أو حتى صديق لصديقة. لا، فهو ينظر إلى مكان وراءها، إلى مكان الصمت حيث ترقُّب الفرحة، حيث تستعدّ الكلمات التي لا تعرفها لتنبت على شفتيها. رأى يدها ترتجف، وانسكب الشاي. فلانت عيناه، ثم دُهشت حين بدأ يضحك، ضحكته العميقة مثل هزيم رعد.

"كيميا، لمَ تقلقين؟ لمَ ترتعبين؟ أعرف أنه عصيّ أن تُثبتي قدميك بالأرض، بينما يفتّش قلبكِ عن السماء. لكنَّ السرّ (توقّف، كأنه يبتسم) "السرّ أن الأرض والسماء لا تنفصلان". أدنى كوب الشاي من شفتيه "لا تنفصلان قطّ"، وتجهّم وجهه ثانية.

ظلّت تقف أمامه، تسعى للتثبّت من كلماته. لكنها تنسلّ فوراً من خيالها، فلا تعود تذكر غير سؤاله: "لمَ تقلقين؟"، (لمَ تقلق حقاً؟) أغمض شمس الدين عينيه، كمن يقول: "دعي كلّ شيء على راحته. لن أملكك بنظرتي. أنت الآن حرة". حين فتح عينيه، كانت لا تزال أمامه.

قال: "عليّ الرحيل"، واختفى من الباب الذي دلف منه.



ماذا أتى به؟ لا تعرف.

بعد أيام، كانت تجلس ثانية على مقعد الفناء إزاء باب المنزل، وهي تتوقّع أن ترى شمس الدين قد دخل منه. لكنه طبعاً لم يأت. لا تُكرِّر الأشياء نفسها. ولا تتعمّد. على الأقلّ لم يتغيّر الجوّ. لم يكن فيه دفء كاف لتجلس طويلاً. عاد خيالها إلى تلك اللحظات مع شمس الدين. كانت قليلة، قصيرة، لكنّ مثل شرر الليل. تأوّهت. ليس ثمة من أحد تكلّمه عنها. صوت واهن، خشخشة أوراق، فتطلّعت في الباب أمامها. لحظة، قفز قلبها بالأمل والخوف. لكنّ مَن وقف بالمدخل كان علاء الدين. ثبّت فيها عينيه. منذ متى كان هنا؟ بدا حزيناً غاضباً. وكما يحدث مع علاء الدين، تحسّ بالراحة. يبدو دائماً أنه يحمل عبئاً ثقيلاً. تريد أن تساعده، تريد أن تجعله يبتسم، لكنّ رثاءه الحانق لنفسه لا يسمح لكَ بالاقتراب. فاغتصبت ابتسامة: "لم أسمعكَ قادماً". لم يردّ، فأضافت: "شمس الدين ليس هنا".

لكنّ علاء الدين لم ينبس.

"تحبّ أن تنتظره؟ قد يعود. يعود أحياناً بالصباح".

"أرى"، وظلّ يتمايل مرتبكاً على قدميه، يُحدّق فيها "أرى"، ثم قفل عائداً وراح.

ماذا يقصد؟ تظاهرت بتصديق أنه يبحث عن شمس الدين، لكنها مُوقنة من أنه ليس كذلك. فكّرت، قد لا يعرف هو نفسه لمَ أتى. يتصرّف علاء الدين غالباً على وَقْعِ حافز؛ هكذا كان. لكنّ زياراته تُخلف لديها حسّاً بالقلق. فهل تُبلغ شمس الدين؟ لكنّ ماذا تقول؟ فقد لا تجد ما تقوله.

بعد ثلاثة أيام، وهي تفتح الباب المفضي إلى صدر المنزل، كان علاء الدين هناك ثانية، يسدّ المدخل.

"علاء الدين، دعني أمرّ. كيره تنتظرني". وهي غاضبة.

قال: "لم تتباهَي من قبل هكذا. لقد دخل الزواج برأسك"، وهو يفسح مجالاً محدوداً لتمرّ، فحكّ قفطانها به وهي تدخل.

فارتجفت: "صرتَ سخيفاً. لمَ لا تدعني وحدي؟"، وانزعجت. علاء الدين صعب المراس، يضايقها، أو يبين عن أخطائها وهي تتحدّث الفارسية، لكنّ ذلك دائماً أمام كيره أو سلطان ولد، حيث كان يوقفه عند حدّه. كانا هذه المرة وحدهما، ولم تحبّ ذلك التورّط الفضوليّ الذي توصّل لتأسيسه بينهما بفرض وجوده عليها. فسارت أسرع من المعتاد بالممرّ المفضي إلى المطبخ الكبير حيث تنتظرها كيره. تعي أن علاء الدين يسير خلفها على بُعد خطوات، لكنّ قبل وصوله المطبخ استدار ناحية الفناء. وقفت ثانية حتى رأته يختفي من البوابة الأمامية. لقيت نفسها مع طعم غير مُستَساغ بفمها.

❖

كان مساء مجيداً. أزرق السماء عميق، كأنه صلد. تلوّت من شجرة الكرز أزهار بيضاء فوق الجدار من الشارع؛ تبدو بشائر الربيع. الحوائط المستضيئة بالشمس ملتهبة. يرحل شمس الدين مبكّراً، في الفجر، كالمعهود، لكنه اليوم عاد قبل هبوط الليل، قبل دقائق خلت.

قال: "أودّ أن أُريك شيئاً"، ومضى لغرفته ريثما تشاغلت بعمل الشاي، فقد أعدّته مسبقاً. باب سكنهما مفتوح على الفناء، فانسلّ شعاع ذهبيّ على قدميها. كانت تغنّي مع نفسها، تفكّر أن يذهبا للجلوس على المقعد الحجريّ القديم، ثم سمعت الباب المفضي لصدر المنزل يُفتح. أبصرت. كان علاء الدين يقف بالمدخل كالعادة. في هذه الآونة، خرج شمس الدين من غرفته. لاحظ أن كيميا مجفلة، ولمح علاء الدين.

حدّق الرجلان في بعضهما بعضاً، ودُهش كلّ لرؤية الآخر. بعد ثوانٍ استعاد علاء الدين رباطة جأشه، وبدأ السير نحو الباب المؤدّي للشارع.

فسأله شمس الدين: "إلى أين تذهب، يا علاء الدين؟"

ردَّ غير هيّاب: "إلى السوق. أبي يحتاج إلى ريشةٍ وورق، وسمعتُ عن سفينة بحمولة رقوق وصلت حديثاً من سوريا".

حلّ صمت. وراء شمس الدين لم تتحرّك كيميا.

قال شمس الدين: "وأفضل طرق الوصول للسوق أن تمرّ بهذا الفناء!". وسخرية صوته أشدّ من التأنيب.

ظلّ الشاب صامتاً، لكنه غير مرتاح بالمرة وفي عجلة من أمره للفرار من حديث شمس الدين الغاضب.

لكنّ شمس الدين لم ينته، ذكّر علاء الدين: "هذا مكان خاصّ الآن وأنتَ تعرف. فلا ينبغي لكَ أن تأتي للمرور به، إلاّ إذا دُعيتَ".

فاحمرّ وجه علاء الدين، وشدّ قبضتيه، لكنّ التحديق الغاضب بعينَي شمس الدين قهره، فلم يستطع إلا أن يغمغم: "لكنه، كما أظنّ، منزل أبي".

فهدّده صوت شمس الدين: "علاء الدين، لا تستفزّني. يعلم أبوكَ، كما تعلم جيداً، أنه لا يوافقكَ رأيكَ. كما تعلم أن هذا الباب المؤدّي إلى الشارع يظلّ مغلقاً".

خفض علاء الدين رأسه، مغلوباً على أمره، ودار عائداً، يتعثّر نحو باب المنزل، ثم اختفى.

هزّ شمس الدين رأسه: "في هذا الولد حميّة غالبة!"، ثم خاطب كيميا: "لكنه لن يأتي هنا بعدها". يلمّح إلى أنها ليست أول مرة يأتي فيها علاء الدين إلى هذه الناحية من المنزل. "لجراء الثعالب أسنان حادّة"، ثم واصل "لكنها غير فعّالة، وهي تعلم ذلك"، وضحك: "لذلك تغضب أحياناً". ولاحظت أن الخطّ بين حاجبيه اختفى.

قال: "لنشرب الشاي"، مشيراً إلى أن تطفّل علاء الدين لا يستحقّ اهتماماً "انظري"، وكان يمسك رقّاً في يده "هذا ما أردتُ أن أريكِ".

مجرّد رسمة لطائر بوجه امرأة تحدّق يساراً. جسم الطائر أزرق داكن، بينما ينظر الوجه للداخل، لكنه مرهف، مرسوم بخطوط سوداء. تعوم حوله سمكتان، بأزرق الطائر الداكن نفسه، يقترح حقيقة أن المكان والزمان قد ضاعت حدودهما هنا. أما جمال الرسمة الغريب فكان مشرقاً كبابٍ إلى عَالَمٍ آخر قريب، بل صعب المنال.

أفعم[1] الدمع عينَي كيميا، فردّت الصورة إلى شمس الدين عاجزة عن النطق.

قال: "نعم، جميلة"، وتوقّف، ثم أردف "مثلك".

حدّقت فيه، منسحبة. هل يسخر منها؟ لكَنْ لم يكن في عينيه ثمة أثر لهُزءٍ أو تهكّم، مجرّد حرج طفيف جاهد أن يخفيه وراء وجه صارم. ذكّرها بيوم عُرسها، أحسّت بالتهاب خدّيها، فأخفَت حرجها باحتساء رشفة شاي.

الفناء يغطس في العتمة بطيئاً. على اليسار بقع أزهار بيضاء تُميّز حدوده. عَبَرَت الفكرة ببالها بينما كانت شجرة الكرز تُبدل أزهارها البيض إلى زيّ أكثر وقاراً من الأخضر. أغمض شمس الدين عينيه، فتساءلت إن كان يعي بوجوده، لكنه من دون أن يفتح عينيه قال: "اجلسي". فأذعنت، واعية بالقوة التي ملأت الفناء كلّه فجأة. جلست بجانبه، تغلبها موجة فرح غامر، وسمعته يقول: "سأرحل الآن. أراك لاحقاً أو غداً".

وقف أمامها، وجهه غامض كالعادة، فأومأت عاجزة عن النطق أو الحركة.

قال: "ستكونين بخير". ثم راح.

---

1 - ملأ.

- ٢٢ -

ترقد بالفراش في يقظة تامة. تغيّب شمس الدين طوال النهار، وتقدّم الليل ولم يعد. تساءلت لماذا تزوّجا. هل معنى الزواج أن يعيشا معاً أخاً وأختاً، أم يُفضّل مثل أب وابنته؟ هل معنى الزواج أن يرى كلٌ الآخر بمشقّة؟ مع ذلك، حين ترى شمس الدين تحسّ أنها معزّزة راضية. فوجوده يعادل الحقيقة، يشحذها. يوسّع عَالَمها، يجعل متاعب وانشغالات الحياة اليومية رقرقات على صفحة بحيرة. ثم تذكّرت أن البحيرة هي ما يعنيها، لا الرقرقات؛ وفي ضوء هذه الحقيقة الواسعة كان مكانها الغريب صغيراً من دون شكّ، لكنه هادف.

دُهشت من نفسها. فمشاعرها نحو شمس الدين تغيّرت في الأشهر الماضية. قوته وسطوته لا تزالان تهيمنان عليها، لكنّ خوفها منه تلاشى. خبرت منه ذلك الجانب الآخر، الذي شَهدَته أولاً يوم عرسها، خليط من الرقّة والخجل لم يستطع إخفاءه وهما معاً. واكتشاف قابلية الجرح في رجل بهذه القوة أدهشها في البداية، لكنه أثار مشاعرها. وفي تناقض ظاهر، جعلته هذه القابلية أكبر. لم يكن شمس الدين، على الأقل، الإنسان الأعلى الذي يخشاه الجميع. كان شخصاً قد تؤذيه الحياة.

أغمضت عينيها، مغلوبة بالفكرة. كانت تقف بمسطّح وسيع من الرمل والصخور، وحدها في مشهد بنيّ محمرّ، شمس بيضاء تحوم على الأفق في سماء من مُويجات فائضة. وهناك، بنقطة الوصل بين السماء والأرض، بدأ يحدّق؛ شكل بهيئة حيوان يمشي نحوها. حين دنا، رأته ليثاً عملاقاً. يمشي بنعومة، بنوع من التصميم، واعياً في وضوح بوجودها. رأت لبدته مشتبكة شعثاء، وعضلاته تنطق تحت الجلد. في فزع، حاولت الفرار، فلقيت نفسها على الأرض. اقترب منها الليث، حتى

شعرت بأنفاسه. لكنّ، لدهشتها التامة، رقد عند قدميها ثم راح يلحس يدها.

استيقظت بطعم من الرعب تمزجه العذوبة، وارتاحت أن تجد نفسها في الفراش. صريف مزلاج يتبعه وَقع قدمَي شمس الدين، كأنه مقطع من الحلم، إن لم يكن هو الحلم فعلاً. تحت بابها شعاع نور، ضاء لحظات ثم انكفأ، كمن غمره الصمت، فارتدّت إلى نفسها في عذوبة مع ظلام الحلم.

❖

كانت بالفراش الليلة التالية، بعد يوم شبيه من العزلة، فوعت على طقطقة بالمنزل، كصوت نيران بمدفأة حين ينشقّ الخشب من الحرارة. تحت بابها لمعة وهّاجة. فنطّت من الفراش لتخرج من غرفتها. كان باب شمس الدين مفتوحاً، وهنالك نار تهدر. اقتربت فَزِعَة، ثم مُتشكّكة. كان شمس الدين بالغرفة، تحيط به النيران، وعيناه مغمضتان، جالساً لا يبالي. وجهه عديم اللون، يبدو محفوراً في حجر. كان باعثها الأول أن تركض لتُعينه على الخروج، لكنّ شيئاً بالمشهد أعاقها. فالنيران ترقأ وتخرّ من دون أن تلمسه، كأنها ترعاه أكثر منها تُهدّده. مشدوهة، ظلّت هناك تحدّق فيه مُلفّعاً بالنار، حتى انسحبت لغرفتها وهي ترجُف. ثم أدركت أن النيران التي عاينتها لم تكن تثير حرارة. رقدت مستيقظة فترة، وبالها في هياج عظيم.

أيقظها نداء الصلاة. لقد نامت للتو، أو هكذا بدا. ماجت صور الليلة، حول شمس الدين دائرة النيران، حول وجهه الرماديّ. فهل كان حلماً؟ لبست بسرعة، وفتحت الباب. خرج شمس الدين من غرفته، بمصباح زيتيّ في يده. بدا مندهشاً أن يراها هناك، كأنه نسي أنهما يتشاركان السكن نفسه. لاحظت علامات سوداً تحت عينيه؛ لكنّ اللمعة

فيهما أصفى من ذي قبل. وقف لحظة، ثم قال: "لا تخافي أبداً. ناره مثل الماء إلى الحديقة".

كانت كلماته بلسماً على جرح غير مرئيّ. إذن فلم يكن حلماً!

أردف: "تلك هي النار التي تنشدينها"، قبل أن يدخل الفناء ذاهباً إلى الفسقية لوضوئه الصباحيّ. مكثت تراقبه بالمدخل، وهو يؤدّي طقوسه. جفّف يديه ولم يكد يتوصّل للباب المفضي إلى صدر المنزل حتى عاد: "ما رأيته الليلة، هبة من لدنه. ليس هذا مما يحسُن الكلام فيه".

فأومأت خائبة الرجا من إحساسه بضرورة تحذيرها. أفلا يعلم أنها تزمّم شفتيها حين يتعلّق الأمر بحياتهما معاً، بمزيج الوحشة واللحظات الثمينة؟ لكنه قد اختفى، فعادت وحيدة. في برودة الفجر البيضاء وهي تمحو الليل بطيئاً، كانت الفسقية الآن أصفى وضوحاً.

تقصف الشمس جدران الفناء طوال الظهر. ومن جانب الجدار الآخر، تفقد شجرة الكرز أزهارها إلى حلّة جديدة من الخَضار. الصيف دان. تجلس كيميا على المقعد الحجريّ القديم، تشغل يديها بخطّاف مقوّس صغير ولفّة خيط قطنيّ أبيض. فرحة من فقدان رغبتها في القراءة، يشدّها أكثر تلك المهام اليدوية، كصنع هذا الرباط الذي أعاد ذكريات أختها وحياتها بالقرية. ذكريات بهتت مع السنين، لكنّ الانفعال المرتبط بها لا يزال: سعادتها والأب كريستوم يعلّمها الأحرف اليونانية؛ استثارتها للمرة الأولى برؤيتها كلمة (دوست) الفارسية التي كتبها أحمد في التراب. أدهشها أن تكتشف، بعد مرور السنين، طريقة رسمها، مع أنها تجهلها.

نضّت عنها الذكريات، فعادت إلى الحاضر. الدنيا حرٌّ وتحسّ بالنعاس. تميل لتستردّ الخطّاف المقوّس وقد سقط عند قدميها، فدارت أفكارها نحو شمس الدين. لقد عاد مبكّراً، ليرحل بعد هنيهة. كالعادة، رفض الطعام الذي حضّرته، مع علمها أنه لم يأكل شيئاً منذ البارحة.

ذكر دعوة على ليلة، نظّمها صدر الدين قانفاه. لكنْ أيأكل فعلياً من الطعام، وهو جزء مؤكّد من الليلة؟ تشكّكت. الحياة مع شمس الدين ليست مستقرّة. لا نقاط علامات، من دون إيقاع واضح. كان شمس الدين أحياناً يتجاهل نداء الصلاة، مع أنه في البيت ليلاً، تسمعه يردّد أسماء الله الحسنى. كيف تصلي؟ كيف يُفترض أن تعيش حياتها؟ لن تُسعفها زيارة قريبة من نوران.

اعترفت نوران: "يظنّ الناس أن شمس الدين يجعلكِ تعيسة إلى حدّ مخيف. فأنتِ لا تخرجين غالباً كما كنتِ، ويقولون لأنه غيور حانق فهو يمنعكِ".

هزّت كيميا رأسها من دون تصديق. الناس أغبياء إلى هذا الحدّ! وصُدمت.

لكنّ نوران لم تتوقّف: "وماذا عن وسائله! فلا يكاد شمس الدين يذهب للمسجد، ومن المعروف أنه شرب النبيذ مرة".

عند هذه النقطة، أسكتتها كيميا: "هذه نميمة. فالناس لا يعرفون طبيعته. وعليكِ، يا نوران، أن تتذكّري، مع أنني صاحبتكِ، إلا أن شمس الدين زوجي".

غادرت نوران خجلة، لكنّ غاضبة.

تتذكّر كيميا، فليظنّ الناس ما يريدون. يعرف شمس الدين ما يفعله، ولماذا يفعله. ولم يتصرّف يوماً بأثر من نزوة أو حافز؛ وهي على يقين منه. بل يتبع وازعاً من داخله كان طبيعياً إليه مثل التنفّس، سواء استيقظ أو استسلم للنوم. وهو بالطبع ما لا يوافق عادات الناس أو أعرافهم. لكنْ هكذا حريته! نالت هي نفسها طعم هذه الحرية يوم وافقت على الزواج من شمس الدين. لم تكن ذات عزم حينئذٍ، لكنْ لم تستجب لأيّ ضغط خارجيّ. رأت ببساطة أن الزواج من شمس الدين

مكتوب، إنه من نظام الأشياء. غريب! فالحرية أن تُذعن لنظام الأشياء. لكنّ التحرّر مثل شمس الدين طوال الوقت يتطلّب قوة لا أملكها، فكّرت.

قطع فكرها صوت الباب يسارها. كيره تمسك عليماً بيدها. تبتسم وهي تبدو أصغر من المعتاد.

"آه يا عليم، كيميا هنا. هل ندخل؟"

"طبعاً، تفضّلا. اجلسا معي".

ركض الولد نحوها، يدفن رأسه في قفطانها. فطبطبت عليه، سرّها أن شيئاً صرف أفكارها.

"كان يطلبك. فكيف أقاومه؟"

قالت كيميا: "لا تقدرين. لا يقدر أحد أن يقاوم عليماً". عقصت شعر الولد، نظر إليها والضحك ملء عينيه. أبان لها عن حفنة بندق بيده.

"أعرف، جلبتَ لي بعض البندق. لمَ لا تذهب فتلعب به؟"

رضي عليم ظاهرياً، وجلس على الأرض يشغل نفسه بتدوير بندقة حول محورها. هي لعبة شائعة. يحتفظ الأطفال بالبندق، ثم يتنافسون ساعات بدورانها. تذكُر كيميا أن البندق، ينتهي به الحال دائماً، لخيبة أملها، بأن يدور في تفاوت ثم يقف أخيراً.

جلست كيره جانبها. تسمعان سقسقة العصافير. فتُعلّق كيره: "يشغلها بناء عشّها".

تومئ كيميا: "محظوظة. فهي تعرف بالضبط ما عليها فعله".

"تقصدين أنك لا تعرفين بالضبط ما عليك فعله!"، وتضحك كيره في هزء واضح منها: "لكنه، يا كيميا، ميزة البشر".

ميزة! أي ميزة أن نتعثّر في الحياة، ولا نعرف معظم الوقت ما علينا فعله؟

فتنظر إليها كيره في عجب: "بشريتنا كالمشي على الحبال. هذه ميزة. أوافقكِ الرأي إنه أمر عصيب، لكنْ هكذا نتعلّم".

هتفت كيميا: "كيف؟ أنا أعرف أحياناً، ولا أعرف أحياناً أخرى".

"هذا ما أعنيه. فنحن أكثر من الطير، لكنْ أقلّ من الملائكة؛ على الأقلّ ليس بعد"، لا يزال العجب في عينيها "أعترف بأنه أمر مقلق، لكنه، نعم، ميزتنا"، وردّدت في جدّية أكثر: "انظري إليه"، تشير لابنها الصغير وهو يلعب بالبندق "تملؤه الطمأنينة". سكتت ورفّ ظلّ ابتسامة على وجهها. قالت أخيراً: "نحتاج إلى أن نشفّ، لنسمع همس الله. هذه هي الطمأنينة".

تمتمت كيميا: "أهكذا يعيش شمس الدين ومولانا؟"

أومأت كيره "ليس هناك درب آخر. وإن صدف وسقطت المخاوف، كلّ ما نحبّ وما نكره، أيّ شكّ فيه، فلن يعود ثمة شيء مُدّعٍ، ونسمع عندئذ همس الله".

فكّرت كيميا، هذا الهدوء المشعّ من كيره، خفيفاً دافئاً، مطمئن إلى حدّ كبير!

هزّت كيره رأسها: "قد نملّ أحياناً، أما اليوم" (وعادت ابتسامة عينيها جليّة) "فسنجدّ أكثر". وجواباً عليها، راح طائر يغنّي في مكان من شجرة الكرز. نظرت كلّ إلى الأخرى، وبدأتا الضحك. قالت كيره: "نعم، الطير لا ينسى الشكر".

عند الأقدام، عليم يصفّق: "انظرا، انظرا. إنها تدور". كانت بندقة تدور كالمخطوفة في إعصار صغير.

صاحت كيميا: "عليم! أنتَ حاذق جداً!".

فنهض الطفل، مُشبَعاً بالفخر. قال: "هذا بندق ممتاز. أعطانيه سلطان ولد".

قالت كيره "ما دام سلطان ولد هو الذي أعطاكَه، فالبندق طبعاً ممتاز".

- ٢٣ -

استيقظت فجأة، جسمها منقوع بالعرق. ظنّت أنه الليل. لكنّ شعاع الشمس العابر فراشها بلّغها أنه منتصف الظهيرة، في صيف تضربك حرارته بنوم ثقيل. الصمت كثيف، من دون سقسقة أو زقزقة من طيور. تذكّرت أن شمس الدين غادر أول ساعة بالصباح. وبعد كنس غرفته وغرفتها مع الفناء، تناولت من الجبن والخبز المتخلّف عن البارحة، حاولت القراءة من شعر "سنائي"، ثم راحت في النوم أخيراً. أحسّت بالنعاس، فقرّرت الخروج إلى الفناء. على الأقلّ، هناك بعض الهواء.

أعشاها النور وهي تمشي بالخلاء. لا تزال الشمس عالية والحرّ أشدّ كثافة هنا مما عليه بالمنزل، لكنّ خرير الفسقية جعله محتملاً. غمرت ذراعيها بالماء فارتاحت. برودة المساء بُعيد ساعات، فتساءلت: هل ستسمع موسيقا الليلة بشرفة السطح؟ أم كالليلة السالفة، مجرّد الوجود الحارق لشمس الدين ومولانا؟ اشتاقت لهذه الأمسيات أكثر من برودتها النسبية.

تحسّ اليوم بالوحدة، والوحشة. مع أن قلبها دائماً مع شمس الدين، إلا أنه لا يكفي لملء فراغ عزلتها. الوحدة عصيّة على التحمّل هذه الأيام، بسبب اللحظات الغريبة التي تجد نفسها فيها بغرفة مولانا مع شمس الدين، مع تفهّم متزايد، إلا أنها تظلّ على فراشها جالسة بهدوء، أو تنهمك بمَهمّة يدوية في مكان آخر. وحدث مرة أن نُقلت بصورة غامضة إلى غرفة مولانا مع شمس الدين، وكان يحدّق فيها بابتسامة واهنة على وجهه، لكنّ بقيت تنظر إلى يديها وهي تريحهما على حجرها، فدهشت من أنها لا ترى غير وسادة مزخرفة عليها تجلس. لم تكن هي أو جسمها، هناك! فانزعجت فنهضت فمضت لتحدّق في المرآة المدوّرة المعلّقة على أحد الجدران، لتكتشف أنه لا صورة فيها!

هتفت: "أين ذهبتُ؟"

فعلّق مولانا مصادفة: "لا حاجة للشمعة حين تكونين بحضرة الشمس. فلا يجب أن تصيبك الدهشة".

أومأ شمس الدين، وكان يجلس إزاءهما . لم تُحدث الكلمات فرقاً، إلا أن قلبها قفز معترفاً.

منذئذ، صارت لقاءات مشابهة تُخلّف فيها جسدها وراءها . ثم تعود مع جسدها على حين غرّة، بعد هذه اللقاءات، تجد نفسها مشغولة بتحضير وجبة أو كنس أرض، وتتلبّث معها كلمات بارقة، مثل شذرات مرآة تردّ الضوء.

"هذا الشذا نحونا منجرف، ليس له من مصدر غير خباء أسرار الله".

"نور العشق يُحيل جبلّة الوجود إلى ذهب".

من الظلال الممتدّة خارج الفناء، عرفت أن الساعات قد مرّت من دون أن تعرف عنها شيئاً، عدا كلمات وشذا لم تسبر كُنْهَهُ. كيف أجلس معهما، ويظلّ جسمي في مكان آخر؟ لكنّ السؤال كفّ أن يثير عَجَبها، واليوم تشتاق إلى غرفة مولانا مع شمس الدين، مع علمها أن رغبتها هذه عقبة. كي تتحقّق، عليها أن تتحرّر، كريشة في مهبّ الرياح. لكنّ في نهار كهذا، حيث الوحدة غالبة وقلبها مشتاق إلى القوت، صعُب عليها أن تصدّ عن الجلوس في غرفة مولانا مع شمس الدين.

قطع عليها أفكارها صوت الباب يمينها . رفعت بصرها فرأت خديجة، متشكّكة من الترحيب بها . فآخر لقاء بينهما، منذ أسابيع، نفد فيه الكلام، فغادرت خديجة حزينة. فكّرت كيميا، إننا لا نعيش في العالم نفسه. هناك الكثير في حياتها الآن ما لا يعني أحداً غير شمس الدين ومولانا . لن تستطيع التفسير لخديجة أن هناك طريقة أخرى في السفر، أو أن صمتاً مُتَقاسَماً قد يكون حميماً أكثر من أيّما حوار أو

وصال جسديّ. أما خديجة، فالصمت لديها مجرّد عائق ينبغي التغلّب عليه بسرعة.

مع ذلك سعدت كيميا يومها برؤية صديقتها خديجة. قالت: "تفضلي"، وأفسحت لها مجالاً لتجلس معها جانب الفسقية.

فأنار وجه خديجة.

قالت كيميا: "اليوم حرّ"، وهي تغمر يديها بالماء ثانية، وترشُّ وجهها.

تُحدّق خديجة فيها بفضول يمتزج بحَيرة. تبدو متردّدة: "أردتُ أن أسألك... سنذهب إلى ميرام، عند خالتي صفية، لقطف أول عنب الموسم. هل ترغبين بالذهاب معي؟"، وتنظر إلى كيميا في توقّع، ثم تُردف نوعاً من التشجيع: "نوران ستأتي أيضاً".

مغرية فكرة ميرام، بحدائقها وكرومها، بمائها وطاحونتها، وجداولها الصغيرة التي تهمي على التلّ. ميرام واحة، مَفزَع من الحرّ. راحت كيميا هناك مرات. تذكُر يوماً، منذ سنين، وهي صغيرة: كان الجواد يخبّ على الدرب المظلّلة بأشجار الصنوبر، وهي تجلس في العربة بين مولانا وحسام الدين، مريده الشابّ؛ وإزاءهم سلطان ولد وعلاء الدين يضحكان على نكتة. وأن الريح تندفع بآذانهم. تذكُر أياماً أخرى قضتها جلوساً على ضفّة جدول، تنصت لمولانا وهو يأكل الحلوى والكعك الصغير الذي تعدّه كيره دائماً لمثل هذه المناسبات. تحسّ كيميا بالنسيم تقريباً يبرّده الماء. تسمع مولانا أحياناً وهو يتلو الشعر، ويغطّي خوار الساقية على صوته.

تتردّد. فماذا يقول شمس الدين إن لم يجدها حين يعود؟

لم يُفلِحْ تردّدها في إثناء خديجة، وقد تجعّد أنفها بطريقتها المضحكة ما يعني أنها منزعجة: "ليس جيداً أن تظلّي وحيدة طول الوقت. تحتاجين لرؤية الناس".

ضحكت كيميا. فقد استعارت خديجة من دون تعمّد نبرة صوت أمها، وعظ وتصميم.

قالت خديجة: "إذن ستأتين؟"، واستتار وجهها.

"لا، لا، لن آتي. فالوقت تأخّر ولا أظنّ أني أستطيع".

هتفت خديجة: "كيميا! أنت لا تخرجين. انظري، سينفعك الخروج، والجو أبرد في ميرام"، ثم تؤكّد: "سنعود قبل الظلام، على أيّ حال".

اعترفت كيميا: "لا أعرف. شيء مُغرٍ".

"إذن تعالي"، وتململت خديجة "فالعربة جاهزة، وأعدك لن نتأخّر في العودة".

أغمضت كيميا عينيها، تتصوّر رطوبة هواء ميرام، وهي مع صُويحباتها يقهقهن. سألت: "سنعود قبل الظلام، هه؟"، وهي تكبح شعوراً غامضاً من شرّ مرتقَب.

"سنعود. أعدك".

"طيب..."، ولا تزال متردّدة: "أظنّ أني سآتي. لكنْ اسمحي لي بأن أغسل وجهي". ومالت على الفسقية، تحفن[1] ماء بيديها، ترشّ وجهها، وتدُسّ خُصل شعرها المبلّل تحت شالها. سبقتها خديجة إلى الباب.

❖

سلّتها تفيض بالعنب. تضعها لتمسح العرق عن جبينها. كان الكرم الصغير يستحمّ بنور ذهبيّ محمرّ. على التلّ، تتلألأ الساقية بالنور، نصف مخفيّة بصفوف أشجار الحور. "انظري يا خديجة ويا نوران، قوس قزح في الساقية". فأطلّت صديقتاها برأسيهما.

قالت نوران: "لا أستطيع رؤياه. آه، نعم، تقريباً". بدرجات الساقية، يتراقص قوس قزح عبْرَ الماء.

---

1 – حفن الشيء حفناً: أخذه براحته أو براحتيه والأصابع مضمومة.

لمحت عين كيميا باقة عنب تُنيرها الشمس. فكّرت، هي آخر مرة، وعليّ الذهاب. قطعت الساق بمدية صغيرة أعارتها إياها خالة خديجة، وبدأت تهمهم بأغنية. أغنية من أيام طفولتها، كانت شبه مدفونة من الماضي.

"تبدين أفضل يا كيميا، عما جئت"، علّقت خالة خديجة موافقة. كانت امرأة طويلة، مرحة. قالت: "تلوّن وجهك الآن، واستعدت صوتك". وقفت، تنظر إلى كيميا باسمة وقدماها منفرجتان. أضافت: "لا تغنّي الطيور، وهي محبوسة في الظلام".

فاحمرّ وجه كيميا. هل يراها الناس هكذا وحياتها مع شمس الدين؟ طائر مسجون في قفص؟

"الطيور مختلفة، والأقفاص مختلفة"، أتاها صوت عميق أجشّ. فدارت إلى مدخل الحديقة النسوة الأربع، حيث هلّ الصوت، فكان جسم شمس الدين الطويل، مُنذراً بالسوء في المدخل المقوّس. قال، متجاهلاً رفيقات كيميا: "كنتُ أفتّش عنك".

شدّت شالها في عجلة، وقد انزلق على كتفيها، فأعادته إلى رأسها. سمعت بصوته تأنيباً. سقطت عند قدميها المدية الصغيرة التي كانت تمسكها منذ لحظة، مخذولة.

دار شمس الدين مبتعداً. غمرها يأس ممزوج بالخوف. فأسرعت تتبعه، غافلة عن سلّتها. وحين عادت، لمحت عينَي نوران مسودّتَين من الغضب والإحباط. هناك، فكّرت، حياة بسيطة مُبهجة ألفتها وأحبّتها، بوفرتها وجمالها؛ وهنا تتبع الرجل الذي قَبِلَته عن طيب خاطر زوجاً، مَن كان (على الرغم مما يتصوّره الجميع) يلبّي رغبات قلبها الحقيقية. لم تحسّ بتمزّق. بل راحت تتساءل: (مَن هذا الذي أتبعه؟)

جالسة بالعربة، ترى فوقها ظَهر شمس الدين يحجب السماء التي كانت مجرّد وهج ورديّ واهن يستحيل إلى أسود بطيئاً. قد جلس بجانب

السائق، تاركاً إياها وحدها بالمقعد الخلفيّ. راح الليل يغطّيها، فتمنّت ألاّ تنتهي رحلة العودة إلى قونية. لم تكن طويلة، على أيّ حال، فقد بلّغها صوت حوافر الجواد على الحجارة المعبَّدة بدخول المدينة. لمحت بوابات خشبية ضخمة، ثم تواترت الأنوار في البيوت، أبوابها تُفتح في يأس على برودة مراوِغة. ثم توقّف الجواد.

دخلا سكنهما من دون تبادل كلمة، ومضى شمس الدين إلى غرفته. وقفت في المدخل تحسّ بغثيان طفيف، وقلبها مثقل. قد يحتاج شمس الدين إلى طعام. فشغلت نفسها فترة، تجد الراحة في النشاط. ترجُف يداها وهي تطرق بابه مع آنية حساء وقطعة خبز على صينية. من دون انتظارها ردّاً، فتحت الباب. كان يجلس عند النافذة، شارد الفكر، تجاهلها وهي تضع الصينية فوق الطاولة الصغيرة بجانب فراشه. توقّعت كلماته المعهودة بالثناء، لكنْ حتى أغلقت الباب خلفها، لم تسمع غير صمت وَخَزَ أذنيها، كأجراس ترنّ عن بُعد. لم تستطع أن تأكل. فذهبت إلى غرفتها، ثم ركعت، تُخلّي نفسها إلى بكاء عاجز.

"يا إلهي، ماذا تريد؟ فأنا زوج من دون زوج. مازلتُ بنتاً لكنْ من دون رفيقات".

ركعت حتى لامس جبينها الأرض، ظلّت ساجدة والدمع يغرقها. يبدو أنه قد مضى ساعات وهي على هذه الحال، حتى رفعت رأسها أخيراً. كان ظلّ كبير بالمدخل. يحمل الظلّ شمعة. بدأ جسدها يرتجف من دون ضابط. دخل شمس الدين، فركع بجانبها.

همس: "كيميا. كيميا، انظري إليّ".

ترتاح يده بنعومة على كتفها. لا بادرة غضب أو لوم في صوته. مع ذلك فلا تزال مرتعبة. ترفع عينيها ببطء. بالغرفة نور يكفي أن يرى كلٌّ وجه الآخر، لكنها لم تتوقّع ما رأته، فلم تستطع كبح جُماح البكاء. في عينيه رقّة وتفانٍ هائلان، وهو ما لا يُحتمل، فلم تحسّ بنفسها إلا وقد

تفجّرت بالنشيج. كأن سداً فُتح. الألم، الشوق، الوحشة المحتشدة من شهور، اندفعت كلّها في وابل عنيف. فوضع شمس الدين ذراعه حولها، وتركها تبكي لحظة.

"لا شيء، يا صغيرتي، يسترعي الخوف". وهي تحضنه بشدّة، كمن يخشى فقدان ما قد وجد.

قال: "العشق لا آخر له، فهو بحر من دون شطّ. فتعلّمي كيف تحتملين".

ردّت نظرها إليه، وبينما راحت تتقابل عيونهما، هبت ريح عظيمة فملأت الغرفة، كسحت آخر أثر من الخوف، من الشكّ، من القلق. فتّشت يداهما، شفتاهما، كلٌّ عن الآخر، ووجد كلٌّ الآخر. فهل غمرتهما ريح أم نار؟

سمعته يقول: "لا، لا تحاولي الفهم".

طحنتهما موجة إثر موجة، وصلتهما، ثم كالمتوقّع فصلتهما، لتضمّهما من جديد. ينفطر فيهما إيقاع الحياة العظيم، نبض الأرض والبحار، فيوحّدهما في واحد. قال هامساً: "إنها لَعطيّة، عطية! أن يعرف الجسدُ الروحَ، وتعرف الروحُ الجسدَ".

آه، يا لها من عطية، دُهشت باكتشافها. رجل وامرأة، كلٌّ واحد. غمر جسدها كلّه، كمال وفرحة. سمعت نفسها تقول: "للأبد، للأبد"، وكان صوته بعيداً، مع أنه قريب، كأنه صدًى يرجّع: "للأبد، للأبد، في خلود".

يرقد كلٌّ بين ذراعَي الآخر، ورأس كيميا يرتاح بتجويف كتفه.

قال بهدوء: "وهذه أيضاً صلاة".

شملتها موجة عرفان، فرفعت رأسها ودعكت خدّها بظَهر يده. تحسّ كأنها تنجرف إلى الذكريات. فيندفع جدول ماء إلى منحدر جبل، تغطس شمس ذهبية وراء ضلع الجبل، يعلو صوت أمها صداه على بُعد، يندمج وجه الأب كريستوم بوجه مولانا.

سمعت شمس الدين يهمس: "حان وقت الراحة". فتحت عينيها. كان واقفاً فوقها، وبيده الشمعة. لمحت في عينيه حزناً عابراً.

تمتم: "لم يعد إلا القليل، وقت قليل...".

فماذا يقصد؟ تساءلت. لكنه استدار، فلم تلمح إلا ظلّه حين حدّده نور الفناء المُعتم. ثم راح الظلّ. رقدت فترة مشبعة بسعادة جديدة لم تتصوّرها، ثم بدأت تتجرف نحو النوم.

كان ملاك يثبّتها بين جناحيه، وتستكنّ في نوره. قال الملاك: "أمامك القليل، وقت قليل"، كأنه واقع.

استيقظت مرتجفة، تستعيد وقع الكلمات بأذنيها، الكلمات التي نطق بها شمس الدين قبل ساعات. فاجأها نداء الصلاة، وكانت ترتعد من برودة الصبح. بمستهلّ الفجر تبدأ الطيور سقسقة. فتأوّهت: "إلهي، لِمَ يوجعني قلبي، أمِنَ الفرحة والألم مُضفّرَين معاً أكثر وأكثر؟ فماذا يحدث لي؟"

- ٢٤ -

منذ ما دعته "ليلة عُرسها"، اكتست الحياة مذاقاً جديداً. بُعيد ذلك لا شيء قد تغيّر؛ فلا تزال تروح السوق مع كيره كلّ صباح تقريباً، وتشغل نفسها بمهام المنزل، أو تقضي ساعات مع نفسها، تصلي أو تقرأ الشعر أو تجلس ببساطة من دون شيء تفعله. لكنّ شعور الوحشة غادرها. كأن تلك اللحظات عَبْر السنين، حين فكَّ العَالَم قبضته من حولها، وتخضّب كيانها بعميق السعادة، قد انبثقت في فرحة لا تنتهي. كان نور يهديها في مَهامّها، وهذا النور هو حضرة شمس الدين، كأنه معها دائماً، سواء كان معها أم لم يكن.

قالت لها كيره ذات صباح: "قلبك يغرِّد. أسمعه".

خجلت كيميا. فهي حقيقة. قلبها يغرّد، مع أنه كان يتوجَّع، لكنها لم تفصح بالمزيد. تمتمت: "قلبي صغير جداً"، وهي تضع السلّة التي تحملها ملأى بالخُضار والفاكهة: "كأنه يودّ التنفّس، ولا يعرف كيف".

"سيهتدي قلبك للطريق"، قالت كيره كأمر واقع. وأسقطت هي الأخرى سلّتها، كلّ إزاء الأخرى. تتّخذ عينا كيره جاذبية مفاجئة، وتقول: "لا حدّ أمام قلوبنا. هذا الوجع معناه أن قلبك يتمدّد".

ولا تحتاج كيره، كالعادة، إلى ردّ، ولا تتوقّع رداً على كلامها. ثم تناولت كلٌّ سلّتها، وسارتا عائدتَين في صمت.

❖

يومها، عاد شمس الدين بعد الظهر. ذهب إلى غرفته، وخلّى الباب مفتوحاً. على عجَل، حضّرت كيميا الشاي.

حين دخلت الغرفة وجدته، كما يحدث غالباً، بعينيه مغمضتَين، وشفتاه تتمتمان في صمت. كأنه صخرة أو جبل منيع.

قال: "ابقي"، وهو يفتح عينيه نصفهما. من نبرة صوته تتبيّن، ليس أمراً بل دعوة أو طلب. فجلست، وظهرها للجدار. راح يتلو أسماء الله الحسنى. تُغمض عينيها فتدع الأصوات القُدسية تتردّد عبر كيانها. وحين فتحت عينيها، كان الجوّ ظلاماً وشمس الدين واقف فوقها، بالشمعة في يده.

قال: "هذه طريقة لتلمّس حدّ السماء"، ومدّ يده ليُعينها في النهوض: "لكنْ لا يُسمح لأحد أن يتلبّث هناك، على الأقلّ ليس بعد". كان صوته خفيضاً، فكأن ظلّه بالحائط هو الذي يتكلّم.

جاء غرفتها تلك الليلة، لكنْ هذه المرة لم تكن عاصفة، فقد ضمّهما معاً نسيم عليل. نضّ عنها ملابسها ببطء، ورقدت هناك كأنها تغرق في العدم الذي صادفته وهي صغيرة بمناسبات أخرى. لكنها هذه المرة تدخل العدم بكامل وعيها، تَشرَّبَ خلايا جسدها معرفة كانت وراء الكلمات. كان كلّ يلامس الآخر، في رَوع تقريباً، واعياً بشيء ثمين لا نهائيّ، هشّ لا نهائيّ، مكشوف. أطراف أصابعها قرون استشعار، تستكشف طريقة جديدة لتعيين الحقيقة، يقودها جسدها لاستبيان ما ظلّ عياناً حتى عرفت على حين غرّة وبدقّة ما يحدث: "أختفي في كيان". لم تكن فكرة، بل معرفة صُنّفت على عقلها. لفظت صرخة، ثم تلاشى كلّ شيء. حين عادت لوعيها ثانية، كان شمس الدين يربّت خدّها، وعيناه تعكسان نور الشمعة التي تحترق بجانبهما.

يتمتم حالماً: "لا حدّ أمام الله في تعريف نفسه".

علت صدرها موجة عرفان، تستجلب الدمع بعينيها.

واصل: "هو الله الأحد، العشق الذي تحسّين هو الله". يتكلّم بحزم كأنه يحذّرها: "أنا خادمه وحسب. فلا تنسَي".

كسحتها ريح صرصر. هل يعني أنها تعشقه، وأن عشقها له نوع من الكفر؟

قال: "عليك الحذر، يا صغيرتي ، وصوته مفعم بالرقّة: "عليك الحذر، ألا تخلطي بين عشقك لي وعشقك لله".

راحت يده تضغط كتفها، فبدأت تبكي. أنّى له بمثل هذا العنف؟ أنّى له بتلمّس قلب كيانها، دائماً؟ لقد وهبته نفسها، كلياً. جسدها وروحها إليه، مع أنه جعلها تعي، عن حقّ، أنها لا تستطيع تبيان مَن تعشقه بشكل غامر.

مسح دموعها بنعومة وهي تهمي على وجهها، تاركاً إياها تمتص كلماته. كانت في حيرة. حينما تصل لمكان أخيراً، تظنّ أنها في أمان، فيصرفها فوراً عن نفسها، يُخلّيها في حيرة تامة من جديد. فكّرت، لا أعرف حتى معنى العشق. هذا الشَرَك الذي لا يُحتمل من الألم والفرحة، هل هو العشق؟ وهل يفعل هذا العشق، يجرّدكَ من كلّ شيء غير قلبكَ المتوجّع؟ راحت في النوم كالهارب من منزل في حريق.

حين استيقظت كان شمس الدين قد ذهب، ومن النور المتخلّل عبر النافذة الضيقة بان أنها ضيّعت صلاة الفجر. فتمطّت، ثم نهضت وبدأت تلبس. ستلبس اليوم قفطانها الأحمر الداكن، لتبدو عيناها أشدّ اسوداداً. هكذا قالت خديجة، ذات يوم. ضحكت من نفسها. فهي تريد أن تلمح في عينَي شمس الدين نظرة الإعجاب التي لمحتها يوم عُرسهما. في صدرها ألم طاعن مفاجئ، ذكّرها بتحذير شمس الدين، ألا تنسى الله من عشقها له. لكنّ الله، قطعاً، يسرّه أن تبدو جميلة. إذن، تريدين أن تتبدّي جميلة، لكنّ جميلة لِمَن؟ سؤال يثير التوتّر. فنفضته عنها، رافضة أن يلطّخ خفّة قلبها الحالية، وهو ما جعلها، بشيء من التحدّي، تلبس قفطانها الأحمر.

❖

فيما بعد، وهي تكنس الفناء، سرح بالها في ذكرى عذوبة ليلتها مع شمس الدين. فكّرت، كانت أعلى من العذوبة. فقد فهمت شيئاً مهماً،

ظلّ يراوغها. فما هو؟ كفّت عن الكنس. كان فهماً مفاجئاً، كالبرق. لكنْ ما هو؟ لقد عبّر عن نفسه بكلمات، وله علاقة بالاختفاء. صار إلى حقيقة: "أختفي في كيان"، هكذا كان. فأغمضت عينيها، تحاول أسر الحقيقة، المعرفة، الكلمات التي تحملها. لكنَّ اليقين المشعّ الذي غمرها عندئذ لم يعد غير نكهة هارية، كمذاق تخلّف عن حلم قد تلاشى. ثم جلست على المقعد الحجريّ. لماذا لا تقدر أن تستعيد تلك المعرفة؟ من أعماق كيانها، جاش صوت: "كفى مجاهدةً!". لم يعد ثمة شكّ: هذا هو مولانا يستحثّها، وهي بعد تجلس وحدها على المقعد الحجريّ بالفناء، أمامها الباب المفضي إلى صدر المنزل، وقد حجزته أشعّة الشمس، موصود. على اليمين، تهدهد أوراقها شجرة الكرز، تتفق أنه لا سبب لمجاهدة شيء. "كفى مجاهدةً". طُبعت الكلمات في بالها بسلطان لا يهتزّ. طبعاً! تلك الليلة، حين بلغها الإدراك، كانت معزولة متفتّحة، من دون سعي للإمساك بأيّ شيء. هو السرّ كان! وبدأت تضحك. لقد لمحت معرفة أخرى، لكنْ كسابقتها انجرفت تواً.

"معرفة الله حرّة كالطائر، كذا روحك". صوت مولانا من جديد. رأت قُبّرة تغطس بالفسقية. خبط الطائر الماء، حلّق ثم اختفى كما ظهر. تطلّعت في الماء، تتساءل: هل تعي قطرات النور الوامضة أن شررها من الشمس، لا من ذاتها؟

❖

مرت أسابيع منذ أن زارها شمس الدين آخر مرة بغرفتها. تدور الشائعات والنمائم في المدينة أكثر ذيوعاً. فكّرت، لم يدم ذوبان الجليد الذي تبع عودة شمس الدين طويلاً. على الرغم من وعودهم بتقبّل شمس الدين وإبداء احترامه الكامل إلا أن مريدي مولانا ظلّوا يشتكون. كانوا يأملون أن يقضي شمس الدين، وقد مُنح زوجاً، وقتاً أقلّ مع سيدّهم، وأن يعود مولانا لإرشادهم من جديد، لكنَّ آمالهم خابت. لم

ينفصل شمس الدين ومولانا كالسابق، ولم تعد لمولانا نية واضحة باستئناف هديه السابق. وظلّ الناس في السوق يتهامسون وراء ظهرها.

أصاخت مرة لامرأة تتقوّل عليها: "فتاة بائسة، لا يُسمح لها برفيقات أو نزهات".

فردّت أخرى: "آه، ستُصاب بعلّة، لو دامت على هذا".

ولا شكّ في أن قدوم شمس الدين ليأخذها من ميرام قد تضخّم وحُرِّف. فاستدارت، من دون أن تلحظ رجلاً كان يحدّق فيها خلف كومة خضرواته. تقف فلاّحتان أمام المحلّ التالي، كانتا تلبسان بنطالين فضفاضَين كنساء القرى. يلفّع كتفيهما شالان بألوان خفيفة. هناك رأت أمها، تقف أمامها وهي تثرثر مع جاراتها. وحين أدارت المرأتان رأسيهما نحوها، تلاشى المنظر. لم تبذلا جهداً للتعمية على فضولهما. ثم ابتعدت كيميا، غاضبة. ألا يكُفّ الناس كلامهم عما لا يعرفون؟

❖

مرت أيام، فأسابيع. بدت شجرة الكرز منهكة وغطّى أوراقها الغبار. مع ذلك، في الصباح، حمل الهواء البارد نذيراً بأن الصيف على وشك النضوب، وتتلفلف كيميا ليلاً تحت بطانية. لم يزرها شمس الدين منذ أن اكتشفت، تلك الليلة المُفعَمة بالعذوبة والحيرة، أن المرء قد يعرف شيئاً ولا يفهمه. قال شمس الدين مرة: "هناك معرفة قد لا يعلم عنها العقل شيئاً". واستفهمت ساعتها عمَّ يقصد. لكنَّ تجربة تلك الليلة كانت هكذا: لقد مُنحت معرفة لم يستطع عقلها التشبّث بها. ويبدو الآن، عموماً، أنه صار منذ زمن طويل، وبأوقات أسعد. أما هذه الأيام فقد كان شمس الدين يبعدها. حين يأتي البيت يومئ فقط، يبدو حانقاً، نافراً تقريباً. فهل أغضبته لسبب مجهول؟ وقت الظهر، وهي تحضّر صينية طعامه، أوقفها.

"اتركيها عند الباب، فلا حاجة لدخولك".

وكأنها طُعنت. فانسحبت، تخشى أن يرى الدموع بمآقيها. لكنه لم يفعل. فلم ينظر إليها. كان قليلاً ما يتحدّث إليها، وحين يفعل فهو عن أشياء عادية، يذكّرها بحاجة مزلاج الباب إلى زيت، أو أن تطلب من كيره شمعاً زيادة. تحاول تفسير مسلكه. ألم يعد يُكنّ لها حباً، وأنه كان يتظاهر؟ ولم تُصدّق. أم لأنها، كما حذّرها، تُخاطر بنسيان الله؟ ظلّ السؤال يقضُ مضجعها. أن تذوق حُبّاً كاملاً، حدّ الإشباع، ثم تفقده فكأنها تعيش بمُدية زُرعت في قلبها. لم تتصوّر أن بإمكان المرء أن يحسّ بهذا الفيض من الألم. وتقوّض شعورها بالكينونة. نظرت إلى نفسها فدُهشت بأنها لا تزال تسكن جسدها. هأنذا، فكّرت، متشكّكة، فلم تعد هناك (أنا) تحدّدها. تذكّرت أنها كانت تجد مَفزعاً بالصلاة، في أوقات الألم، لكنها الآن عاجزة حتى عن الصلاة. كلّ ما تفعله هو أن تصرف الأيام، متنبّهة لَهامّها، لكنها باردة من الداخل، فارغة بكماء. دُفنت فيها تلك اللحظات الثمينة التي كان شمس الدين يُشاركها فكرة، رأياً، ذكرى. كانت هذه اللحظات أغنى من وصالهما الجسديّ، فهي قوت القلوب الذي فُطرت عليه. ولم تعد، هذه اللحظات، وقلبها قاحل.

❖

علّقت كيره يوماً، مهمومة: "تبدين بالغة الشحوب. لا تراعين نفسك"، وأحسّت كيميا بتقريع في صوتها. كانتا بالمطبخ الكبير معاً، يشغلهما تقشير الفاصوليا. كلتاهما صامتة، منخرطة في عملها. إيقاع نشاطهما الهادئ لطيف: تكبسان حبّة الفاصوليا، ثم تقشّرانها بالإبهام فتُسقطانها بوعاء الخزف أمامهما، أما القشور فإلى المهملات عند أقدامهما. وهو أمر لا يُكلّف انتباهاً ليظلّ ثابتاً. تقف كيره، يداها ترتاحان على حجرها.

كمن يُكلّم نفسه، قالت: "هناك أوقات... تكون أبرد صَلاة أكثر قرباً من الله. والله، ساعتها، برحمته، يخصّ بوعيكَ أنكَ تفتقده". فتناولت يد كيميا بين يديها، وعيناها مُفعمتان بأرقّ عناية.

أحسّت كيميا بحلقها ناشفاً، فانفجرت في الدموع. صاحت: "لا أقدر على الصلاة. فقلبي يوجعني". ارتاحت، أخيراً، أن فاضت إلى كيره. هزّت رأسها في عجز. ثم تمتمت: "لا أعرف كيف أوقف الألم"، والدمع مدرار على وجهها.

قالت كيره بحزم: "لا تعرفين كيف توقفينه؟ حين يزيد الألم، فهناك ثلاث قواعد: ألاّ تصرفي عنك هذا الألم، ألاّ تتفهّمي هذا الألم، ألاّ تنغمسي بهذا الألم". صوت كيره يقين مريح "تفتّحي كشجرة يافعة ضُبطَت في عاصفة. فدَعي العاصفة تُميلك على هواها، لا تقاومي العاصفة، لا تجادلي العاصفة (كيف يتأتّى للمرء أن يُجادل الريح والمطر؟)، واطردي الحزن عنك، الآن وأبداً".

تلك الليلة، تركت كيميا الشمعة تحترق بغرفتها. كانت تصيح: "إلهي، لا تخذلني". لكنّ لم يردّ دعواها أحد؛ فظلّت تصرخ في فراغ. تذكّرت صوت مولانا يُبلغها ألا تُقاوم. هي نصيحة كيره، نفسها. وماذا تفعل، عموماً، غير الإذعان؟ إن وسائل شمس الدين يُعجزها الفهم، والألم الذي يمزّقها عصيّ على أن يُقاوَم. شجرة ضُبطَت في عاصفة هوجاء، نعم، هكذا كانت. تسمح الأشجار بمرور العناصر من خلالها، ولا تشتكي، تتحمّل. كانت الصورة مفعمة بالحيويّة، حتى لقد أحسّت وهي بالفراش أنها تجلس مستقيمة، تربطها الجذور إلى الأرض.

❖

مرت أيام قبل أن تدرك أنه في مكان عند قلب العاصفة وهي هوجاء، مكان وراء الهياج؛ نقطة سكون، حيث ترقب بهجة صمّاء داكنة إلى حدّ لا يُصدّق. حين تنجح في تثبيت عقلها، يتصرّف ألمها كمغناطيس، يجمّع أجزاءها المتناثرة، ويسمح لها أخيراً ببلوغ ما وراء اللحظة، حيث البهجة الصماء سكينة لا نهائية، قوة لا نهائية. لكنها غريبة، فالألم لا يزال نابضاً، بل يصعُب أن نقول ضرورياً. تتشبّث بصخرة، طالما تشبّثت بها،

حتى لا تتطوّح بعيداً، مع أن نقطة السكون شاحبة. كصورة في بحيرة، كانت الرحمة بأدنى هبّة ريح.

"هذه الصخرة مركزك"، لم يكن صوتاً هذه المرة، بل رسالة صمّاء كُتبت بحروف بارقة في خيالها "نقطة السكون مكان اللقاء. قد تفقدين أثرها، لكنها لن تُخلّيك".

فنبَت الشمعة، فاستدارت إلى الجدار تغطّ في نوم عميق.

- ٢٥ -

كانت تقف بالمدخل حين عاد مساءً، فلم تجد وقتاً للفرار إلى غرفتها كما أصبحت تفعل في الآونة الأخيرة غالباً. لم تكن قد أنارت بعد مصباح الزيت، وبدأ المكان يعتم. نظر إليها بلمحة سريعة، فجعلها ترتجف. فهل أخطأت؟ ظنّت أنها لمحت ظلاً من الحنوّ في عينيه. لكنه خفض بصره وهو يمرّ بها؛ كلّ ما رأته هو التعبير الحانق المعتاد. دخل غرفته، لكنه ترك الباب على مصراعيه، لم يغلقه وراءه كما يفعل غالباً في الأسابيع السالفة. رأته يثني رُكبتيه ويركّع نفسه. ظلّت واقفة في الصالة، والصمت يرنّ بأذنيها. ثم انسحبت عائدة. تحسّ بالحائط أمامها فظّاً. تُعجزها الحركة، فتدع نفسها تزلّ. كأنها غرقت لحظة في نعومة داكنة، بينما كانت في الوقت نفسه تندفع بخفّة. أحسّت قلبها يخفق من دون انتظام، يفقد دَقّته أحياناً. ضاع حسّها بالزمن، حتى وعت بوجوده فوقها. فتحت عينيها، فرأت جسده الطويل يستدير ببطء، وذراعاه على صدره متقاطعان، ترتاح كلّ يد على الكتف المقابل. كان وجهه خالياً من أيّ تعبير. تحرّكت لا إرادياً. فتح عينيه نصف فتحة ومال نحوها، أخذ يدها يشدّها للنهوض.

تمتم: "دعيه يستولي عليك. دعي الله يمسك قلبك".

تعثّرت في البداية، ثم حاكته غريزياً فجعلت يديها متقاطعتَين على صدرها، ريثما ترشدها قدماها في دُوار بطيء. تستدير، فتحسّ بقلبها يتمدّد، والألم المعهود أكثر حدّة. لكنها تحتمل بعزم كلّ ألم العَالَم من أجله. تدور بعينين مغمضتَين حول شعلة بيضاء، والشعلة قلبها ذائب في عناق يُفعمها بفرحة تحتملها بمشقة.

بدا صوته ناعماً: "كفى! في البداية، يستطيع القلب أخذ رشفة كلّ مرة".

فردّت إلى نفسها، معاندة. (لِمَ لم يتركها تختفي مفصولة في ذلك الحبّ الحارق؟) كانا يقفان بمنتصف الممرّ تشملهما العتمة. حولهما قدرة ملموسة. كان قلبها تحت يدها خافقاً كحيوان بريّ معتقَل في قفص. ظلاّ صامتين. وهي ترتجف، وضع يده على كتفها ليثبّتها.

قال: "فقدان نفسك الوسيلة، لا الغاية. وعشق الله عظيم، فيودّ منك أن تعرفيه بوعيك كاملاً".

هل قال، لا يُفترض أن تختفي؟ لا يُفترض أن تذوب كلياً، مع أنها جلّ رغبتها؟

قال: "ارتاحي. فقد سمع الله صلاتك".

تذكّرت أنها رجت الله البارحة ألاّ يهجرها، وظنّت أنه لم يسمع.

ردّ على لمعة بالها: "الله يسمع دائماً". لم تستطع رؤية وجهه، لكنّ هناك ابتسامة في صوته، ولأول مرة من أسابيع تنفّست بحريّة.

استيقظت الصباح التالي وقد راح الألم الموجع، انقطع. لا شيء قد تغيّر، لكنّ كلّ شيء كان كما ينبغي. يصعُب أن تُحدّد حبّها لشمس الدين، وسائله معها، فهو معلّم أحياناً، زوج أحياناً، وأحياناً – من يدري؟ عاد شعور العرفان، ومعه شعور بالراحة والعجب. تذكّرت يوم رأت مولانا يغزل صامتاً في ركن بالشارع. لقيته مشهداً غريباً، مُحرجاً طفيفاً. فيما بعد قال مولانا: إن معظم الخلق غير مؤهّلين للتغيّر، غير مؤهّلين للحريق. ولم تفهم وقتها معنى كلمة الحريق. عرفته الآن. أن تحسّ بالعشق كلياً، ثم تُهجَر فجأة بأشدّ من الموت. فالحريق مزّقها إرباً.

فكّرت في ورد تبريز الذي ذكره مرة شمس الدين (قبل عُرسهما بزمان)، الورد الأصفر ذاته بقلوبه المرقّطة بالأحمر، كأن هناك مَن نثره أمام مدخل سكنهما يوم العرس. قال: "هذا الورد قريب من الله، فقلبه النازف يلاقيه". وقد أرعبتها كلماته، لكنها تعرف الآن ما كان يعنيه.

تحسّ أن اللّه يهجرها كشمس الدين. وسط العزلة التامة، توقن أنه بدلاً من تعلّقها باللّه، اعتمدت كلياً على شمس الدين بأهوائه المتقلّبة، فضيّعت مركزها. فهمت الآن! دونما مركز، ألمٌ وحسب. هذا هو الفرق! الحبّ، الحبّ الحقيقيّ، كالنظر إلى شخص من نافذة اللّه. الباقي كلّه متعلّقات، والمتعلّقات كالسقوط من النافذة. غمرها حسّ من الراحة. قد يحبّ المرء امرأً، من دون أن يريد شيئاً منه!

"ليس الحبّ غير نَفَسٍ من اللّه، ينفثكَ خارجه، ثم ينفثكَ داخله".

نهضت مرتاعة. كان شمس الدين واقفاً بالمدخل، يُحدّق فيها. منذ متى وهو هناك؟ خجلت أن يراها بالفراش، والصبح تقدّم. لكنه لم يَبدُ لائماً. بل في مزاج فَرِح.

علّق: "شُرّعَت لك الأبواب في ومضة. لا علم عندكِ كم أنتِ مباركة".

ضحكت. فهل بوركَت بمجرّد أن فُتِحَ بابها؟

هزّ رأسه، نصف مسرور، نصف مأخوذ بضحكتها. قال، وهو يدور مبتعداً: "أنتِ على حقّ. فأنا بالغ الجدّية". ثم راح. وهي تبتسم لنفسها، سمعت صوت خديجة.

"كيميا، أنت هنا؟ أتيتُ لك بما تحبين".

لم ترَ خديجة منذ يوم حادثة ميرام، مرّ أكثر من شهرين. خطر لها أنها منذ يومئذٍ كانت طفلة، وهي الآن امرأة. فلبست قفطانها وإلى الممرّ حيث تقف خديجة، وسلّة مملوءة بالتين في يدها.

أخذت خديجة بين ذراعيها، تحسّ نحوها بأمومة. قالت: "خديجة، سعدتُ برؤيتك".

راحتا تجلسان بجانب الفسقية في الظلّ. أتت كيميا بإبريق ماء عذب وقدحَين. فالتين شديد الحلاوة كالعسل، والماء رطب.

تقول خديجة: "قلقنا عليك. لكنك تبدين بخير". ثم اندهشت: "مع ذلك، أنحف قليلاً".

كانت خديجة تتوقّع رداً، لكنّ كيميا لم تجد ما تقوله. غريب! قد تخلّت عن الفضول والنميمة، فلم تعد تبالي. نظرت إلى صديقتها، تذكُر أنهما كانتا لا تكفّان عن الضحك والثرثرة معاً. راح مزاحهما السريّ ونزهتهما في حديقة قمر الدين إلى زمن آخر، عَالَم آخر خلّفته وراءها. قد تحدّد متى حدث: يوم ميرام، حين جاء شمس الدين كي يأخذها. لم تعرف ساعتها أنها انتقلت إلى عَالَم أشدّ توتّراً، مع أنه أكثر سكينة، تحرّرت من الهياج الذي يمسك بالناس عادةً.

قالت خديجة: "كيميا، أوحشتني. يندُر أن ألاقيك فأتكلّم معك. ما هذا؟ ما الحكاية؟"، وعيناها تتاشدانها:

"لا شيء حقاً، لكنّ الأمور تغيّرت يا خديجة. فما اعتدتُ التمتّع به لم يعد يعنيني".

"أنت مريضة؟ غير سعيدة؟". تحدّق فيها خديجة، تبدو قلقة.

"سعيدة؟"، كلمة خلو المعنى. هناك ما هو حقيقيّ، وما هو غير حقيقيّ. وما يسمّيه الناس سعادة وغير سعادة، فكّرت، يعود إلى ما هو غير حقيقيّ. وخديجة تنتظر.

قالت كيميا: "غير سعيدة، أنا"، وفتّشت عن كلام مناسب: "إنني أعيش، أكثر من ذي قبل. وهذا مؤلم أحياناً، لكنه... بهيّ". أغمضت عينيها دقيقة. لم تكن هناك كلمات تبلّغ ما كشفته مؤخّراً. فكلّ لحظة أبدية، كلّ نَفَس حياة كاملة: ثُقل يدها على حافّة الفسقية، رطوبة الهواء على جلدها، صريف ورق الشجر، كلّه عطايا وهبَتها كي تذوقها. تمتمت: "آه لو نعرف"، نصف الكلام لها، ونصفه لخديجة التي لمعت عيناها من دون فهم (كما يبدو)، بل خائفة. غصبت كيميا ابتسامة. فلا يلزم أن تُخيف خديجة.

"لا تقلقي يا خديجة. لقد حذّرتني كيره أن الزواج من شمس الدين لن يكون سهلاً، ولم يكن، لكنّ صدّقيني يا خديجة، أرجوك صدّقيني، لا أطلب نعمة أكبر".

هتفت خديجة: "عيناك تبرقان!"، وتنظر إلى كيميا بيأس: "لمَ لا أحسُ أني أفهمك؟"

"لا يهمّ يا خديجة. فنحن مختلفتان، هذا كلّ شيء. المهمّ أن كلّ شيء بمشيئة الله، هكذا، تعرفين. هكذا"، وهي جدّ متّقدة "كيف أُفهمُك أن شمس الدين ليس من الشيطان، بل هو مبعوث إلهيّ؟"

بدت خديجة مسحوقة الفؤاد: "هل تعرفين أن الناس أشدّ غضباً منه الآن، عما كانوا قبل رحيله؟"، واعترفت: "يقولون إنه سَحَرَ مولانا، كما يسوقك نحو القنوط".

"خديجة، لمَ تتصتين لهذا كلّه؟ لقد سمعتُه من قبل؛ بلّغتني نوران. لكنْ ألا تعرفين أنّ لا شيء منه صحيح؟"

خجلت خديجة. فهي لا تُصدّق النمائم كلياً! لا تبدو زيارتها بريئة. فقد أتت لتكشف أين راحت كيميا، كما ودّت أن تحذّرها من تصاعد العداء نحو شمس الدين. ظلّتا صامتتَين للحظة، مع خرير الفسقية يرجّع حولهما صداه.

تمتمت خديجة: "شمس الدين في خطر مُحدق"، وتحدّق في يديها، كي تتفادى عينَي صديقتها.

غرق قلب كيميا. فخديجة تُضيف صوتاً إلى خوف تحاول صرفه، ولم يحِن...

سمعت نفسها تقول: "شمس الدين سيّد مصيره". أدهشها اليقين النابع من كلماتها. مع ذلك، لم يبدّد إحساس الغرق. يعيش شمس الدين بلهيب اللحظة؛ يحترق باللحظة، ولا يتأبّى منها أيّ شيء. يعانق الفرح كما يعانق الألم، ولم يحرفه أحد عن مساره. دربه ضيّق، كالدروب المحفورة على المنحدرات التي كانت تطأها في القرية، كلّ حنية بتحدٍ جديد، خطرٍ مستجدّ، ربما موت – لكنه الموت جزء من الصفقة. حينما يهلُ الموت، سيُحيله شمس الدين طوع يديه. وارتجفت. لمَ هذه الأفكار السوداء؟

قالت: "لن يحدث ما لم يدعه يحدث". كانت حقيقة، مطمئنة قدر ما هي مرعبة.

همست خديجة، مع أنها فهمت: "هل شمس الدين حرٌّ كالرياح؟"

أومأت كيميا، مرتاحة. تنظر كلٌّ إلى الأخرى، فتبتسمان في آن معاً. لم يرُح حسّها بالغرق كلياً، لكنَّ خديجة الآن تمسك يدها. فقد اجتازت صداقتهما اختباراً.

فأخذت خديجة بين ذراعيها من جديد، وهي تغمض عينيها بشكر صامت.

- ٢٦ -

بعد أيام من زيارة خديجة، قابلت كيميا علاء الدين مصادفة. وهي تَعبُرُ الفناء في طريقها للخروج، دخل من الباب الصغير بالبوابة. كان يركب الجواد في الميدان قطعاً. عقصة شعره الأسود على جبهته مبلّلة برشح العرق.

"وماذا أفعل هناك غير ارتياد الخيل؟"، سمعته يوماً يتحدّى كيره، حين علّقت أنه لا يكاد يُرى البيت. ويجيبها عابساً: "لم يعد أبي يوفّر وقتاً لمريديه أو عائلته".

فردّت كيره بحسم: "وأنتَ تفضّل رفقة المتذمّرين منه ومن شمس الدين. هكذا تتدبّر تعاستكَ". هي غاضبة، وهو أيضاً. قاطعهما عليم وقد سكب عصيدته على الأرض صارخاً يطلب عوناً. انتهز علاء الدين هذا التحوّل، فغادر الغرفة هادئاً.

الآن وحدهما بالفناء، كيميا وعلاء الدين، وجهاً لوجه لأول مرة، منذ تلقّيه التوبيخ المذلّ من شمس الدين. تردّد علاء الدين لحظة، ثم واصل سيره ولم ينبس، وجهه مقطّب بانصراف حانق. مع ذلك سنحت فرصة لتلمح ومضة الحزن الغاضب في عينيه. يبدو مثل حيوان جريح، فكّرت، مستعدّ لعضّ أيّ امرئ يصدف أن يقترب منه. خلّفتها هذه المواجهة بقلب مُثقل وطعم مرير في فمها. يجب ألا أدع علاء الدين ومن مثله يزعجونني. طمأنت نفسها، كلّ شيء على ما يرام. في النهاية لن يكون غير مشيئة الله. سمعت مولانا يقول مرة: "ليس الناس غير ذرّات تراب يحتكّ بعضها إثر بعض". وأردف ضاحكاً: "وهذا، طبعاً، متعبٌ قليلاً في أحايين"، ما جعلها تضحك أيضاً. واحتكاك اليوم قطعاً متعب، لكنه ليس السبب الذي جعلها تضطرب من مزاج علاء الدين الكئيب.

حين دخلت الحواري الضيقة، لاحقتها عينا علاء الدين المفعمتان بالألم والغضب. كادت تنسى، وهي ضائعة الفكر، كانت في طريقها لتسليم معطف صغير كانت قد زيّنته لمولودة ابنة عمّ كيره التي تسكن بالجانب الآخر من المدينة. أقصر الطرق هي عبر السوق. فدخلته، يبطئها الزحام المعهود الذي يعجّ بالحواري الضيقة. الهواء كثيف هناك ومملوء بروائح البهارات والدخان والعرق، وصراخ الأولاد الممتزج بصيحات أصحاب الدكاكين وزعيق النساء الحادّ. وفجأة غمرها، مع ذلك كلّه، نَفَس لاهث، فتوقّفت قرب دكان خضار. ألمُ قلبها أشدّ من العادة. لاحظت أم خديجة تقف بُعيد خطوات منها، مشغولة بحوار متوتّر مع امرأة أخرى. لحسن الحظ، لم تَرَها أيّ منهما، فولّت كيميا وجهها نحو حارة حيث توقّفت حتى ارتاح تنفّسها، واستطاعت المضيّ. وصلت فوراً حواري الصائغين الأكثر هدوءاً، بصفوف الأساور المختارة المرتّبة، دبابيس وحلقان وهّاجة بالعتمة. كما سمعت رنّات صائغي الفضّة، وهم يدقدقون ما يشغلونه بمكان ليس بعيداً.

أمسكت أذنها دَقّة خفيفة واضحة. فقفز قلبها كأنها تعرف الصوت. كان مثل صوت يغنّي فوق أصوات أُخرى، يرجّع لحناً واحداً. غاب، ثم عاد من جديد، وكان يبطئ أحياناً، ويسرع أحياناً أخرى. لم تعرف ماذا تفعل، فتتبّعت الصوت. قادها إلى حارة تضمّ عدداً من المحالّ الصغيرة المظلمة، تبدو كهوفاً أكثر منها دُوراً بشريّة. عند كلّ محلّ، رجل يميل على سندان، يدقدق قطعة معدن. نظرت حولها، فلم تسكن أذنها الدقّة الواضحة، فقد ضاعت من صلصلة الصائغين حولها.

سارت بسرعة، ثم دخلت حارة أخرى. بدت هذه مألوفة نوعاً ما؛ ثم دعاها اللحن ثانية. لقد مررتُ من هنا، لكنْ متى؟ يحاول قلبها تتبّع القدّوم وهو يوقّع، يتوقّف، يبدأ من جديد، يبطئ، يُسرّع. بدأ رأسها يدور. وأحسّت بخفة جسدها حتى بدا أنه سيذوب. فمالت إلى جدار

بجانبها. المائل على سندانه يُدير إناءً نحاسياً بتصميم غريب على ركبتيه، ويقَدّوم فضّة صغيرٍ يدقدق حَفراً ويغور فيه. رفع رأسه، وفي تلك اللحظة تعرّفت إليه. كان صلاح الدين زرقوب، صاحب مولانا. أخذت مرة، أو مرتين، هدية أو رسالة إليه. وهو ما جعل المكان مألوفاً. دُهش صلاح الدين لمرآها.

"آه، أنت، كيميا!"، ابتسم ثم حنق: "أنتِ بخير؟"، وبدا مهتماً: "تعالي. اجلسي. لمَ أنت بالغة الشحوب؟"

أذعنت كأنها في حلم، وقلبها يخفق من دون انتظام. أشار إلى كرسيٍّ خشبيٍّ صغير بمكان في عتمة دكانه. فيما حولهم، أكوام أوانٍ، صوانٍ، أباريق، حاملات شموع تُومض في وهَن من نور مصباح الزيت، وهو ما يعمّق العتمة أكثر مما يبدّدها.

سمعت صلاح الدين يقول "دعيني أقدّم لكِ شاياً". دار نحو الشارع ثم نادى: "أحمد، يا أحمد، أين أنتَ؟"، ظهر ولد من مكان لا يُرى "هات لنا كوبين من الشاي، على عجلٍ. هذه الشابة تحتاج للراحة".

قالت كيميا: "لا أعرف ما حدث لي"، وهي محرجة: "فجأة شعرتُ بالدوخة".

نظر إليها صلاح الدين بانتباه مستجدّ. "القلب مرشد غريب"، ثم قال كمن يكلّم نفسه: "ميسم حياتنا هذا يقودنا حتماً إلى حتفنا".

أرجفتها كلماته. فهي تحمل حقيقة تعرفها بغموض، لكنها تبدو كنذير مخيف.

عاد أحمد بصينية نحاس تحمل كوبين من الشاي والبخار يتصاعد منهما، وضعهما أمامهما بعناية فوق طاولة صغيرة، ثم اختفى بالصينية. ظلاّ صامتَين للحظة، يحيط بهما صوت المطارق، وكوبا الشاي بينهما. في المسافة الضيقة بالمحلّ، السكينة مهدِّئة. شربت الشاي في رشفات صغيرة متلاحقة. كان بطعم الليمون وزهر البرتقال. صلاح الدين بقامته

القصيرة، وقوامه القويّ المكتنز، وبيديه الكبيرتين القادرتين مازال يحتفظ بشعوره وتوازنه.

علّق: "يدا صائغ"، حين لمحها تُحدّق فيهما: "تشكّلان وتحفران بالمعدن. لهذا السبب هما قويتان"، وتأوّه كمن أمسك بخناقه الأسى: "عمل سهل. هناك أشغال أخرى أهمّ تعجز هاتان اليدان عن إنجازها".

وغلبتها العاطفة المحترقة في عينيه فجأة. لم تشكّ يوماً أن هذه النيران قد تهلّ من مثل هذا الرجل الهادئ عادةً والمنكر ذاته.

"سمعت عن حجر الفلاسفة؟"، وكأنه يفكّر بصوت عالٍ أكثر منه يتكلّم معها: "ليس حجراً في الواقع... لكنْ هل تعرفينه؟"، ثم خفض صوته كمن يخشى أن يسمع أحد السرّ الذي يوشك أن يفشيه: "إنه يحوّل النحاس إلى ذهب. ذلك هو". كان في صوته رَوع كالعاطفة. تذبذبت شعلة مصباح الزيت، تنفث رقرقات من الضوء على أكوام المشغولات حولهما. جذب مقعداً آخر من العتمة، وجلس متثاقلاً، وهو ينظر إليها بعينين ثاقبتين.

تردّد: "أتساءل غالباً عن شعور النُحَاس حين يستحيل إلى ذهب. هل يحسُ بالرعب، بالفرح؟"، وبدا من جديد كأنه يتردّد: "ربما... قولي لي أنت".

فتقهقرت، عاجزة عن تحمّل توتّره، لتستند إلى الجدار المجاور لظهرها. لم تنفّره حركتها، لكنه نهض فجأة.

"سامحيني، كيميا خاتون، ليس من حقّي سؤالكِ. سامحيني. أنا عجوز أحمق".

لم يخاطبها من قبل رسمياً بهذه الطريقة. بدا هشّاً وحساساً، فأحسّت بالأسى عليه.

قالت: "لا شيء أسامحكَ عليه"، ثم نهضت هي الأخرى.

ونظر كلّ إلى الآخر، مُحرجاً.

"سأطلب من أحمد أن يصحبك في طريق العودة".

"لا، لا. سأكون بخير"، وأرته اللفّة التي تمسكها بين يديها، أوضحت: "عليّ أن أسلّم هذه الهدية في مكان ليس بعيداً عن هنا. سأكون بخير"، ردّدت.

"متأكّدة؟"، لم يبدُ على صلاح الدين الاقتناع: "راعَي نفسك".

أومأت: "سأفعل. شكراً على الشاي".

فأومأ أيضاً. قال: "العفو"، سعيداً بالعودة إلى مزاجه الآمن بتهذيبه التقليديّ.

سارت خطوات، ثم دارت لتنظر خلفها، فرأته يميل على سندانه والقدّوم في يده. وحين ابتعدت، لاحظت أن دقّة قدّومه انتظمت وأبطأت. فابتسمت: يا حرَفيّ القلب، يا صلاح الدين! لم تشكّ في ذلك حتى رأته اليوم. تأوّهت بقناعة غريبة، فلاحظت أن قلبها كفّ عن ألمه. قالت، يدهشها اكتشافها: "يتنفّس الآن بأريحية. لقد تمدّد".

بعد دقائق، حين بلغت المنزل الذي ستُسلّم فيه هديتها، أرادت أن تُغنّي، فالعرفان يفعمها.

قالت الأم: "آه يا كيميا، بديع!"، وهي تنظر للمعطف الذي غزلته كيميا. ثم وضّحت: "أظنّه على مقاس مليكة بالضبط. لكنها نامت للتو. ولن أوقظها".

أخذت بضع كعكات من علبة، ووضعتها بصحن. "كيف حالك؟ كيف حال كيره؟"، ثم توقفت. لم تسأل عن مولانا، لأنه يعني السؤال عن شمس الدين، وهو فضول زائد. فأبدلته بتودّد: "سأعمل لك الشاي؟"، وهي تصبّ الماء الساخن في الإبريق.

أومأت كيميا. قالت: "الجميع بصحة جيدة. وكيف حال زوجك؟"، تعرف أنه نجّار.

ردّت المرأة: "آه، لديه عمل أكثر مما يحتاج".

فعلّقت كيميا : "هذه أوقات عمل. قونية تتوسّع".

وثرثرتا فترة.

حين غادرت كيميا، كانت السماء ذهبيّة اللون، رقيق كهمس الله. تفادت السوق هذه المرة، فاتّخذت للعودة طريقاً أطول، بجانب حديقة قمر الدين.

❖

كان المنزل هادئاً حين دخلته، عدا جلبة تأتي من المطبخ. فذهبت لغرفتها مباشرة، ورقدت بفراشها، عيناها مغمضتان، واعية بالظلمة التي تنتشر سريعاً على المدينة ومساكنها. كفّت الطيور عن هذرها المسائيّ، ومن بعيد كانت امرأة تنادي: "فائق، ألن تأتي؟"، ورداً عليها بدأ كلبٌ يعوي.

عادت إليها ذكريات الظهيرة: الألم والغضب في عينَي علاء الدين، صلاح الدين وسؤاله الفضوليّ: "سمعت عن حجر الفلاسفة؟". ترى الكلمات وهي تتراقص أمامها فوق أكوام المشغولات الوهّاجة بالعتمة.

"ألا تعرفين؟"، ملأ حضور مولانا الغرفة (دونما شكّ)، وكان صوته هذه المرة، مع علمها أنها لو فتحت عينيها فلن تجد أحداً هناك.

قال صوت مولانا : "حجر الفلاسفة، هو الجزء الأنقى منكِ"، ثم أردف: "قارَبَ العملُ آخره".

فارتجّ قلبها، كأنه تلقّى جواب مسألة يطلبها من زمان، مع أنها مسألة لا تعلم عنها شيئاً. كانت تظنّ أن حجر الفلاسفة شيء يتعلّق بتحويل المعادن، كما أكّد صلاح الدين. لكنَّ مولانا وظّفه بشيء آخر. تأوّهت. وهل يُجدي معها؟ وماذا يعني أن قلبها يعرف ما لا تعرفه هي؟

من جانب الحائط الآخر، سمعت عليماً يعوي. تمدّدت، لتتحرّر من التعب قليلاً. ثم حان الوقت لتنهض فتساعد كيره.

❖

بمرور الأيام، ظلّت ذكرى الظهيرة التي قضتّها مع صلاح الدين باقية، كالشذا الغائم حولها، يصعُب الإمساك به. فلا تزال تسمع صلاح الدين ومولانا يدمدمان عن حجر الفلاسفة بما لا تفهم. وتذكُر أن قلبها ارتجّ فرحاً لدى سماع كلام مولانا، من دون أن تستطيع استعادته في بالها. لم تكن أول مرة يركض فيها قلبها أمامها، بل تسمع ما لا تعلم عنه شيئاً. اطمأن ألم صدرها أياماً، ثم كرّ اليوم، حاداً أكثر من ذي قبل، ولاحظت أن تعبها ازداد.

قالت كيره عند الظهيرة: "تبدين شديدة النحول"، وكانتا تجلسان بالمطبخ: "كما تبدين بالغة الشحوب".

ظلّت كيميا ساكتة، لا تعرف ما تقول.

سألت كيره: "تأكلين كفاية؟"، وهزّت رأسها كمن يقول: "لا تسمعيني، أعلم أن سؤالي عبثيّ". وحدّقت كيره، المشغولة دائماً، في يديها، تبدو خجولة فجأة. لم ترَها كيميا من قبل هكذا.

هتفت: "لا تقلقي عليّ!".

رفعت كيره ناظريها: "أعرف أني لن أقلق عليك. فلن يحصل لنا غير مشيئة الله، لكنّ..."، ولم تُكمل. بل ضغطت يد كيميا ثم نهضت فجأة: "أنا الذي أخبرتك إنه لن يكون سهلاً، والآن انظري إليّ". فابتسمت ابتسامةً شُجاعة، كأنها اعتذار: "أريد منك أن تفرّي الآن"، وهي غاضبة من نفسها.

ولم تعرف كيميا، من جديد، ما تقوله.

وقفت كيميا بالمطبخ، تفكّر في حوارها الأخير مع كيره. مرّت أسابيع ولم يعد أحد يذكُر صحتها بشيء. نظرت للخارج. كانت ظهيرة رمادية من شهر نوفمبر، حيث تبدو السحب ثقيلة على كتف المرء، والسماء دانية حتى نكاد نلمسها. أفرغت الماء من إبريق نحاسيّ كبير في وعاء، ليُملأ ثانية في الصباح التالي. لم يكن هناك ما تفعله أكثر حالياً. غادرت كيره منذ وقت مبكّر لزيارة امرأة تُوفّي زوجها مُؤخّراً. وعليم نائم في ركن الغرفة يرتاح رأسه على وسادة، والمنزل كلّه كأنه مهجور، مع أن مولانا وشمس الدين، كالعادة، يحبسان نفسيهما معاً بغرفة مولانا. بدا اليوم لا نهائياً، وتحسُ بتعب غريب. عليها أن ترتاح. الوسائد الملونة في فجوة النافذة تدعوها. فجلست، أغمضت عينيها. تطنُ أذناها، وتنفسّها مُجهد. هي يد غير مرئية تضغط على قلبها، فتسحبها عميقاً مع كلّ نَفَس بقوة، مثل تيار في جدول ماء يملؤه مطر، إلى وَجرة لا يُسبر غَورها. مع ذلك فهناك فرحة غريبة في أن تدع نفسها تُسحَب عميقاً هكذا.

❖

حين فتحت عينيها، كان أول ما رأته كيره وهي تُطالعها في رعاية. فأدركت أنها ترقد بالفراش. لمحت همساً من مكان خلف كيره: "كيف حالها؟ ماذا حدث؟"، كان صوت مولانا.

وهي، أيضاً، لا تعرف ما حدث. فنظرت إلى كيره: "لماذا أنام بالفراش؟"

"حين عدتُ، وجدك سلطان ولد بالمطبخ غائبة عن الوعي. فحملناك إلى غرفتك. صه، لا تتكلّمي. عليك بالراحة".

تمتمت كيميا: "أحسّ بوهنٍ شديد". كلّ ما تريده أن تنام. حتى بقاء عينيها مفتوحتين يمثّل جهداً. تحسّ بيد كيره على ذراعها.

"اشربي هذا، سيأخذ بك قُدُماً للشفاء".

وضغطت كيره إلى شفتيها قدحاً. مذاق السائل لاذع. بلعته ثم غابت في النوم.

❖

حين فتحت عينيها، كانت وحدها. وفي مكان بالمنزل كان عليم يصرخ بأعلى صوته، خلف الحائط، بقربها، سمعت صلصلة أوانٍ وأوعية. في هذه الأصوات ما يُريح. الحياة هناك غير معكّرة، تدور بمجراها. مع ذلك، تحسّ بلا مبالاة غريبة. تشعر بالعطش، عندما رأت القدح بجانبها على الطاولة حاولت الوصول إليه، لكنه ظلّ جدّ بعيد؛ لم تستطع رفع يدها فتركتها تسقط على البطانية. لم تحسّ بمثل هذا الوهن. عَبَرت رأسها فكرة: "منذ متى وأنا هنا؟". عندئذ، دخلت كيره.

"صحوت أخيراً. ظننتُ أنك لن تفتحي عينيك ثانيةً". وابتسمت، كمن يمزح، لكنها لم تستطع إخفاء القلق بصوتها. استفسرت: "كيف حالك اليوم؟"

"أنا بخير، مجرّد وَهنٍ خفيف، و"، توقّفت كيميا لاهثة الأنفاس "لكنّ عطشانة".

"طبعاً! خذي الماء"، ساعدتها كيره في رفع رأسها وتقريب الكأس إلى شفتيها.

شربت رشفة رشفة. تحسّ بالماء رطباً منعشاً. سألت: "منذ متى وأنا عليلة؟"

قالت كيره: "منذ أسبوعين، تقريباً. وجاء طبيب. قال: إنه قلبك، وتحتاجين إلى قسط كبير من الراحة".

أسبوعان! لا تكاد تذكُر شيئاً من هذه الأيام: حضور كيره، حساء يمرّ عبر شفتيها، لهيب شمعة يترجرج في العتمة، وصوت شمس الدين مرة يقول: إنه يجب الإذعان لإرادة الله، لا الشكّ فيها، وغمرتها حينئذ موجة من الحنان. تستدعي الآن ما هلّ عليها من كلمات: "لستُ غير

هـذا الحنـان". لا يـزال معهـا هـذا الإحـساس لكـنّ بـوهَن. تركـت رأسـها يـسقط علـى الوسـادة، وهـي تتـساءل: هـل يتـساوى أن تحـبّ أو تُحَـبّ؟ وتركـت الـسؤال يـذهب في سـبيله. كـل مـا تريـده هـو الـسكينة. قُربهـا صريف نـاعم مـن أوراق الـشجر، أم خبـط أجنحـة؟ مـن يهمـس في أذنهـا؟ "سيحين وقت ما، تكون فيه السكينة والحياة نهـرين ينـدفعان إلى البحـر نفسه". وأغمضت عينيها فكان النوم ثانية.

❖

تقف بمحلّة صمت مريح. غريب! كأنها لم تعد تبالي بالعَالَم، مع أنها لم تشعر بمثل هذا الحبّ الغامر لكلّ الناس يتصارع فيها. وكأنها عادت لسنّ السادسة وأصحابها يتعلّقن بقفطانها، يشتكين أنها لا تُعير التفاتاً لألعـابهن. سمعـت صـوت آفـدكيا، أمهـا، منـذ زمـان بعيـد: "هـذه البنـت تتعبني. ماذا سيجري عليها؟"

"لا يا ماما، أنا بخير. سأذهب حيث أريد. وسآتيك بفرحتي، الفرحة الـتي نحـسّها في النـسيم الجبلـيّ، في الينـابيع، في خشخشة الـشجر وسـط الـريح، في طلعـة الفجـر". ثـم تجـري علـى مـدقّ حجـريّ يفـضي إلى منـزل متقوّض قديم. فترى أباها فاروق جالساً على مقعد حجـريّ جانب البـاب الكبير. استحال شَعره أشهب وتجعّد وجهه. ينظر إليها مدهوشاً، يُعجِزه الحـديث، والـدمع ينـهلّ علـى خدّيـه. صـاحت: "بابـا!". النـور حولـه وحـول المنزل كثيف حتى أغمضت عينيها، وجفّ حلقها فجأة. بلغها صـوت بعيد: "اشـربي قليـلاً، سيأخذ بـك قُدُماً للشفاء". قطـرات مـاء بشفتيها، رطوبـة منعشة من نبع جبليّ. فتحت عينيها، فرأت وجه كيره يميل عليها.

"أين أنا؟ وأين بابا؟"

"أنت هنا في غرفتك. تعبت، مؤخّراً"، بدا وجه كيره مُجهَداً، وصوتها أجشّ.

"أنا بخير"، طمأنتها كما كانت تُطَمئن أمها من لحظة سلفت "سأذهب حيث أريد". ثم رأت دموعاً تطفُر من عينَي كيره، وصوت مكتوم خلفها. كان شمس الدين، واقفاً بجانب الباب، ووجهه عابس كعهده. لكنها هذه المرة استشفّت نظرته القاسية. وكأنه امرؤ يتعلّق بحياة عزيزة وسط عاصفة، فكّرت، غير مجفلة، مع أنها كانت زائلة. فأغمضت عينيها من جديد، مشبعة بمحبته.

تقف الآن وسط حقل شموع منوَّرة على امتداد الأفق. الشموع من كلّ حجم؛ نحيل بعضها وطويل، قصير بعضها وسميك، نارها تترجرج كأن النسيم ينفخها. "كلّ شمعة مختلفة"، يهمس النسيم بأذنها "لكنها النار هي هي". آه، فكّرت، كانت مجمرة واسعة تتنفّس باتّساق، وهي جزء منها، صدرها يرتفع وينخفض، والنار ترتقي ثم تترامى فترتقي من جديد. تنصت الآن منتبهة، فالنار تستحيل إلى معزوفة كالبلّور. تنبع من فسقية، وتحاول أن تُبلغها شيئاً. ثم تبطئ المعزوفة في تمتمة: "قارَبَ العملُ آخرَه". فتغمرها فرحة. لم أنجز شيئاً، فكّرت (فكرة طازجة رطبة كالمعزوفة التي تسمعها)، مع أن مَهمّتي انتهت. وعلى حين غرّة تقافزت النار، تبثّ المعزوفة إلى درجٍ أعلى، حيث راح الوهج الذهبيّ إلى شعاع مصمت. "أنتِ اللحن، وأنتِ المعزوفة"، نطق قلبها، مع أنه لم يعد ملكها، عاد ملك شمس الدين وملك مولانا، ملك فاروق وملك آفدكيا. عاد قلبها لقلوب كلّ مَن عرفتهم، وكلّ حتى مَن لم تعرفهم. تتجرف أبعد وأبعد. "أنتِ الشمعة، أنت اللهب، وأنتِ النار. أنت الفرحة والنور. أنت الحبّ. أنت العدم"، ورقّة الكلمات بلون غمام الخريف فوق حديقة قمر الدين "وأنتِ البدء".

يغمرها عرفان لا يُحدّ. فصاحت: "قلبي ينفجر!". ولم يكن غير نور غامر.

ختام

بعد أسبوع من وفاة كيميا، اختفى شمس الدين، وهذه المرة للأبد. هناك نظريات عدّة تتعلّق باختفائه. تميل إحداها إلى التعميم، لأنه أكثر دراميّة، فتُشير إلى مقتله بإيعاز من علاء الدين. لكنْ ليس هناك ما يعزّز هذه الرواية. يضرب سلطان ولد، في قصيدته المتعلّقة بسيرة والده، صَفحاً عن هذه الفكرة. وينادي ثلّة من مؤرّخي الأحداث بأن شمس الدين قد عاد إلى تبريز، بينما يذكُر مصدر أن وفاة شمس الدين قد وقعت في مدينة خوي بدرب عودته إلى تبريز. هناك شيء مؤكَّد: أنه ذات ليلة باردة من ديسمبر /كانون الأول عام ١٢٤٨ في قونية، اختفى شمس الدين فلم يُرَ ثانية.

قد تكون وفاة كيميا أحد العوامل التي تسبّبت باختفاء شمس الدين، لكنْ مهما كان تأثّره الكبير بموتها فقد لا يكون مدعاة لاختفائه. ما يمكن القول به: إن وفاة كيميا كانت مَعلَماً بارزاً، يشير إلى نهاية علاقة أخرى، بين شمس الدين ومولانا جلال الدين الروميّ.

حدث تغيّر كيميا: فمَهمّتها في هذا العَالَم انتهت. وعلى المثيل، فإن تغيّر مولانا أيضاً قد حدث، لكنْ مَهمّته كانت بداية. وكي تتمّ مَهمّته، كان على شمس الدين أن يرحل، فبقاؤه كان يُعيق مولانا. وفي الحالتين، انتهى عمل شمس الدين، ومصيره فاض إلى مجراه.

"... والنار والوردة، واحد"

"رباعيات أربع"

ملحق

قطائف من رباعيات[1]

مولانا جلال الدين الروميّ

(١) عن (Quatrains of Rumi, by John Moyne & Coleman Barks, Threshold Books, 1989). (م)

نفسي، اسمي - لقاء العدم

عاش مولانا جلال الدين الروميّ (٦٠٤/ ٦٧٢ هـ، ١٢٠٧/ ١٢٧٣ م) معظم حياته في قونية، بتركيا، وكانت مركز التقاء عديد من الثقافات بالطرف الغربيّ من طريق تجارة الحرير، وهو المحور الذي كان يصل العوالم الإسلامية بالمسيحية، وحتى بالهندوسية والبوذية. وقد حاك مولانا عناصر من هذه التقاليد جمعاء بطاقة خلاّقة متفرّدة، فلم يكن إبداعه فيها إلا شظايا عفوية.

ولد الشيخ في بلخ (بأفغانستان حالياً)، وطُورد مبكّراً من قبل الغزو المغولي إلى قونية (عاصمة دولة السلاجقة بآسيا الصغرى). خَلَفَ أباه كمعلّم، فأصبح مثله موئلاً لمريدين يأخذون عنه. وكانت تشيع في قونية (منتصف القرن الثالث عشر) ثلاث لغات على الأقلّ: التركية، وكانت لغة العوام - الفارسية، وكانت لغة الأدب - والعربية، وكانت لغة القرآن والمراسم الدينية. أما مولانا فكان يكتب، أو يُملي على الأرجح، تغلب عليه الفارسية.

يبدو أن طريقة مولانا في الإبداع قد مرّت بأطوار محدّدة: قبل لقائه شمس الدين (كتاب "فيه ما فيه"، وهو عبارة عن دروس فقهية)، ثم عفوية الانجذاب الصوفيّ حتى منتصف عمره (ديوان شمس الدين التبريزيّ - الرباعيات)، وآخرها القصص المركّبة والغنائيات والتعاليم (ديوان "المثنويّ") وشغله طوال عقد حياته الأخير.

صادف مولانا (في عمر السابعة والثلاثين) القطب العرفانيّ شمس الدين التبريزيّ (وكان في حوالي الستين). قبله، كان مولانا صوفياً تقليدياً إلى حدّ، ثم ظهر شمس الدين في حياته، بألمعيته الفكرية

واستقطابه الروحيّ، فأمسك كتب مولانا ورمى بها في بئرٍ، ليستبين حاجته في أن يعيش ما كان يقرؤه.

كانا يروحان في صحبة تطول أسابيع في حوار باطنيّ واندماج كامل. فغار مريدو مولانا من استغراقه التامّ مع رفيقه، فدفعوا شمس الدين للرحيل فترة إلى دمشق. لكنه عاد من جديد، وقيل: إنهم قتلوه في النهاية بطريق عودته إلى تبريز في فارس. لكنّ الخرافة تتباين هنا وهناك، بين رواية وأخرى. لكنّ يتّضح أن مريدي مولانا لم يحتملوا هذه العلاقة العميقة بين القطب والشيخ، بل أدركوا أن فيها ثمة خطراً، لم يفهموا بحران النشوة في الوصل بين العاشق والمعشوق، فكان الفصل ضرورة لازبة[1].

في هذه القطائف من رباعيات مولانا جلال الدين الروميّ، نصيخ إلى كلٍ منهما، القطب والشيخ، في سجن من الحبّ يشغله التواطؤ حولهما، وتبدو كهمس المحبين وسط الحشود.

قبل الوصال وعذاب الذهول مع شمس الدين، لم يكن مولانا شاعراً على وجه التحقيق، ثم تفجّر بكينونته الشعر احتفالاً بلقائه القطب، أفعمه بالأسى والتواجد والشغف المحترق إلى من كان مرآة نفسه.

نرى في هذه الرباعيات سجلاً فريداً لاتحاد المحبّ والمحبوب، الروح والملهم. ولم يكن ذلك، قطعاً، مخطَّطاً أو مفهوماً. فهو يُصيخ إلى جلاجل من بعيد، وحين يستدعيه الوجود القريب الملازم، فإن أول ما يقال يتزامن بالضبط مع آخر ما قد قيل. إن الشعر، لدى مولانا جلال الدين الروميّ، هو ما يؤدّيه في غضون ذلك، قُربى للوجود الأسنى الذي يعشقه. وساعتها، لا يكون غير سيّال الدموع، هبةً من العين، قبل أن يتملّى غياب المشهد بما فيه، وقد كان فيه ما فيه.

---

1 – ثابتة، متماسكة.

تضعكَ هذه الرباعيات، أيها القارئ الكريم، في فضاء شاسع من الإبداع الأنيق، وقد تظنّ (بمصطلحات الصوفية) أن "الوقفة" لحظة أسًى، لكنها تقلبكَ بمنظور نسبيّ نحو خلاء ولغز على حين غرّة، فهي تتطلّب قدراً من الصفاء، فراغاً كي تجول فيه، سماءً، فضاء باطنياً من الأناة والوجد، كباب يُفضي إلى إقليم وسيع ينفتح خيالكَ عليه:

أحيا على حرفِ الخَبَل.
أهوى لو أدري الأسبابَ.
أدقّ باباً، فيُفتَح.
ثم أدقّ عليه من داخلٍ!

تضم رباعيات مولانا نحو (١٦٥٩) رباعية، عدد أبياتها (٣٣١٨)، أترجم هنا قبساً منها، قطائف أُهديها إلى روح مولانا، لعلّي أقترب، فأنجو من لومكم.

المترجم

هو الغامرُ حَرميَ السريّ
مَن ابتنيتُه، يحرمُني النوم،
مَن يسحبُني فيُلقيني أرضا،
طيفه نشوةٌ أنطق بها.

القلبُ سالك، والمعرفة تلين:
لا ينفردُ الجسمُ مثل جيفةٍ،

بل غريبٌ كحبّة ملحٍ
لا تزالُ بطرفِ الجبل.

نوركَ لم يأت من مَيْضَأة،
لم تنشأ قَسَمَاتُكَ من نُطفة،
لا تحاول أن تختبئ غاضباً
فالجلاءُ لا يختبئ.

طول النهار والليل، لحنٌ
نَيّرٌ، هادئ –
غناء مزمار،
إن خبا نذو.

ليسَ للنومِ هذا العام سلطانٌ.
قد يكُفّ الليلُ عنا،
حين نُحجَب،
ما عدا في الفجر.

يمتدُّ هذا الليلُ حتى الأبد،
مثل نارٍ في الرفيق تتّقد.
أعرفُ صادقاً أن هذه الهناءة،
غافلاً أنها الأسى، وافتقارُ الجراءة.

مناخلٌ هي الأيام، تُصفّي الروحَ،
تكشفُ النَجَس،

تُبينُ النورَ إلى ثُلّةٍ يرمون
نارَ بهائهم للكون.

خرجَ جوادٌ من حيثُ لا نعرف
فحملَنا، حيث ذُقنا هنا العشق
ولم نعد نحيا.
مثل خمرٍ، نستقيها دائماً.

باكراً، كي أستعدّ
حللتُ أربطةَ الساقِ،
أما اليوم، طيبُكَ – عرفانٌ
على الريحِ ينبُت.

هباتُ الرفيق، المُعلّمُ الباطنيّ
كساءٌ من الجلد والعروق،
ألبَسهُ، فأكونَ طريقةً
والمجاورَ شيخيَ القُطبُ.

لا رفيقَ سوى العشقِ.

طريقٌ، دون بدءٍ أو نهاية.
يدعو الرفيقُ هناك:
فما يُمهلكَ، وحياتكَ محفوفةٌ بالمخاطرِ!

ادّعيتُ أني أثِبُ
لأرى هل أعيشُ هناك.
عليّ حقاً الوصولُ،

ورائيَ العدمُ إلى أن أصل.

ها هنا رجلٌ مَهيبٌ
يَعرضُ كأساً بخمرٍ،
تتجلي فوقيَ القوةُ
كما آملُ، لا تتجلي لي!

دعِ العاشقَ في خزيه ذاهلاً،
يبلَى العاقلُ الحوادثَ
وهي تمضي لأسوأ،
فدعِ العاشقَ في كونه.

سلوكُ نبيٍّ ومظهرُه،
أرومَتُنا، خصالٌ
تحيا بنا، لكنها

تستحي مما نصير عليه.
إن ملكتَ رُوحكَ، فاحتَسِبها
أرْخِ لها أن تعودَ بكلمةٍ واحدة،

حيث جئنا. الآن، آلافٌ من الكلماتِ
ونأبى الخروجَ.

هل تحبّ الحياةَ، اهجُر ضفافكَ،
كجدولٍ وضيعٍ يُباشر نهراً عريضاً،

كأنعامٍ تُزَحزَح حولَ الرَحَى
لتُضمَّ عُليًا الدُنَى.

الحياةُ، لتفنَى؟ يهب الله أخرى.
مجّد المطلق. وسلّم بالمُقيّد.
العشقُ نبعٌ. فانغَمِر.
كلُّ قطرةٍ تنفَصل، عُمرٌ مُستَجَدٌ.

حسبتُ أني حكَمتُ نفسي،
فتأسّيتُ على ما مضى،
لكنَّ شيئاً واحداً أعلمه،
لستُ أدري مَن أنا.

هذا فُتاتُ القوت لا يُؤكَل،
ولا تستبِينُ نُتَفُ الحكمة بالنظر.
ثمة لُبّ اللبّ في كلّ امرئ، حتى جبريل
لا يعرف بالسعي للمعرفة.

قراءةُ الأسفار تروقُ آخرَ العمر. فلا تحزن
إن رأيتَ الصغارَ يستبقونكَ. ولا تعجَل.
هل أنتَ في رَهَقٍ تتجهّزُ للنزوحِ؟
خلّ يديكَ للألحانِ.

يتلكّأُ بعضُ الليلِ عندَ الشَفَق،

كي يأذنَ القمر للشمس أحياناً.
فكُن مثلَ قادوسٍ يجرّ دروبَ الظلامِ
من بئرِه، ثم يُصعِدُها إلى النورِ.

أُمّحُ الليلةَ الباقي. رقَدنا سابقاً
نُصيخ إلى قصّتكَ الوحيدة،
وأنتَ عاشقٌ. نرقدُ حولكَ،
مصعوقين كالموتى.

لا أقداحَ، لكنْ خمراً تدور.
لا دخانٌ، بل لهب.

اسمعوا الأصواتَ خافقةً،
بما تتخُر به الأنغامُ.

لا نرومُ المدامَ كي نسكَر،
لا قصفَ الغناءِ لننتهي مجاذيبَ.

لا منشدينَ، لا مرشدينَ، لا شدوَ،
بل نَثِب جامحينَ تمامَ الجُموحِ.

لا حبّ أفضلَ من حبّ بدون حبيب،
ليسَ أصلحَ من عملٍ صالحٍ دونَ غاية.
أن تهجُرَ السوءَ والحذقَ فيه،
فتلكَ هي الخدعةُ الماكرة!

قد أنقَسم عن أحدٍ
غير مَن يحتويني.
أيّكم يهب العطايا،
خُصّ لي أحداً مانعاً.

رمزُ أجناسنا فُلكُ نوحٍ،
وقد استوَى على الجُوديّ،
طفَرَ من الماءِ نبتٌ

ليس له موقعٌ أو نمَط.
نهارٌ بشمسَين في السماء؟
ليس كمثله نهارٌ،
زَفّ مَهيبٌ إلى الكوكبِ:
نهاركم مفتونٌ!

في يدي كأسٌ، أرتمي،
أشِبّ على قدمَيّ مشدوهاً

ثم أخمُد، لا وقفةٌ بعد
أنا الجامدُ الرصين.

يهلّلُ الرفيقُ، وهو معاً
جليّ قاتمٌ، عابثٌ جريء.
أنا هو أنا –

واحدُنا كأنهُ الآخر.

يهلّ رفيقي إلى جسمي
بمركزه، حين يعجزُ
يستلّ نصلاً
نافذاً في أيّ موقع.

هذا الليلُ دونَ تُخومٍ،
ليس ليلاً بل زفَاف.
ملنا إلى مَخدَعٍ دونَ خداع
فتُدلّي العتمةُ الأستارَ.

هذا الليلُ ماهيةُ الليل،
طالبٌ، والطلبُ يعوزُ
سماحةً وعطية، تلا شيءً
جيئةً وذهوباً: مع اللهِ!

في الليلِ كلامٌ موجعٌ،
كامنُ الشرّ عائقٌ:
كلّ ما ترتكبه يفنَى
مع الليلِ، وبعدهُ ترتكب.

أطوفُ لمرقدكَ الليلةَ،
دائراً حتى الصباحِ.

نسيمٌ يبوحُ، فيعرض رفيقي
كالطاسِ جمجمةً لغيرِ مُسمّى.

ممتلئٌ بكَ،

جلداً دماً وعظاماً وعقلاً ورُوحا.
لا فُسحةً لليأسِ أو الرجاء.
لا أرى في الوجودِ إلاكَ.

لا تغفل عن العزقِ، فأنتَ الهيكلُ،
للجسمِ مسالكٌ، حواسّهُ الخمسُ.
تتفلق، والرفيقُ أمامكَ.

فافلَقهُ. حُلّ به كلاً واحداً.

واصلِ التّجوالَ، فلا مكانَ لكي تصل.
لا تُجرّب أن ترومَ مراميَ الأبعاد.
ليسَ لآدميّ. فارحَل إلى باطنكَ،
ولا تَمِل لطريقٍ الخوفُ يُجريكَ تمضي عليه.

اذرع خُطاكَ إلى البئر.
تقلّب كأرضٍ سيّارةٍ أو قمر،
ودُر على هواكَ.
أيّما جوبانٌ نابعٌ من محورٍ.

تبسمُ الوردةُ من طولِ تحديقي،
وأعجَبُ من ماهيةِ الوردة،

ومن يملكُ الوردةَ،
أياً كان ذلك يُضمر.

يدانِ، عينانِ، قدمان، لا بأسَ.
لا شقاقَ بينَ الرفيقِ وحبّه.
أيّ شَقاق يسُنّ فروقاً لا تفي:
كيهوديٍّ، مسيحيٍّ، ومسلم.

أراكَ - تُبرئُني.
لا أراكَ، تُطبِق حولي الجدرانُ.
فلا أبتغي للسوَى
هذه الغيبةَ.

كيف تحيا بدوني؟
كيف تشكو؟
كيف تعرفُ ذاتكَ؟
كيف تُبصرُ؟

ضالٌ عندَ مَن لا يرومُ الهُدى.
أجسّ الألم، بحفاوةٍ من الآخرِ،

طالبُني كليةً. ولو أمسكتُه

مثلَ باطلٍ، فالطلبُ عزيز.
يختبئ عشقي للصّ العشق،
يمسكُه بأسناني من الشَعر:
مَن أنتَ؟ لصّ العشق يستخبرُ.
أفتح فمي لأبوحَ، فيُفلتُ للبادية.

أنعمتُ فكري فيكَ ثم رميتُ
بالكأسِ نحوَ الجدارِ.

لا سُكراً أو إفاقةً. بل أثب
أعلى وأدنى، فكلّي مُخبّل.

لا تُبصركَ العيونُ،
فنستميحُكَ عُذراً: للظاهرِ العيونُ
لا الباطن، مع أنها منزلةٌ
تُرَجّى دواماً.

تُمضي معي ليلاً بطوله،
تسألُني: كيف أحيا بدونَكَ.
إنني سمكٌ يتنفّسُ من رملٍ ظامئ.
باحَ البكاءُ: لكنكَ اخترتَ.

افترقَ الصوتُ عن الوجود،
في الدرب أنباءُ.
يلتمّان في هدوء،
بكلامٍ طائفٍ، يُطبقُ الفارق.

النهارُ خميرةٌ، تُخضلُ عينَيّ بالغمام.
تعبثُ الريحُ بشَعرِ الشجرِ فيضحكُ،
كصغارٍ يلعبون، وأمهاتٍ يراقبنَ
وآباءٍ يتلمّسون البحثَ عن ماهيّةٍ.

بُحتَ لي: أنا هو، هو أنا.
أنتَ في رأسي، ورأسي في يدي.
ألتفتُ إليّ. ولا نعتَ لي،
فلماذا أطوفُ إن اكتملتُ.

لمَ هذا الأسى والشحوبُ؟
لا تتطلّع بي كثيراً.
كالعاكسِ نورَ غيرِه؛ القمر
نبعُ الألمِ.

أينه مَن يراكَ ولا يبتسم،
أو يرتمي أو ينفجر كالهشيم.

فلن يكونَ غير ملاطٍ وحجر
في مسجنِه.

سر عاريَ القدمين، دُرْ بالأرضِ،
حُبلى بالمرح والبراعم.
الربيعُ نحو النجومِ،
والقمرُ حيرانُ مما يدور.

سماءُ الليلِ أعلى القمر، كلُّها لكَ.
امتحانٌ أن تدبّ على الأرض.

يهيمُ المنشدون بأقدس الحانات،
ساهرينَ للفجرِ. وجرِّبْ ألاّ تنامَ.

منعَطفٌ بنا، بالكونِ، ندوخُ.
لا نعرفُ رأساً من قدم،
ولا قدماً من رأسٍ. لا نبالي.
كلٌّ إلى دورانه.

بالعزمِ يرتاحُ لي الحبّ،
أنا كائناتٌ في واحد.
ألضمُ ألفَ حُزمةٍ بحبّةِ قمحٍ.

في سَمِ الخياطِ، ليلٌ دوّارٌ بالنجومِ.

ريمٌ في موازاة كَومة أُسود.
صامدٌ فوق صخرٍ، وأصمدُ.

تظنّ حبي إلى زوالٍ،
حينما تتخلّى؟

لستُ أنا أنا . نجوتُ،
عائداً للمحيط. قدماي في الريح،
ورأسي أسفلُ. كوليَ بعد الصلاة:
الخُلوةُ، السماطُ، الوجوهُ الرفيقة.

أصِخ، لو تمكّنَ منكَ الوفاءُ.
لا تكونُ مع الرفيقِ بمن تكونُ،
بل هنا وقفةٌ هاذية؛ رؤيةٌ؛
والشهودُ حواشي اللغة.

لا تُسد نُصحاً كريماً إليّ.
فقد ذقتُ شرّ الحادثات، واعتقلَتني
حيث لا أعلمُ، صِفّدَتني، كمّمَتني،
لا تعي ما حُزتُ من عشقٍ جديد.

في مسلخِ العشقِ، القتلُ للأفضلِ،
لا الواهن ولا الشاين.
فلا تُولِّ الأدبارَ من ميتة هكذا.
مَن لم يمُت بالعشقِ فهو جيفةٌ.

ليسَ للكينونةِ ما تبدو عليه،

ولا عدمُ الكينونةِ.

وجودُ العَالم،
في غيرِ هذا العَالَم.

في غياهبِ العشق،
أرضٌ عَرَمَرمٌ، وهواءٌ مُغير.

للكون روحٌ، واحدٌ وبسيط،
العشقُ زاجُ الكونِ.

لو رأيتَ الندامى!
دنانٌ تُحطَّم، وأرضٌ نقيعٌ،
وَسقفٌ بالنجومِ مرصّعٌ.
فلا عجبَ من الكأسِ في يدي.

لا عاقلٌ منكرٌ لوجودكَ،
لكني لا أجد مَن يُسلّم.
لا مكانَ حيثُ لا تكونُ،
لا مكانَ حيثُ الشهود.

حين تُخليني مَن أنا،
أكونُ أقوى من ملاك.

فينظمُ هُدبكَ على خدّي
شِعراً لا يقدر عليه أحد.

داخلَ الماء، ساقيةٌ تدورُ.
نجمٌ يلفّ مع القمر.
في بحر هذا الليل،
نذهل من الأنوارِ!

عند نبعٍ، يُشذّب قصبةَ الناي.
تدمن القصبةُ الروحَ كالراح،
تتمرّس. حين تسكَر،
تُشرع في أنغامها العلوية.

في البدءِ غنّيتُ ثم تلوتُ القصيدَ،

فأسهرتُ المجاورين.
الآن عاطفةٌ أشدّ، وأكثر طمأنينةً.

حين تصطلي النيرانُ، يتلاشى الدخان.

تُقيّدني، بكَ أنعتق.
تلومُني، بكَ أحتَفي.
نصلُكَ المشقوقُ عشقي،

أنينُكَ أغنية.

أنصت لأطياف القصائد.
دعها إلى ما تريد.
اتبعْ شاراتها الباطنية،
ولا تُفلت مطلعاً منطقيا.

يخافُ السكارى من العسس،
بينما العسسُ أشدُّ سُكراً.

يتعلّق بهم أهلُ البلاد،
كأحجار شِطرنجَ مائلةٍ.

يرجعُ الليلُ حيثُ أتى.

كلّهم عائدٌ أحياناً.
يا ليلُ، عند وصولكَ،
أحكِ لهم كم أحبكَ.

ينعسُ الناسُ ليلاً كالسمك
في مياهٍ سُود. وحين يهلّ النهار،
يلقُط بعضهم آلاته.
الآخرون صنيعُ هذه الآلات.
يصدَحُ فينا صوتٌ

بأبياتٍ من "خسرو"، أو "شيرين".
يستثيرنا الهدوءُ أحياناً.

وقد يُهدِئُنا الكلامُ المثيرُ.

ينشُر نسيمُ الصبحِ فوحَهُ.
ننهَض لنتنَسّم،
في النسيمِ حياةٌ.
فتنسَّم، قبلَ الفواتِ.

جسمي صغيرٌ، فلا تكادُ تراهُ.
كيف يملؤني كلّ هذا الحبّ؟
انظر إلى عينيكَ. صغيرتان،

لكنّ تبصران أيّ مهول.
أينَ القدمُ الجديرةُ بالتنزّه في حديقة،
أينَ العينُ الجديرةُ بالتطلّعِ في الشجر؟

أرني رجلاً عازماً
أن يقفزَ بروحهِ في النار.

تتكلّم، فأبدأ الضَحك.
جيفٌ تستعيدُ الحياةَ.
أكلّمكَ اليوم من دون تأتأة،
مع أني أهرّفُ باطلاً.

لا أحدَ قانطاً منكَ. لكنّ،
ينشرُ النورَ من يتلَقّ نوراً.

ليس للسرّ أن يُذاعَ
ممّن يُؤتَمن.

مَن قال: السرمديّ باطلٌ؟
مَن قال: الشمسُ عمياءُ؟

فليصعد، ويُحكمُ عينيه،
ثم يقولُ: لا أرى.

تُطلقُ فاهكَ، رخيماً بالغناءَ.
وَي! كالقمر في السماء،
حين ينجلي المجالُ

تجده أمامكَ: "شمسُ الدينِ التبريزيّ".

ياقوتةٌ بمذاقٍ لذيذ،
مُشرَبةٌ نورَ خمرٍ. هل أبوحُ
باسمِ الكَرْم، أم؟
أنا خادمٌ كاتمُ الأسرارِ.

موثَقين بما يُطوّقنا،
خَسرنا. وكارثةٌ هنا.
قيّدتَنا بجَديلة شَعركَ،
بحبلٍ حول رقَبتنا.

العابدُ، لا يُرى بعيون الجاحدين.
كلّ مَن تقدّمُ لله،
نَمّ عنه السوى:
خاسرٌ لولائه.

لا يُخلّي مُنشدٌ رفيقَه.

يستظلّ به، بالعشق،
غالباً، أو مَغلوبا.
فهبنا مُنشدينَ كهذه السُنّة.

هي الشمسُ حبٌ، والحبيبُ
ذرّة تطوفُ حولَ الشمس.
يُطلّ نسيمُ الربيعِ، يُرنّحُ
أيّ غصنٍ غيرَ ذاوٍ.

لا تَحرجْ صدركَ بمخافة الله!
تنفّسْ بحرّية، طولَ النهارِ
والليل. قبلَ الفوات -
سُكّ فمكَ.

لو تخلّيتُ عن عقلي
لسطّرتُ لكَ مئةَ رواية.
ليسَ أفضلَ مِن دمعةٍ

هطلَت مِن مُقلةٍ لحبيب.

أُجلّ من يسعى للخلاصِ
دونَ أن يرقدَ،

فهو يُفرِغُ الذاتَ من أنا،
نحوَ كونٍ من صفاء.

بعلمِ اللهِ، لا علِمي،

ممَّ أضحكُ.
سويقةُ الزهرة
تميلُ، مع الهواءِ يميلُ.
هذه قصبة. تستحيلُ إلى عودٍ.
لقد أذنبتُ، وفادني الذنبُ.
لن أُسافرَ في الشهرِ الحرامِ.
أُولّي وجهي، فأرى العجائبَ.

ما من سمكٍ في غديرٍ نحيل،
ما من سمكٍ دون ماءٍ عميم.
ضيّقٌ مكانُ العاشقِ،
لا يرى العاشقُ هذه الدنيا.

بذرةُ المجذوب مطمورة،
تفيءُ بما غرسناه.

نسمعُ أنّةَ الناي من كلّ ناحيةٍ
تسري، دليلاً أننا العشّاقُ.

هاتها صهباءَ صرفاً، إنني الخليعُ.
تقولُ، عاصفٌ يحينُ!
أقول، هيا نحتسي،

ثم نجلسُ كالأزلامِ نرتَقِب.

اقتيدَ المرسلونَ
إلى رفقةِ العشّاق.
ندفأ بالنارِ، لكنها النارُ
تنطَفئ بطيوفِ الرماد.

غرستُ ورداً، لكنهُ من دونكَ استحالَ شَوكاً.
رَقّدْتُ بَيضاً لطاووسٍ، فحَوَى ثعابينَ.
عزَفتُ على قيثارةٍ، فتَقَطّعَت ألحاني.
ارتقيتُ إلى السماءِ الثامنة، فكانَت سُفليَّ جهنّم.

أقولُ، أفعلُ ما في خاطري. فتقولُ، مُتْ.
أقولُ، زيتُ قنديلي ماءٌ. فتقولُ، مُتْ.
أقولُ، أحتَرق كفَراشٍ
إزاءَ شمعةِ وجهكَ. فتقولُ، مُتْ.

عينانِ. تقولُ، للنظَر.

كَبدٌ. تقولُ، أدرهُ في كَبَد.
أنوّه بلُبّ القلب. - ما فيه؟
حبٌّ مَصونٌ إليكَ. تقولُ، خلّه لكَ.

تجرّب الأسرارُ آذانَنا. لا تدَعنا.
لا تُخبئ نورَ وجهكَ. لا تدَعنا.
دونَ نومٍ أو مُدامٍ. لا تدعنا،
نتنفّس حتى نكونَ حيثُ تكون.

تُحيِّرُنا، كأنكَ عاشقٌ.
تخرجُ أو تدخلُ مرتبكاً،
دون كُلفة. والمتلمّسُ دربَكَ
حارَ من دَربه.

كلّ يومٍ ألَم. هل أنتَ مُستغنٍ
أم لا ترومُ غرامي؟
أدوّن حكايةَ غرامي.
تَشهَد المكتوبَ، ثم لا تقرأ.

في طلعة الشمس أنفاسُ خمرٍ.
لا حياةَ وأنتَ لا تَثمُل. أبوحُ
بقيثارتي، دونَ أوتارٍ. اسمعْ!

كُنْ شاهدَ الحريقِ.

تسعَى لقُربَى، وأنتَ القريبُ.
ينسابُ ماءً، والغديرُ مُبرَّدٌ.

أنتَ عُلبةُ المسك. نحنُ الأرَج.
هل اعتزلَ المِسكُ يوماً طيبه؟

هامساً بالفجر:
"لا تكتُم ما أنتَ العليمُ به".
جواب: عِ، ولا تَبُح.
عِ، وتثبَّت.

رأيتكَ بينَ جَمعِ البارحة،
فلم تَضُمَّك أضلُعي،
أدنيتُ شَفَتَيّ من وَجنتكَ،
زاعماً أني سأفشيكَ سِرّاً.

آهِ لو ضممتُكَ مثل عودٍ،
فنشتكي الغرامَ.
تُفضّل قذفَ أحجارٍ على مرآة؟
أنا مرآتُكَ. هاهي الأحجارُ.

مَن لا يشعّ برؤياكَ
فارغٌ، مُخدَّرٌ كطبلةٍ مهجورة.

مَن لا يراودُ أسماءَ الله
فهو فَضلةٌ.

نشرَ جناحَينا.
السأم والضُرّ ينزويان.
أفعَمَ طاسَنا:
فنذوقُ مَجالي الفضاء.

بالحكمة دَفقٌ بَهيٌ، قوةٌ محلولةٌ.
بالعشق رفيقٌ.
الحكمةُ ناموسٌ، والعشقُ ماءٌ قُراحُ.
فتجلٌ. واجبٌ أن تخرجَ.

مَدَدُ العالمِ المسيحُ،
وكلّ قصد هو. فلا محلّ للرياء.
لماذا تشربُ لاذعاً لاستشفاء،
والماءُ العذبُ في كلّ ناحية؟

أنا: حرونٌ، سَكرانٌ، فظٌ.

غرامي: لطيفٌ، حائرٌ، ملول.
خُذ رسالتي من أحد إلى آخر،
جوابٌ ومن ثمّ ردٌ مُقابل.

لن أُفتّشَ عن مجالٍ أعيشُ فيه،
لا خجلَ من عاشقي. عينايَ بالأفق.
أراكَ هنا وهناك. غَسولُ العينِ طبٌّ،
لازمٌ للبصرِ، وللدورانِ.

يُبحر الحبّ قادماً، فأصيحُ.
يقعُد الحبّ جاري غير مُتولّه.
ينضو الحبّ رداءَ حريرهِ.
تَجرُّدنا معاً يُبدّلُني.

افتتانٌ لدى بابكَ،
تريحُ العنايةُ دربي.
فتذكّر، مع أنكَ تفعلُ الدناءةَ،
أرى العالَم برُمّته فوقَ وجهكَ.

الراحُ حُرّمَت هنا،
حياتي هِبةٌ للخَفيّ.

فاملأ الكأسَ واعفُ عن العاقبة.
لا بدءٌ هناكَ، ولا انتهاء.

أسمعُكَ، فأُرَخّمُ الأنغامَ.
رتّبتَ حياتي هكذا.

تملكُني مرةً، وفي التاليةِ

تردّني للدُنيا .

شاهدٌ برقكَ
من أرضٍ إزاءَ سماء.
فماذا تُصيّرُني،
حين تأسرُني؟

أنتَ ما تهفو به الريحُ.
طائرُ الليل سكرانُ باسمكَ.
تُخطّطُ صورةً، مرةً تلو مرةٍ،
نُقشَت بي، في فراغٍ طويل.

صُداحُ طائرٍ، ريحٌ،
وصفحةُ ماء.
كلّ زهرةٍ تذكُر الأريجَ:

أعرفُ أنكَ دانٍ.
عطايا حياتي إليكَ،
يا مَن يتعرّف إلى آخرَ يعرفكَ،
أنا المسوكُ في شَعركَ الملفوف،
في بطنِ عينَيَّ فاتنٌ كشميري.

تكبحُ مني هكذا،
أقتصد في الحليب، دونَ مشيئةٍ.
والغمامُ بطعمِ الحليبِ،

فما أفعل لترضَى؟

لأني غيتُ عنكَ،
أعرف لِمَ أبكي.
مثلَ شمعةٍ، أستحيلُ بديدَها .
مثلَ قيثارةٍ، أيّ رنيمٍ إليكَ نغم.

أقصى مطلبي
أن أُبدّلَ هيئتي،
أبتعدَ عن الوثبات.
عشتُ طويلاً، وقد حانَ صَيدي.

جذلانُ، لا أعرف لماذا .

مستدفئٌ، دون حمّى أو حرارةِ ماءٍ.
خفيفٌ، أُشيرُ
إلى الصفرِ في الميزانِ.

أنا هو النارُ في ناركَ،
أنامُ ورأسي على بابكَ،

رضاءُ حياتي هكذا
أن أعودَ إلى حضرتكَ.

ابدأ بخلقٍ، تؤولُ إلى خالقٍ،

ولا يُوقفكَ حدٌ.
لمَ تقنعُ، في مطبخٍ عامرٍ،
بشربة ماءٍ؟

في الوقفة، وحدي
أصيرُ مئةً مني.
يزعمون أني أطوفُ حولكَ.
تباً. أنا أطوفُ حولي.

لن أفُضّ أسراري.
ليس عندي مِفتاحُ بابي.

ما يُقيمُني فَرِحاً،
لن أبوحَ باسمِه، حبيبي.

في هذه الليلة،
سباقٌ للنشيدِ –
أنا ورفقائي
المشتري، القمر، وأنا!

تُسفَح خمري الليلة،
وآلةُ العزفِ تُنشدُ وحدها،
شيءٌ وحيدٌ حرامٌ،
شيءٌ وحيد: النوم.

حين نتواجَدُ، ينوّرُ الياقوتُ،
فأُرحّب بكَ حزيناً. لا تهب
لي فتوحاً ولا غيبةً،
ولا يطوفُ بي نُعاسٌ سأمانُ.

قمرٌ مقمرٌ. يقظٌ ساكنٌ،
ترانا من الزاوية، فتُذكّرُ
أنه لم يحِن بعدُ وقتي
للنومِ أو للتساقي.

عطيتُنا رسائلُ حبٍّ.
لخاطرها لا ننامُ.
أريجُ شَعركَ هائمٌ بالدروب،
يُعجبُ العطّارينَ هذا التباري.

كرومٌ، وتُعصَر تحت أقدامٍ.
تطوفُ حيثُ أطوفُ حولكَ.

لماذا أطوفُ حولكَ؟
لا. أطوفُ حولي.

اجتزتَ قلباً وقالباً،
لا قمر، لا أرضَ، لا سماء.
لا تُتلني الكأسَ. أملها بفمي.
تاهَ مني طريقُ فمي.

طُوردتُ أرضاً، وبعدُ المُطارَد.
دونما عملٍ، وأعملُ بانتظامٍ.
تبتغي رأسي، يا رفيقُ؟
هاكَها، هبةً مني.

الحقيقةُ، هي أنتَ وعشقي.

تسمو بالريحِ، لا تستبينُ.
ترقاُ في الحقيقةُ قُبةً.
أنا نَجمةُ العيّوقِ!

أُقعي أمامكَ،
وكأني عندَ مذبحٍ.
كلّ وعدٍ هيّأتَه مني،
حالَ رؤيتكَ، قطعتَه.

لا تدخُل علينا دونَ أنغامٍ،
فنحنُ على طبلٍ وناي.
لا تُشرَب الراحُ من أعنابٍ.
لا علمَ لكَ.

فرحانُ، لا أعرف ممَّ،
هل أشهَد وراءَ الوجود؟
فتفتحُ فاهكَ، لتضحكَ.

يسترعيني هذا الفَتحُ.

طالما تُذكّرُ بي، أطلُبكَ.
أقيمُ شاهدةً للغرام.
حلمتُ بكَ أمسِ، لكنّ راحَ حُلمي.

وصحوتُ على حُلمي.
نتشتّتُ حينَ تجلو ذاتكَ،
نجتمع مثلَ شَعرٍ تشعّثَ،
حتى تُذعنَ الأرواحُ –
مِتنا . ورُدّت إلينا الحياةُ.

عمامتي كُسوتي رأسي: ثلاثة،
لِقاءَ أقلّ من دِرهَمٍ.

نفسيَ اسمي، لا يُذكَران
لقاءَ أقلّ من عدَمٍ.

تهلّ ليلاً خُفيةً. مُناي
ألاّ أرى ذيلَهُ، الليلَ.
باحَ الليلُ: هاأنتَ تمسكُ الشمسَ.
فتولَّ أنتَ عليكَ النهارَ!

السرُّ الذي أفشيتَ، أفشه ثانياً .
لو أبيتَ، فليس لي إلا الدَموعُ.

تبوحُ إليّ: صه! واستَرِقِ السمعَ.
سأفشيه، مرةً من بعدِ مرة.

حينَ تستوحش، أُحيلُكَ للغناء.
حينَ تصمُت، أُحيلُكَ لتقُصّ أَحسنَ القَصَص.
لم يعلمْ أحدُنا أينَ أنتَ،
وهو عليمٌ الآن.

أحيا على حرفِ الخَبَل.
أهوَى لو أدري الأسبابَ.
أدقّ باباً، فيُفتَحُ.
ثم أدقّ عليهِ من داخلٍ!

لا حبَّ إلاكَ، لا أتنفّسُ.
حسبتُ أني قد أهجرُ،
ثم أنعَمتُ حُسباني،
فلم أدُم بشرياً.

نحنُ بحرَ الليل،
نحنُ النورَ، نحنُ المدَى
بينَ خلائق البحر والقمر،
حينَ نجلسُ معاً.

خفنا من وَصلِ وَصلٍ،

ثم من وَصلٍ فَصلٍ: أنتَ وأنا .

ولعٌ أنتَ ولعٌ أنا . سأعيشُ
كأني لا أسمعُ بالضمائرِ.

حافزان عنيدان:
واحدٌ، أن أحتسي زمناً
وأُفرطُ. ثانيه،
ألاّ أُفيق بُكرةً وأصيلا .

نشربُ الراحَ من دمنا .
أجسامُنا تتخمّرُ بالدنانِ.

نبيعُ أيَّ شيءٍ لقاءَ كأسٍ.
نبيعُ رأسَنا لقاءَ رشفةٍ.

هذه الخمرُ، كي يشتدَّ عشقٌ،
هذه النارُ، كي تتبدّدَ،
لا الخمرُ والنارُ صورةَ حُلمٍ،
بل ليلٌ مُليّلٌ لطلوعِ الفجرِ.

بتحكّمٍ ناجزٍ، تحكّمٍ دَعِيٍّ،
بسلطانٍ جليلٍ، نحنُ مجذوبينَ.
مثلَ صوفٍ تحت راحةِ فنانٍ.

لا ظنّ في ظنٍّ مَن نكون.
نسترُ مَن يغتسل.
نزهو إليكَ بجُودنا .
لتبلغَ بحرَ المُطلَق؛
تتهارَ، في ألمٍ.

ترقُبُ مني منّةً.
كلّ ما تفعلُ يرتدّ عليكَ.
اللّه رحمنُ. لكنْ إن زرعتَ الشعيرَ،
فلا ترقُب حصادَه قمحاً .

أهيمُ على سهلٍ مقفرٍ حَرِجٍ،
هنا كنتَ، هذه شارةٌ مهجورة.
فأعثُر بجيفةٍ مهجورةٍ،
ورأسٍ قد فُصِل.

هنا الخمرُ، وهنا المُعاندُ.
تليدٌ، وطريف. لن نكتفي
أن نكونَ وألاّ نكون.
مزيجٌ رائقٌ. مذاقُنا معاً .

راقدٌ ضمنَ الوجودِ،

لا أرغَبُ في مَطعمٍ أو مَشربٍ،
أطفو طليقاً، كأني

جثّةً في المحيطِ.

لا تُسلمني إلى مَن سلَف.
لا رفيقَ إلاكَ.
فيكَ مطلبي. لا تدعني
إلى إنّيّةٍ من جديد.

تبلغ عيناكَ القمرَ فالزُهَرةَ.
شيِّد لسُكنَى هذه الأبعادِ.

قد يتفكّك حماكَ من ركلةٍ،
عَجّل وفَكّكهُ.

أراكَ فينةً، وتغيبُ فينة؛
مسيحيً فينةً، ويهوديّ فينة.
أنتَ عاشق يليقُ بالجميعِ،
عاشقي هكذا كلّ يومٍ.

صلاحُ أعمالي أن أبلّغَ
هذا الحبّ، كالسُلوانِ للتائقينَ.

أسلُكُ حيثما قد طُفتَ
وأُحدّقُ في نَجَسٍ ألحّ.

للمترجم دواوين

١ - طور الوحشة، جماعة أصوات، القاهرة، ١٩٨٠.

٢ - قبر لينقض، طبعة محدودة، القاهرة، ١٩٩١.

٣ - على تراب المحنة، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥.

٤ - فحم التماثيل، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٧.

٥ - الملاك الأحمر، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

٦ - مخلب في فراشة، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

٧ - بكاء بكعب خشن، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٣.

٨ - خضراء الله، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٤.

٩ - ملاّحُ، تحبسه الرماح (الأعمال الشعرية، ج ١)، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٦.

ترجمات شعرية

١ - أشعار سودرجران (بالاشتراك)، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٤.

٢ - قصائد حب، آن سكستون (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٨.

٣ - رباعيات مولانا جلال الدين الرومي، دار الأحمدي، القاهرة، ١٩٩٨.

٤ - الهايكو/رحلة حج بوذية (شعر ياباني)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠.

٥ - رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٢.

٦ – نهايات، ديريك والكوت (مختارات)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣.

٧ – رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز (ديوان)، إبداعات عالمية، الكويت، ٢٠٠٣.

٨ – كاس الألم، إديث سودرجران (ديوانان)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٤.

٩ – أعشاش تحت القلب (ديوان الشعر السويدي)، اتحاد كتاب الإمارات، ٢٠٠٤.

١٠ – جمهورية الوعي (أشعار من ٥ قارات)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥.

ترجمات مسرحية

١ – رماد من رماد، هارولد بنتر (٥ مسرحيات)، دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، ٢٠٠٦.

ترجمات روائية

١ – جاز، توني موريسون، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٥.

٢ – فالس الوداع، ميلان كونديرا، روايات الهلال، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٨.

٣ – فالس الوداع، ميلان كونديرا، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١.

٤ – جاز، توني موريسون، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٣.

٥ – الساعات، مايكل كننجهام، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٤.

٦ – الساعات، مايكل كننجهام، روايات الهلال، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٤.

٧ - غرام، توني موريسون، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٤.
٨ - فالس الوداع، ميلان كونديرا، مهرجان القراءة للجميع، هيئة الكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.
٩ - فنانة الجسد، دون ديليلو، دار أزمنة، عمّان، ٢٠٠٦.
١٠ - حرير، اليساندرو باريكو، دار الأحمدي، القاهرة، ٢٠٠٦.
١١ - في عشق جيفارا، آنا ميناندس، دار كنعان، دمشق، ٢٠٠٦.
١٢ - فنانة الجسد، دون ديليلو، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٦.
١٣ - حرير، اليساندرو باريكو، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٦.
١٤ - مذكّرات شخص، مايكل كننجهام، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٦.
١٥ - جوستين، المركيز دو ساد، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٦.

ترجمات قصصية

١ - مرآة الحبر، بورخيس، آفاق الترجمة، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٦.
٢ - كتاب الحواس، ايتالو كالفينو، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ١٩٩٩.
٣ - شجرة مطر (قصص معاصرة)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠١.
٤ - مرآة الحبر، بورخيس، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٣.
٥ - أصل الطيور (قصص إيطالية)، (بالاشتراك)، دار كنعان، دمشق، ٢٠٠٧.
٦ - العين الثالثة (قصص كندية)، مرجريت أتوود، اتحاد كتّاب الإمارات، ٢٠٠٧.

ترجمات نقدية

١ - الخلاص بالحرية (مقالات عن الأدب العربي)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣.

٢ - الضوء المشرقيّ، أدونيس، (بالاشتراك)، دار بدايات، سوريا، ٢٠٠٥.

٣ - تخمينات عن الأدب العالمي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥.

بنت مولانا

بعد أسبوع من وفاة كيميا، اختفى شمس الدين، وهذه المرة للأبد. هناك نظريات عدّة تتعلق باختفائه. تميل إحداها إلى التعميم، لأنه أكثر دراميّة، فتُشير إلى مقتله بإيعاز من علاء الدين. لكن لا يوجد ما يعزّز هذه الرواية. يضرب سلطان ولد، في قصيدته المتعلّقة بسيرة والده، صَفحاً عن هذه الفكرة. وينادي ثلّة من مؤرّخي الأحداث بأن شمس الدين قد عاد إلى تبريز، بينما يذكُر مصدر أن وفاة شمس الدين قد وقعت في مدينة خوي بدرب عودته إلى تبريز. هناك شيء أكيد؛ أنه ذات ليلة باردة من ديسمبر عام 1248 في قونية، اختفى شمس الدين فلم يُر ثانية.

قد تكون وفاة كيميا أحد العوامل التي تسبّبت باختفاء شمس الدين، لكن مهما كان تأثّره الكبير بموتها فقد لا يكون مدعاة لاختفائه. ما يمكن القول به، إن وفاة كيميا كانت مَعلَماً بارزاً، يشير إلى نهاية علاقة أخرى، بين شمس الدين ومولانا جلال الدين الروميّ.

حدث تغيرّ كيميا؛ فمَهمّتها في هذا العالم انتهـ... فإن تغيرّ مولانا أيضاً قد حدث، لكن مَهمّته كـ... تتمّ مَهمّته، كان على شمس الدين أن يرحل، فـ... مولانا. وفي الحالتين، انتهى عمل شمس الدين ... إلى مجراه.





